

أَنْتَ تَلْعَبْ فِي
الْمَسْنَبَ

rewayat2.com

سِرْفِيزِيفْ:



إهداء

كثيرة هي الأسماء التي يتغى المرء أن يشكرها أو يهدي لها هذه الرواية، مع ذلك الشعور بالسخاء والصفح عن الكون الذي يغمر الكاتب لحظة انتهاء عمل جديد. لكنه عندما يحاول اقتناص عبارات الشكر يكتشف أن الكلمات قد تبعّر معظمها. فليغفر لي من لم تسعفني الذاكرة باسمه في هذه اللحظة، لكنني مدين بشدة لصديقي العزيز والأديب الجميل أحمد العايدى على كل شيء في الواقع، وبصفة خاصة على جعله أكمل كتابة هذه الرواية، وقد كان التوقف عنها ومحوها مغرياً بشدة في لحظات عديدة. قام أحمد كذلك بقراءة المخطوطة ومراجعةها، وله إضافات في غاية القوة. أشكر كذلك رفيقي عمري د. أيمن الجندي ود. رائف وصفي. الأول لم يدخل برأيه الصائب ومراجعةه في أي وقت، والثاني منحني سنوات من عصف الأفكار وتبادل الآراء حتى صار يفهمني وأفهمه من دون أن نتكلم. أشكر كذلك الدينامو النشيط المجامل سيف سلماوي الذي كان هناك دائمًا ليشجعني

rewayat2.com
سيزيف:

ويحمسني بابتسامته الهدئة المطمئنة. وفي النهاية أشكر ثورة
ينابير العظيمة التي أخبرتنا بالكثير عن أنفسنا بما فيها من خير
وشر. وأزعم أن من رأى تلك الثورة قد اكتسب قروناً من الخبرة
يتفوق بها من لم يرها.

تمهيد

ربما نحاول في الصفحات التالية فك طلاسم اختفاء المدعو عصام الشرقاوي منذ شهرين. الشرطة لم تستطع تبيّن شيء، وبذا واضحاً بعد سلسلة التحريرات الروتينية أنها لن تجد شيئاً، وأنَّ الاختفاء سيدخل ملفاً في أرشيف مُتربٍ عُششت فيه العناكب، مع عبارة تقول «جار البحث والتحري» يكتبها معاون المباحث وهو يتاءِب.

بعد سلسلة الأسئلة المعتادة عن أعدائه وخصومه ومنافسيه، تبيَّن أنه لا أحد يحبه لكن لا أحد يكرهه إلى درجة القتل. مُطلقته، إلهام أبو ياسين، أكَّدت أن العلاقات بينهما منقطعة منذ عامين ولا تعرف عنه شيئاً، وقد خمدت نيران القضايا بينهما، كما انتهت دواعي الخلاف. هناك مشاكل على قطعة أرض صغيرة يملكونها في قريته، لكنها ليست من الطراز الذي يؤدي إلى القتل والدفن في الرياح.

كان المختفي أو الفقيد روايتاً. أي أنه كان يكتب قصصاً، ويقال إنه على درجة من الشهرة، لكن الحقيقة أنه لا أحد يعرفه على الإطلاق،

ولم يقرأ له أحد حرفًا من قبل. أي أنه هو نفسه مصدر معلومة أنه أديب شهير نوعاً. الأدباء يتلون دائمًا في النهاية. رجال التحريرات يعرفون هذا، لكنهم كذلك يعرفون أن الأدباء لا يذلون جهداً في إخفاء جثثهم بعد الانتحار؛ إنهم مهملون ويتركون جثثهم بأمخاذه المتفجرة أو شرائينها المقطوعة في أي مكان، كأن باقي البشر خدم لهم، ولا عجب فهم مغرورون أيضًا. إذن هل تصادف أن المدعو عصام الشرقاوي هو الكاتب الأكثر تحضيرًا ونظمًا في السنوات الأخيرة؟

إن هذا الاختفاء لغزٌ، لكنه لا يهم أحدًا على الإطلاق، مثله كمثل السبب الغامض الذي يجعل القطة يبحث خلف أذنه عند اقتراب الأمطار. هناك سبب قوي لكن لا أحد يبالي بأن يعرفه ولن يفتشف عنه مخلوق.

في الصفحات التالية سوف نقوم بعمل بطيولي. نحاول أن نعرف سر اختفاء المدعو عصام الشرقاوي. هذا يقتضي أن نبحث كثيراً جدًا إلى أن نجد خيطاً. وربما لا نجد.

rewayat2.com
سيزيف:

لا يجسر المرء على أن يمضي وحيداً في «الدحديرة الشناوي» بعد المغرب؛ فالمكان ظل وسيظل إلى الأبد فوق القانون أو تحته.. لا أدرى بالضبط. كان وسيظل متمرداً على أي نظام، خارجاً على سطوة الحكومة، وهناك قصة لا يدرى أحد مصدرها عن أن سكان الدحديرة هم الذين قاموا بالقبض على الضابط وقوة الشرطة التي كانت معه وأسعوه ضرباً. ويقال إن حماسة بالذات هو من نزع حذاء الضابط ثم ضربه علقة ساخنة على بطن قدميه. الناس لا تعرف مصدر هذه القصص، ولا إن كانت حقيقة، لكنهم بالتأكيد يحبونها ويصغون إليها في طرب وانتشاء يشبهان ما يشعر به الريفيون عند سماع السيرة الهلالية. وكأنما حماسة ذاته يعرف الهالة الأسطورية المحيطة به، فلم يظهر للعيان منذ أعوام، ومع مُضي الزمن تتضخم وبدا أكبر من الواقع.

يمكنك إذا مضيت هناك صباحاً أن ترى الجدار العهدم المثقوب الذي تسنده أكواخ القمامنة الموضوعة باستراتيجية بارعة، والتي تتعالى

علامات أهمية وخطورة لا مبرر لها.. لماذا يشعر المرء بفخر وغرور لأنّه يلتهم الفول بشهية؟ لغز لم يستطع عصام الشرقاوي أن يحله قطّ، لكنه موجود.

إن عصام هناك كالعادة.

يقف عند عربة الفول ذاتها، وقد نفح شدقته بالطعم كعادته هؤلاء القوم.. ضع كل شيء في فمه قبل ابتلاعه كأنك تخشى أن يؤخذ من يدك. كان قد تعلم منذ زمن أن يترك ذقنه نامية، وأن يحكها من وقت إلى آخر ليوحى بأنه مصاب بمرض جلدي ما.. تعلم أن يلبس القميص القديم الذي ينقصه زران.. أن يتتعل الحذاء الممزق.. أن يلبس البنطال الرمادي الذي فيه بقعة زيت واضحة. إنه يقترب من الستين لكن لا يمكنك أن تلاحظ هذا أبداً، فهو من النوع الذي لا يعكس السن.. سوف تفترض أن سنه خمسة وأربعون أو خمسون عاماً لا أكثر.

كان يعرف الحقيقة.. أنت لست أنيقاً أو مهيباً بحيث يسمح لك رجال الأمن على باب ذلك الفندق أو ذاك بالدخول.. لا تبدو عليك علامات النعمة أو الثراء، لكنك في الآن ذاته تبدو رقيعاً ثرياً جداً عندما تمشي في «الحديرة الشناوي».. يرمي مونك بعذائية واضحة.. ربما بشيء من السخرية.. مئات الأسئلة الفضولية في الأذهان، والنسوة الشرسات الضخمات الجالسات على عتبات عششهن يتوقفن عن تنقية الأرز أو العدس أو نزع ريش الدجاجة عندما تمر، ويتبادلن الهمسات.. أم بلبل وأم شوقي وأم هند وأم صفوت...

يوماً بعد يوم، إلى أن يقرر الصبي أن يحرقوا بعضها ليصنعوا ثغرة. يمكنك أن ترى البيوت العشوائية الضيقة المبنية من طابق واحد، فهي أقرب إلى عشش الإيواء، أو هي كذلك. ويمكنك كذلك أن تدرك أن هذه الأسر لا أسرار لديها على الإطلاق، حياتها كلها تُمارس من خلال الباب المفتوح على مصراعيه، فإذا انغلق الباب بمعجزة مالياً دخلنا في فصل جديد يتم بالكامل أمام عيون الأطفال المتظاهرين بالنوم.

أمام هذه الجدران كثيبة المنظر، حيث رائحة البول والفضلات البشرية العجاف مختلطة برائحة المازوت، أمام هذه الجدران تمتد مساحة شاسعة، تعبّرها قضبان القطارات. نحن في الواقع على مشارف محطة القطار، وهذا يفسر الرائحة ويفسر الهدير الذي يهز المكان هزاً كلما مرّت عشر دقائق.

عندما يعبر القطار لا يبالي به أحد.. ديناصور منسي فقد هبّته فلم يعد يخفف الأطفال أنفسهم.. الناس فقدوا احترامهم لهذا الشيء، وقدوا تهيبهم له، لهذا يلعب الصبية الكرة وتعبر الفتيات الطريق بلا وجل، بينما هذا الجدار الحديدي يهز المكان هزاً. ثمة رجل يفرغ مثانته جوار جدار، فلا يكلف خاطره بأن ينظر إلى الخلف بينما القطار يمر على مسافة نصف متر منه.. فقط يهز نفسه ليبراً من بوله ثم يغلق زمام سرواله ويعود إلى شأنه.

جوار الجدار ثمة باائع فول يقف في سيطرة وفخر جوار عربته بينما الرجال يلتهمون الفول في أطباقه المعدنية، وقد بدت على وجوههم

هنا، شتائم بذيئة وبصقات.. صوت ارتقاطام حجر الدومينو العدواني بالرُّقعة.. هناك من صحا من نومه شاعرًا بالتلظر، ربما بسبب قطعة الحشيش التي أفناتها ليلاً، أو بسبب ليلة حافلة مع أمرأته، لذا أنزل الطاقية على مقدمة رأسه بين الحاجبين، وراح يقول أشياء يحسبها مضحكة جدًا وهو يفتح قطع الدومينو الخاصة به:

- يقولك فريد الأطرش لسه أطرش.

يمطُّ الكلام مطأً على سبيل التلظر.. لا يضحك أحد.. هو نفسه لا يضحك.. لكنه يعرف أنه ظريف..

فيسبه الآخر:

- العب يا ابن الـ...
وترطم قطعة أخرى...
وهنا يشعرون بك.

فجأة يتوقف الكلام وتبدأ النظارات.. كلهم ينظرون إليك لأنك أغرب شيء في العالم. تحك أذنك فتسمع أفكارهم تدوي: إنه يبحث أذنه! ترشف رشفة من الشاي فتصرخ خواطركم: يرشف الشاي أيضًا!

يصل القهوجي فينظر إليك نظرة عدائية متسائلة.. لو كان يملك الحق في طردك والبصق عليك لفعل، لكنك للأسف لم تفعل ما يضايقه.

يصل كوب القهوة المبتل بالماء، ومعه كوب الماء الذي امتلا

ضحكة رقيقة رقيقة تدوي من فتاة في سن المراهقة تدل على أن تعليقاً بذينا قد قيل.

غريب جداً أنت في هذا المكان.. الاحتمال الأكبر بالنسبة إليهم هو أنك «حكومة».. والحكومة لديها الكثير مما تفعله هنا، لكنها لا تجرؤ.. شخص غريب غامض لا يعرفون عنه شيئاً، لذا يمكن أن يكون أي شيء... أي شيء لا يرجعون به.

المقهى..

يمكنك فهم كل شيء في المقهى.. هنا روح المجتمع المصري وقلبه النابض.

البناء نفسه ضيق متداع، مع جدران دهنت يوماً ما بلون أخضر جيري فستقي لعين، غطاء الهباب والعطن، وتشقق في أكثر من موضع.. لا مكان بالداخل سوى للنسبة والنار وحوض الماء وبعض أ��واب مهشمة. أما المجلس الحقيقي فخارج المكان، في الهواء الطلق بين صفائح السمن الصدئة القديمة التي زُرِعَ فيها الصبار واللياسمين، والمقاعد المنتجدة بالخصوص التي لا تثبت أبداً على أقدامها الأربع.

هناك يجلس الصناعية والعاطلون يدخنون المعسل قبل بدء اليوم، وهناك تدور صفقات البرشام خلسة وعلانية. لو وجدت مجلسًا لا يتم فيه لف البانجو فأنت محظوظ.. لأسباب تتعلق بالفقر يستعملون البذر نفسه مع الرياش.. لا يخلصون منه، لهذا صار الصداع طبيعة حياة

أَمْ عَنِ الدِّينِ، أَمْ عَنِ الْمَحَاكِمَاتِ فِي الصُّورَفِ، أَمْ عَنِ الدِّيُونِ، أَمْ عَنِ
الْمَسَاكِنِ وَالإِيجَارَاتِ، أَمْ عَنِ اسْعَارِ اللَّحُومِ، أَمْ عَنِ الْبَيْرَةِ، أَمْ عَنِ
النَّطْرِفِ، أَمْ عَنِ الْأَقْبَاطِ، أَمْ عَنِ الْأَحْزَابِ، أَمْ عَنِ الْفَيَاجِرِ، أَمْ عَنِ
الْبَنْزِينِ، أَمْ عَنِ...؟

فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَدِدُو الْكَلَامَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَيَرِى نَفْسَهُ كَمَا سَيِّدَوْ
بِالْقُبْطِ لِوَقْتِهِ فَاهْ: غَرِيبًا.. مَرِيبًا.. كَثِيرًا.

لَذَا كَانَ يَدْخُنُ السُّجَاجِيرَ فِي صَمْتٍ.. يَشْرُبُ الشَّايِ فِي صَمْتٍ..
يَلْتَهِمُ الْفَوْلَ فِي صَمْتٍ.. يَرَاقِبُ النَّاسَ فِي صَمْتٍ.. يَصْمِتُ فِي صَمْتٍ..
يَدْعُو اللَّهَ أَنْ تَأْتِيَ الْخَطْرَةَ الْأُولَى مِنْ أَحْدَهُمْ.. فَقَطْ لَوْ أَنْ أَحْدَهُمْ
يَجْلِسُ جَوَارِهِ فِي الْمَقْبَرَةِ ثُمَّ يَبْدَا فِي التَّرَاثَةِ، الشَّدَّادُ مَا يَكُونُ هَذَا رَائِعًا.

* * *

عِنْدَمَا تَغْرِبُ الشَّمْسِ.

عِنْدَمَا يَكْفُ الأَصْحَابُ عَنْ تَقْدِيمِ عِزَائِهِمْ لَكَ.

عِنْدَمَا تَسْتَطِيلُ الظَّلَالَ قَبْلَ أَنْ تَفْنِي.

عِنْدَهَا يَبْدَا مَوْعِدُ سِجْنِكَ الْخَاصِ.. السِّجْنُ الْيَوْمِيُّ الَّذِي يَبْدَا
كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَمَا تَغْرِبُ الشَّمْسِ، وَعِنْدَمَا يَكْفُ الأَصْحَابُ عَنْ تَقْدِيمِ
عِزَائِهِمْ لَكَ، وَعِنْدَمَا تَسْتَطِيلُ الظَّلَالَ قَبْلَ أَنْ تَفْنِي.

لَمْ يَعْتَدِ الشَّقَةُ بَعْدَ، وَمَا زَالَ يَضْلِلُ الطَّرِيقَ فِيهَا.. شَعُورٌ غَامِضٌ
بِأَنَّ الْمَطْبَخَ هَنَالِكَ إِلَى يَمِينِ الْحَمَّامِ وَالْتَّلْفِيْزِيُونَ فِي الصَّالَةِ إِلَى جَوارِ

بِالْبَصَمَاتِ وَمَوَاضِعِ الشَّفَاهِ السَّابِقَةِ.. لَنْ تَطْلُبْ حِجْرًا هَذِهِ الْمَرَّةِ
لَأَنَّكَ تَدْخُنُ بِعَصْبَيَّةٍ، وَالْعَصْبَيَّةُ تَجْعَلُكَ تَسْعَلُ، وَالسَّعَالُ يَجْعَلُكَ
غَرِيبًا.

حَتَّى الْابْتِسَامُ لَا يَظْفَرُ بِرَحْمَتِهِمْ.. حَتَّى الْبَقْشِيشُ الَّذِي تَرَكَهُ
لِلْقَهْوَجِيِّ بَعْدَ كَوبِ الْقَهْوَةِ لَا يَشْفَعُ لَكَ.. يَأْخُذُ الْمَالَ وَيَحْفَظُ
بِعَدَوَانِيَّتِهِ.

فَقَطْ لَوْ أَنْكَ صَرَتْ خَفِيًّا..

لَوْ أَنْكَ قَادِرٌ عَلَى مَراقبَتِهِمْ وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ مِنْ دُونِ أَنْ يَشْعُرُوا بِكَ..
يَوْمًا.. يَوْمَيْنِ.. ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.. ثُمَّ قَرِدَتْ أَنْ تَحَاوِلَ أَنْ تَبْدُو مِثْلَهُمْ..
رَبِّما يَقْلُلُ هَذَا مِنَ الْعَدَائِيَّةِ بَعْضَ الشَّيْءِ.. هَكَذَا تَعْلَمَتْ أَنْ تَبْدُو رَئِيْسًا..
تَعْلَمَتْ أَنْ تَبْدُو عَاطِلًا أَوْ بِلَا هَدْفَ فيَ الْحَيَاةِ.

غَرِيبٌ أَنْتَ فِي هَذَا الْمَكَانِ.. لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَنْدَمِجَ.. عَلَيْكَ
أَنْ تَفْهَمَ.

فَقَطْ عَلَيْكَ أَنْ تَخْرُقَ حَاجِزَ الْجَلِيدِ، وَأَنْ تَنْطَقَ الْعَبَارَةَ الْأُولَى..
الْعَبَارَةَ الْأُولَى! مَا أَصَبَّهَا وَأَعْقَدَهَا! الْعَبَارَةُ الَّتِي سَتَجْعَلُكَ مِنْهُمْ أَوْ
بِيْنَهُمْ أَوْ مَعَهُمْ.. أَيْنَ أَنْتَ يَا شَكْسِيرُ عِنْدَمَا نَحْتَاجُ إِلَيْكَ?
مَا هِيَ الْعَبَارَةُ الْأُولَى؟

هَلْ تَكُونُ عَنِ الْحُكُومَةِ، أَمْ عَنِ الْغَلَاءِ، أَمْ عَنِ الْقَيْظِ، أَمْ عَنِ الْغَيَارِ،
أَمْ عَنِ النِّسَاءِ، أَمْ عَنِ الْحَشِيشِ، أَمْ عَنِ الْقَطَارَاتِ، أَمْ عَنِ الصُّورَفِ،

هذا ليس بواباً.. بالتأكيد يضع بندقية على الدراجة، ولو راك
لصوب نحوك وصاح متذرًا بالألمانية: «آخْتُونج! هالت!».
ثم ينطلق سيل من الرصاص ليمزقك.. لا أحد يفلت من معتقل
«أوشفيتز» يا فتى.. لا أحد.

ترشف رشقة من كوب الشاي الذي أعددته.. رائحة الكحول التي
أدمنتها تفوح من الشاي.. شاي السبرتاية وشاي الفحم.. فقط.. تفتح
الكراس وتعيد تأمل آخر فقرات كتبتها.

ليلي ومظاهرات الطلبة في السبعينيات.. مجلات الحائط..
الأمن.. هذا هو ما ت يريد أن تكتب عنه.. هذا هو ما تعرفه.. لكن
الجميع يكتبون عن نفس الأشياء. لديك في المكتبة عشر روايات
تدور في ذلك العالم، وبالتأكيد كلها أفضل.. كل طالب كان في
مظاهرات السبعينيات صار اليوم أدبياً.

في كل يوم تتأكد الكارثة أكثر.. أنت عاجز عن استيلاد أفكار.. أنت
ناضب عنين.. أنت تتمbus حالة الأديب المنهمك برواية عظيمة..
تنصرف مثله.. تبدو مثله... تفكّر مثله.. تتألم مثله.. لكن الحقيقة
هي أنك لن تلد أبداً.. لم يعد لديك رحم.
والدهى هو أنك لا تقبل هذه الحقيقة.

ناضب كبشر منسية منذ قرون.

فشل زواجه.

الثلاثة.. خطأ.. لا يوجد تلفزيون، والثلاثة صغيرة جدًا بارتفاع
المبنية، والمطبخ لا وجود له.. استبدلوا به قطعة الرخام تلك
الشبيهة بشرفة تطل منها على الصالة. من هناك يمكنك أن تطهو
الطعام وتضعه على قطعة الرخام مباشرة فيصير ضمن ملكوت
الصالات. المشكلة الأخرى هي أنه لا يوجد موقد. حيث كان يجب
أن يكون الموقد، هناك جبل من أوراق الصحف الملوثة بالزيت
والأكياس البلاستيكية التي تفوح منها رائحة دجاج عطن أو سمك
عطن أو فول عطن.. عشرات الخطايا البيولوجية التي تؤكّد لك أنك
بشر وأنك كنت حيًّا تأكل.

هناك سبرتاية صغيرة تعد عليها الشاي، وجوارها زجاجة ماء
تملؤها في بداية اليوم وتأخذ منها ما تريده، لأن الماء لا يتدفق من
الصنابير إلا ساعتين بعد منتصف الليل.

هواء البحر يهب عنيقاً فيفتح باب الشرفة.. وللحظة يحلق كل
شيء في الهواء.. تتجه للباب كي تغلقه وهو يصارعك بلا توقف..
تلقي نظرة على البلدة الصغيرة الحزينة كاسفة البال التي تتأهب
للنوم.. مثقلة بالآحزان.. لن يكون نومها بلا كوابيس.

مدينة أشباح.. لا أحد يتحرك على مرمى البصر سوى ذلك الباب
الصعيدي الذي يركب دراجته.

كلب يعوي من بعيد.. كلاب السجن انتشرت في الفتاء لمنعك
من الفرار.

ماتت قصة حبك.

جفت قريحتك.

تركت وظيفتك.

تبخرت مدخراتك.

شاب شعرك.

الرفاق يعزونك على وفاتك الأليمة.

لكنك ما زلت طفلاً يأبى الاعتراف بأنها النهاية.

«سوف أندمج بين الناس أكثر.. سأصغي لهم أكثر.. «دحديرة الشناوي» ستقدم لي الجواب، وإن لم تفعل فاللعنـة علـي وعلـى الأرض التي أمشي علـيـها وعلـى كل شيء...».

هناك يلتئـف الطـاعـمـون حـول أطـبـاقـ الفـولـ المـعـدـنـيـةـ الصـغـيرـةـ..ـ

هـنـاكـ بـصـلـةـ يـدـشـهـاـ الـواـحـدـ مـنـهـمـ ثـمـ يـفـرـكـ رـغـيفـيـ الـخـبـزـ فـرـكـاـ بـعـضـهـمـاـ معـ بـعـضـ فـيـتسـاقـطـ شـلـالـ مـنـ الرـدـةـ..ـ بـيـنـمـاـ عـبـدـ الغـنـيـ نـفـسـهــ صـاحـبـ الـعـرـبـةــ يـظـهـرـ الـاحـتـرافـ فـيـصـبـ الـزيـتـ مـنـ عـدـةـ زـجاـجـاتـ بـسـرـعـةـ كـأـنـهـ حـاوـ،ـ وـكـذـاـ خـلـطـةـ التـوـابـلـ وـالـكـمـونـ..ـ وـيـرـصـ الـبـيـضـ الـمـسـلـوقـ رـصـاـ.

إـنـ الـوقـتـ مـبـكـرـ نـسـبيـاـ،ـ لـكـنـ مـعـظـمـ الـوـاقـفـينـ سـوـفـ يـجـعـلـونـ مـنـ هـذـهـ الـوـجـةـ إـفـطـارـاـ وـغـدـاءـ مـعـاـ.

فـسـ سـنـ سـنـ!

فيـماـ بـعـدـ قـالـ مـصـطـفـيـ المـزـينـ إـنـ نـظـرـ إـلـىـ قـضـيبـ القـطـارـ..ـ هـذـاـ هوـ

الـوقـتـ الـذـيـ يـعـبرـ فـيـهـ قـطـارـ الـحـادـيـةـ عـشـرـةـ..ـ لـقـدـ جـاءـ مـتأـخـراـ.

الـقـضـبـانـ تـرـتـجـ..ـ الـأـرـضـ تـرـتـجـ.

ذـلـكـ الـجـوـ الـعـامـ مـنـ التـوـتـرـ الـاسـتـاتـيـكـيـ الـذـيـ يـصـاحـبـ وـصـولـ

الـقطـارـ دـوـمـاـ،ـ لـكـنـ هـؤـلـاءـ الـقـومـ فـقـدـواـ اـهـتـمـامـهـمـ بـالـقطـاراتـ..ـ لـمـ يـعـدـ

درجة معينة من «الفولت» بعدها تحرق أو تعجز عن الاستيعاب، ولرُبَّ صرخة عالية جداً للدرجة أنه لا أحد يسمعها.

هناك لدى الغربيين لعبة اسمها «الهاتف الصيني».. في هذه اللعبة يحكي اللاعب الأول قصة مُعينة همساً، ثم يطلب من اللاعب الثاني أن يحكيها همساً للاعب الثالث، وهكذا.. فاللاعب الرابع.. السادس.. العاشر.. في النهاية يحكي اللاعب الأخير القصة بصوت عالي، فيقصد الجميع لأنها تكون قصة مختلفة تماماً.

هذا هو ما حدث هنا بالضبط.. القصة تتبدل يوماً بعد يوم، وقد اكتشف هشام بي المحقق أنها تتغير طيلة اليوم.. تتغير في الصباح.. تتغير قبل الغداء.. تتغير ساعة الغروب.. تتغير بعد صلاة العشاء.. تتغير.. هذه القصة لها حياة خاصة بها.. إنها كالشلال يتبدل بين لحظة وأخرى.

ما استطاع أن يعرفه، وما استطاع عصام أن يقوله، هو أن الجميع شعروا بحافز قوي يدفعهم للنظر إلى الجدار بعيد.

جدار مصنع الحلوي القديم، كما يعرف الجميع، والذي رسم الأطفال عليه أشكالاً مبهمة بلون أسود، كما أن هناك إعلانات يستحيل أن تقرأ حرفًا منها، وعبارة تقول: «لم تنساك أبدن يا سادت يا بطل الحرب وسلام». كتبها شخص لم يعرف أن «لم» تجزم الفعل المضارع، وأن «أبداً» لا تكتب «أبدن»... إلخ. وعبارة تقول: «الجيش والشعب إيد واحدة». مع علم مصر، ثم قام أحد هم بشطبها بالفرشاة الحمراء.

أحد يلاحظ ولم يعد أحد على استعداد للتوقف عن المضي لحظة تحيةً للديناصور الحديدي القادم من بعيد.

كلُّ منهم كان مثقلًا بالمشاكل، ذاهبًا ليرمي نفسه في بحرها.. فقط هو يكره أن يفعل ذلك ببطء خاوِي من الفول. ربِّ ساعه لن يضر أحدًا على كل حال. ثم إن هذه اللحظات الخافتة كانت لونًا من الترف الصباغي، وإن كان أقل بكثير من ترف المضاجعة الليلية للمتزوجين منهم.. كلها أشياء تُسيِّهم للحظات جبل الهُم الذي يتظاهر بهم.

فيما بعد، قال إبراهيم أبو غصيبة إنه لم ير المشهد أولاً. لعله كان في فيلا الساحل الشمالي وقتها.

قال جمال الفقي إنه رأى كل شيء بوضوح، ويمكن أن يشهد في أي محضر.. لا يمكن أن يفوته مشهد فتاة تتمزق.

عباس الدلجموني قال إنه لم ير شيئاً.. بالطبع كان يتحاشى المشاكل مع رجال الشرطة.. لو طلبت منه أن يشهد أن الشمس تشرق في الصباح لأحجم وتهرب منه.

أم ببل التي كانت خارج عشتها تسكب بعض الماء القدر رأت المشهد منذ البداية.. وكان ابنها ببل نائماً بالداخل غارقاً في تأثير المخدرات.

علاه أبو فرحة كان يتبوَّل وسمع الصوت.. ولسبب ما تذكَّر أباه. أما عن عصام الذي وقف معهم يتظاهر بأنه منهم، وقد ملا شدقيه بالفول بدورة، فقد تجاوز المشهد قدراته على الاستيعاب.. للحواس

قطار الحادية عشرة صباحاً الذي يرج المنطقه كلها رجأا.. وهذا
كما قلت حدث معتاد ولا يثير أي تهيب.. حتى الصبية لا يوقفون
لهوهم على القضايان.

لهذا عادوا يمارسون ما كانوا يقومون به.
يلتفون حول أطباق الفول، وأم بلبل تسكب الماء القذر، وعلاء
أبو فرحة يتبول، وعباس الدلجموني لا يرى المشهد... إلخ.

ثم لاحظ الجميع أن الصفاره استطالت وتمددت.. بدا كأنها
تأتي من قبل خلق الكون ذاته وتتوغل حتى الأبدية.. نظروا في
دهشة ليفهموا.

كانت الفتاة تعبر قضايان القطار في تؤدة وثبات وبلا أي نية
للاستعجال. كأنها تمشي في مرج تقطف الأزهار. وقد بدا أنها
لا تعباً نهائياً بصوت الصفاره الذي يعوي متذراً.. يتосل إليها.
لا تعباً بأنها على ذات القضيب... لا تلاحظ القطار أصلًا...

ومن النافذه الجانبيه أطل عم أحمد شراره وراح يضرب الصفاره
مراًا... لقد فات أوان الفرملة. خطر له أنها شاردة الذهن، ثم قدر أن
هذا مستحيل.. خطر له أنها صماء، لكن الأصم لا يعبر القضايان من
دون أن يلتفت.. وفي النهاية وصل إلى الإجابة الرهيبة: هذه الفتاه
تنتحر... وهي إجابة ليست صادمه، لأن كل سائق قطار يمر بهذا
ال موقف مرتين في العام على الأقل.. إذن اليوم هو اليوم. ومعي أنا!
يخرُب بيتك!

هذا الجدار هو الذي توقفت عنده عفاف.

فيما بعد، عرف الجميع أن اسمها عفاف، أما بالنسبة إلى معظم
من رأى الحادث في ذلك اليوم فهي «فتاة القضايان». لا يذكر أحد
تفاصيل مظهرها.. نفس المعالم التي ترى المئات منها كل يوم..
تعرف أنها فارعة، وأنها تلبس الحجاب، وأن ثيابها رخيصة، وأن
جسمها بديع.. هذا كل شيء.

أول مارأوه هو أنها توقفت أمام الجدار.. ظلت تنظر إليه للحظات،
ثم أخرجت من كيس بلاستيكي علبة «السبراي» أسود ورجتها بعصبية،
وراحت تحاول جاهدة أن تخط كلمة بخط عملاق مشوش... هذه
ليست بالطرق المعروفة في مصر، وهي تذكر نوعاً بفناني الجرافتي
في الخارج. لا شك أن ثمن علبة «السبراي» هذه يمثل دخل يوم كامل
لها. لكنها فعلت ذلك على كل حال، ولربما كان هذا هو ما جعل
ال القوم يشعرون بشيء غريب.. حتى من لم يكن ينظر، شعر بذلك
الحافظ الذي يجعله يلتفت.

يدها ثابتة مصممة.. تتوقف لحظة ثم ترج العلبة وتواصل الكتابة.
سس سس!

في النهاية تراجع بضع خطوات.. تلقي نظرة على المشهد كأنها
فنان يتأمل لوحته. ثم بكل ثبات تطوح علبة «السبراي» بعيداً.. تصرف
آخر عجيب.

هنا سمع الجميع القطار.

عشرات الأشخاص هرعوا من كل صوب نحو مكان الحادث، وأطلقت أم بليل صرخة ثم بدأت تولول، ولم تنس أن تخالص من الماء القدر أولاً. علاء أبو فرحة أنهى آخر القطرات من البول ثم هرع بري ما هنالك من دون أن يغلق زمامه.

- عفاف لا تصرخ.
- عفاف لا تنظر.
- عفاف لا تبكي.

أما عصام فقد راحت ساقه ترتجف بلا توقف.. ترفض أن تثبت للحظة، كأنها تحولت إلى هلام رخو فجأة، وشعر بأن قلبه غاص في قدميه. الضوضاء والصراسخ.

عفاف غير متوجهة على الإطلاق.

راح يزحف.. يزحف حتى بلغ الجدار المتداعي.. وانحنى..
شعر بالحمض يحتشد في معدته ثم يصعد إلى قمه، فانحنى وأفرغ
ما التهمه مع أشياء أخرى لا يعرف ما هي. لم يكن من يقيتون عندما
يتوترون، لكن هذا وقت مناسب كي يصير منهم.. من الواضح أنه
يجعل، أشياء كثيرة عن نفسه.

أما ما حدث بعد ذلك فهو مشهد غير واضح. لقد تم كل شيء بسرعة، بحيث لم يتبيّن أحد شيئاً. لا تتوقع أن الفتاة رفعت كفها لوجهها وصرخت.. ثم صرخ سائق القطار.. ثم اقتربت مقدمة القطار.. وتناثر الدم في كل مكان... وعلى القضيب سقطت ذراع.. هكذا انتخا المشهد، وهذا بالفسيط هو ما لا يحدث.

أُلْصَقَ جِبْهَتِه بِالْجَدَارِ.. جِبْهَتِه الْمُمْتَرِجَة بِالْعَرْقِ وَالْتِصْفَتِ
بِهَا حَسِيبَاتِ الْأَسْمَنْتِ.. تَوْقِفَيِّي يَا سَاقِي.. أَرْجُوكِ.

لا شيء من هذا كله. لقد كانت الفتاة هناك ثم لم تعد.. هذا كل شيء. وبصعوبة اقتنع من رأوا المشهد بأنهم لم يكونوا يحلمون أو أن الفتاة كانت موجودة فعلاً.

نظر إلى الخلف فرأى الناس محتشدين، ومن مكان ما برأت أوراق الصحف.. لا بد من أوراق الصحف.. لا بد من جمع الأشلاء في ورق الجرائد. كيف استطاعوا جمعها؟ لا بد أن هذا استغرق جهداً جباراً.

وبعد مائة متر استطاعت فراملقطار الجباره أن توقف
الديناصور الحديدي، وتصاعد صوت الصرير.

لم يرد أن ينظر .. فقط اجتاز صفاً من الصبية يركضون فوق القصبة

رائحة الجازولين والصدأ في كل مكان.. رائحة الموت.
الغبار يتتساعد.. لا تعرف من أين.

وقد انتابهم جذل عظيم.. بدا له أن حالة من النشوة والسعادة تغمر الجميع.. لقد ماتت الفتاة كي تجعل حياة هؤلاء القوم أمنع، لكنه لا يستطيع أن يشاركهم المرح.

إنه خائف.. لا.. لم تعدل لديه أعصاب لتشعر بالخوف، بل هو في حالة انعدام وزن ربما تمر وربما لا.

لم يكن قدرأى الموت عن قرب من قبل، وحتى عندما مات أبوه لم ير المشهد وإنما جاء ليجده قد انتهى.. هو لم ير موت الفتاة فعلاً، لكنه رأى الموت يعمل من بعيد.
شعر به.. سمعه.. شمه.

أووووووو!

يفرغ معدته من جديد.. هذه المرة لا شيء سوى الحمض هنالك.
لكنه يشعر براحة أكيدة.

من أنت؟ لماذا فعلت ذلك؟ كيف جرأت؟

* * *

عندما تغرب الشمس.
عندما يكتف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.
عندما تستطيل الليل قبل أن تفني.
عندما يهدأ موعد سجنك الخاص.

كان قد وجد النقطة الهشة التي يبدأ الاختراق عندها.. من هنا يمكنه أن يخترق عالم الدحديرة الصلب.. سوف يتكلم الناس كثيراً.. سوف يضعون أيديهم على كتفه ويتكلمون.. الجارات لن يتحملن الصمت أكثر، ولسوف يبدأن الثرثرة.. الرجال على المقهي لن يصمتوا.. الأطفال الحفاة سوف يحكون كل شيء شاعرين بالأهمية.

في السبعينيات.. مظاهرات الخبز.. عندما جلسوا في الشمس صامتين، مالت تلك الطالبة الحسناً عليه ويدأت تتكلم وتتكلم في حرارة.. لم يعرف ما يقول.. قالت اسمها فلم يسمعه.. ذكرت كليتها فلم يتبيّنها.. كان يشعر بطرد شديد لأنها لا تشعر بأنه غريب عنها أو أنه ذكر.. فجأة ذابت الجدران كلها.

كان يتوق بشدة إلى تلك اللحظات هنا.. سوف يميل الناس رؤوسهم ويكلموه.. سوف يحكون له كل شيء عن عفاف.
هكذا كان يفكر وهو يرمي الدخان يتلوى في ظلام الحجرة.. كأنه لون أيضًا يتشر في برقة ماء أسود.. ومن بين ذرات الدخان يرى وجهًا.. ليس وجه عفاف على كل حال.

إلهام أبو ياسين... مطلقته.. هذه المرأة كانت له، وكانت تنام بجواره يوماً بعد يوم، وكان ذلك الوريد في عنقها ينبض لحظة الانتشاء، ثم تأوه في رضا وتجلس في الفراش لحظات تلهم، ثم تذهب إلى الحمام وتعود كقطة هائمة لتنام في حضنه. فجأة لم تعد له. أليس هذا عجيباً؟ لماذا انفصل؟ لا يذكر.. راح يعد الاحتمالات على أنامله:

ربما لأنها امرأة سيئة.

ربما لأنه رجل سيئ.

ربما لأنه لا ينجذب.

ربما لأنها لا تنجذب.

ربما لأن كليهما لا ينجذب.

ربما لأنه يبعث مع فتيات رخيصات متذيلات المستوى.

ربما لأنه يبعث مع فتيات راقيات.

ربما لأنه كاتب.

ربما لأنه كاتب مغمور محدود الشهرة.

ربما لأنه يدنس الورق المبروم في أذنه ليسلكها.

ربما هي رائحة جواريه أو البحر من فمها.

ربما لأنها مجونة أو لأن أخاها بلطجي أو لأن أمها شريرة.

لا يعرف السبب.. مشروع شركة تم الاتفاق عليه ثم أجهض بسرعة البرق.. فقط يذكر أنها امتنعت عن تلبية نداء الفراش.. عاماً ثم عاماً ثم عاماً.. ثم فقد القدرة على العدد.. وعندما بدا أنها قد توافق كان قد فقد رغبتها فيها نهائياً.. فقط يذكرها تقف في وسط الصالة متهدية كالنهر وفيفتها في خضرها:

ـ اعتقاد أن علينا أن ننهي هذا الوهم.

- أي وهم؟

- الوهم الذي يرغمنا على الحياة معاً.

يا للحاجز اللعين! حاجز لا يمكن اختراقه أبداً.. لا أحد فيكما يرغب في اختراقه.. لم يعد من حل سوى الطلاق.. هي لن تتغير وكذلك أنت.

هذه المرأة مجونة تماماً أو ضحية عمل شيطاني.. كل النساء يحاولن الحفاظ على بيتهن إلا هي.. تتوق إلى جنازة تشيع فيها لطماً، وتتوق إلى أن تدمر حياتها وحياتك.. ما مصلحة امرأة في أن تجعل زوجها ينفر منها ويكرهها؟

يقولون إنها رقيقة.. على باب البيت كانت إلهام تنزع شبشبها ورقتها ولطفها لتحول إلى أشرس إنسان عرفه.. والكارثة هي أنها لا تحب رجلاً آخر.. لا يوجد أي دليل على ذلك، مما يدل على أنها مخبولة لا أكثر.. ربما لو كانت تحب رجلاً آخر لوجدت تفسيراً عادلاً.. نفس الشعور الذي يغمرك عندما تمشي بسيارتك في طريق مختنق.. ساعة تمر عليك وسط الحر والغبار والعدم، وأنت تتوقع أن ترى سبب الاختناق في النهاية: حادث... لجنة.. سيارة معطلة. لكنك تعبر فلا تجد أي شيء.. لا يوجد سبب.. ساعتها تشعر بالحيرة والغبن.

إلهام قد أحالت حياتك جحيناً.. فلم يعد أمامك من مفر إلا الكتابة والمزيد من الكتابة والكثير من الكتابة.

لقد صنعتك بنفس الطريقة التي تصنع بها الكلاب بطلاً في العدو..
بنفس الطريقة التي حولت بها زوجة سقراط رجلها إلى فيلسوف.
«إن الله غاية عليٌّ جداً وأنت الدليل!».

هو بحاجة إلى أن يشعل لفافة تبغ أخرى، ويجلس ويراحل ترتيب
أفكاره.. إن مشهد الفتاة التي تعبر قضيب القطار غير مبالغة يحطم
أعصابه كلما حاول النوم.

لسبب مجهول قرر علاء أبو فرحة أن يفرغ مثانته جوار هذا الجدار بالذات.

الوقت عصراً، والمنطقة هادئة، والحر يغرى الناس بالقيلولة.
يجب أن أخبرك بسرّ صغير.. كان علاء أبو فرحة مولعاً بالتبول فعلاً..
إفراغ المثانة كان يعطيه لذة تقترب كثيراً من النسمة، وقد كان أبوه
مصاباً بفشل كلوي، وكان يتتردد على الجمعية الخيرية الإسلامية
في الريانة لعمل غسيل كلوي. لم يهتم علاء بشيء في مرض أبيه
إلا عندما عرف أنه لا يتبول.. هنا غلبه البكاء الحارق.

علاء يعمل في معمل المخللات القريب.. وهو يشرب الكثير من
البيارة ليلاً، لهذا يعتقد أنه يعرف السبب في كثرة تبوله.

علاء يحب إفراغ مثانته وهو ينظر إلى السماء أو وهو يصفر. ثم
يرسم بخيط الماء أشكالاً تجريدية على الجدار.

على المقهى كان الموضوع المحبب هو انتشار الفتاة.. كان الجدل يدور حول الحادث، عندما جاء جمال الفقي حاملاً الغداء.. بضم شطائر من الكبدة والكفتة، ومعها كيس مليء بماء السلطة الحرّاق وكيس مليء بالمخلات.. نظر إلى الرجال حوله وقال في عدوانية للا أحد:

- تعاُكل.

ومن الواضح تماماً أنه سيمزق أول من يوافق.. ثم بدأ يلتهم الشطيرة وهو يؤكد للجالسين أنه يعرف كل شيء.. الفتاة تعمل في مشغل قريب، وقد نامت مع صاحب المشغل. المسكينة عرفت أنها حُبلى، وحاوت أن تجهض نفسها في المستوصف الخيري، لكنهم طردوها.. هكذا اتجهت إلى القضيب وتركت نفسها تسقط تحت القطار.

قال إبراهيم أبو غصيبة إنه يشك في هذا.. لم يبق من الفتاة ما يكفي لمعرفة إن كانت حُبلى أو لا.. لكن جمال الفقي قال وهو يفرغ ماء السلطة في كوب:

- إن ذلك العضو ظل سليماً، وقد وجده رجال الشرطة على القضيب.

هنا ضحك اثنان ضحكة بذريعة من طراز «مع مع مع» إيه.. واقتصر أحدهما أن يهدية إليه.

كان رأي مصطفى المزین أنه لا يمكن الحكم في هذا الوقت المبكر، إلا لو كانت الفتاة قد حكت لصديقاتها.

كان رأي عباس الدلجموني أن الفتاة كانت مسطولة وتحت تأثير

هكذا وقف عند ذلك الجدار - جدار مصنع الحلوي - وراح شارد الذهن يصفر.

رأت عيناً عباره كتبت بـ«السراي» أسود.

هنا فقط تذكر .. الفتاة التي تحمل علبة «السراي» وترش منها على الجدار ثم تراجع لتحكم على ما هو مكتوب، ثم تخلص من العلبة وتتجه إلى مصيرها.. لقد نسي الجميع هذه التفصيلة، وعلى الأرجح لم يذكرها أحد لرجال الشرطة.

كانت القراءة صعبة.

ليست الكتابة بـ«السراي» أفضل خط يمكن قراءته، ولعل الفتاة نصف أمية كذلك، مما يزيد الأمور سوءاً.. لكنه استطاع أن يفك بعض الحروف:

السبحة

ما معنى هذا؟ المستحررون لا يكتبون «السبحة» على الجدار قبل موتها.. هذا على قدر علمه.

ربما هو لا يستطيع القراءة.. على كل حال كان قد أفرغ مثانته فعلاً ولم يعد هناك داعٍ للمزيد من التوقف هنا، ولم يكن شغوفاً بهم ما يدور في رؤوس المستحررين.

أغلق زمامه وترابع ليلقي نظرة أخرى.. ثم بدأ يتعدّ عائداً إلى معلم المخللات.

* * *

وتصاعدت سحابة الدخان.. بينما كان عصام قد عاد إلى قوفته السابقة.. لقد خرج منها لكنه تلقى ركلة قاسية.. من الواضح أن الدحديرة لم تعطه رحمتها وصداقتها بعد.. من الواضح أنه سيعود إلى القوقة. فليجرب غدًا أو بعد غد.

لما انتهى من الشاي دفع ثمنه مضاعفًا كالعادة، ثم خرج من المقهى.. قط أُجرب يطارده وهو يموء.. على الأقل هناك كائن واحد يريد صداقتى.

مشى نحو القضبان ووقف للحظة.

استدار للخلف، هنا فوجئ بحشد العيون الذي كان يراقبه من دون علمه.. أشعل لفافة تبغ وحاول أن يصمم أمام سيل النظارات الثاقبة.. النظارات الواقحة.. النظارات التي تجد لنفسها كل الحق في اختراق خصوصيته.

واصل المشي عبر القضبان.. رأى قطاراً قادمًا من بعيد، وقد شكلَّ هذا مشكلة.. المساحة واسعة متaramية.. هو لا يعرف بالضبط أي قضيب سوف يختار هذا القطار، والمسافة بعيدة والقضبان متشابكة متنافرة.. لوحه سريالية مجتونة أو مكرونة يعثرها غلام. لكنه كره أن يتواكب عائداً أو يُبْدِي الذعر.. هؤلاء لا يستحقون كل هذا المرح.. سوف يثبت.

هكذا مشى بسرعة أكثر من المعتاد وهو يراقب الفلنكات، ويراقب أسلاك التحويلة.. هناك جزء متحرك يعرف من السينما أنه يغلق على كاحل الناس فيسقطون أرضاً أمام القطار.. لكنه لا يراه.

عقار ما.. لا بد أنها تعاطت بعض البرشام أو الحشيش.. لم تكن بحالة طبيعية وقد دفعت الثمن:

- كان لي ابن عم يحب الحشيش المغشوش.. وقد فر الجميع من الغرفة عندما حديث الكبسة، لكنه ظل جالسًا ينظر إلى الضابط في غباء وتحمُّ.. وعندما صفعه الضابط راح يغنى، لكن الآخرين رأوا أنه أحمق.

هنا فقط قرر عصام أن يتكلّم.. كان جالسًا إلى مائدة صغيرة معدنية وأمامه الشاي وكوب الماء المتتسخ.. قال بصوت مبحوح يتحسّن خطواته على عتبة الوجود:

- الفتاة أرادت الانتحار بإرادتها.. لا شك في هذا. نظروا إليه نظرة طويلة.. لا تعليق من أي نوع.. ثم قال جمال الفقي وهو يملاً شدقية بالطعم:

- مسكينة! لو عرفت من ابن الكلب صاحب المشغل هذا...

قال إبراهيم أبو غصيبة وهو يشد نفساً عميقاً من الشيشة:

- هناك من يقول إنها كانت تذبح الدجاج في مجزر قريب.

- بل هي تعمل عند كواifer في شارع الحكمة.

- تعمل في محل طرح في شارع التوساني.

- ييدو أن أمها كانت تريدها أن تعمل في الدعاارة.. وهي ترفض.

يكون قتالاً شرساً، لكنه لاحظ أن قتال هذه الحيوانات أقرب إلى التهديدات الجوفاء عامة.

أخرج قلماً وورقة وراح يتأمل الكلمة التي كتبتها الفتاة بـ«السبراي»
الأسود:

السنجة

ما معنى هذا؟

لماذا يكتب إنسان موشك على الانتحار لفظة «السنجة» على
الجدار؟

حاول أن ينسخ الكلمة كما كتبت في مذكرته، ثم تراجع وهو
لا يبعد عينه عن الجدار. على بعد خطوات رأى عليه «السبراي»..
العلبة التي سقطت من يدها بعد الكتابة. هذه بصمات مات صاحبها
بعد دقيقة.

شعر بحسد لها على الرغم من كل شيء؛ فهي قد اقتربت من السر
الأعظم وفهمت الحقيقة.. هو ما زال واقفاً يتساءل.

راح يجر قدميه مبتعداً، وهو يردد في سره: «السنجة».. سوف
تكون عفاف هي مفتاحه لفهم الدجبارية والنفاذ إلى أهلها.. وسوف
نكون لفظة «السنجة» هي مفتاحه لفهم عفاف والرواية كلها.

لقد اقترب من الخلاص.

صفارة القطار الموحشة الكثيبة المولولة تعالي.

لا بد أن سائقاً ما يلعن أمه الآن.. خصوصاً أنهم متواترون بعد
الحادث.

ثم سمع القطار يمر من خلفه والأرض تهتز وتترتج.. لقد أخطأه
الموت كالعادة، والمهم أن الرجال لم يسخروا.

رائحة البول هذه.. لا يعرف أنه بول علاء أبو فرشة المعزوج
بالبيرة والمخللات.

اتجه نحو الجدار الذي وقفت عنده الفتاة قبل موتها.. وقف
هناك بعض الوقت.. لماذا يقف الناس أمام جدار قبل موتهم؟ أن
تقف وظهرك للجدار فهذا لأنك تتضرر بالإعدام بالرصاص عندما
يتهمي قرع الطبول.. أما أن تقف ووجهك للجدار فلماذا؟ ربما
لتكتب بـ«السبراي»؟

موضوع «السبراي» هذا غريب حقاً.. لا يتفق مع الفتاة ولا المكان
ولا الزمن ولا التقاليد ولا الوضع الاجتماعي.. لا يتفق مع مصر..
عندما يدخل مبيض النحاس أو مكوجي الرجل إلى مكتبه ويشغل
سيجاراً آخرًا، ثم يتناول كأساً من «السکوتش» ويكتب وصيته،
ويجلس فوهة المسدس في فمه ويطلق الرصاص. ألا يبدو هذا الخبر
ملفقاً غريباً؟

نظر حوله فرأى قطًا شرساً يصدر عواء وهو يحوم حول قط
آخر.. الشuran متتصبان، والملامح ملامح عفريت يحلم.. سوف

إلى السمك اللامع الندي الذي يحمل رائحة البحر، يحملق فيها بعيون
مبتة من زجاج، ثم ترى الدجاج ينظر إليها من وراء ذلك القفص ومعه
الأرانب الصغيرة.

هناك من يبيع الخبز المكسو بالذباب، وهناك رجل يبيع مشروب
العرقوس.. تستوقفه أمها وتناوله عملة ثم تأخذ كوبين.. تنفسخ
الرغوة بشفتيها من على الكوب الأول ثم تناوله للطفلة.. لم تكن
عفاف تحب العرقوس بتاتاً، وكانت تشعر بأن له مذاق التراب،
كما أنه يجعل فκκها يتقلص بسبب مذاقه القابض، لكنها لا تعرف
بهذا لأن الكبار يحبونه بجنون.. ربما إلى درجة التقديس.. لهذا
كانت تشربه في صمت..

ربما تتبع لها أمها جيلاتي من ذلك الرجل الذي يركب دراجة ويدفع
مستودقاً خشبياً تيرز منه قوالب الثلج. الرجل الذي يضع طرطوراً وينفسخ
في صفاره.. كان هذا أروع شيء يمكن للمال أن يشتريه.
في النهاية ترى الكتاكيت.. ربما تتبع لها أمها واحداً أو اثنين.
تعود إلى البيت مرهقة مغبرة، لكنها متتشية لأنها رأت الكتاكيت
واقتنت بعضها.

إن البيت في حارة، وهي تحب اللعب هناك جداً.

في التاسعة من عمرها.. في السنة الثالثة الابتدائية.. لعيبة جداً،
ومن الواضح أنه لا مستقبل لها في التعليم كما يعرف الجميع.. هي
أكبر إخواتها.

عفاف تحب الكتاكيت الصغيرة.

الرغبة الجامحة في أن ترى هذه الكائنات الصفراء ذات المزغب
تتخبط وتتقر وتجري ذات اليدين وذات اليسار.. هذه الرغبة كانت
تشير جنونها.. كرات صفراء شقية وملوكها. وعندما كانت أمها تعلن
أنها ذاهبة إلى السوق كانت تلحق بها.. صحيح أنها كانت تمقت
الوحل وروث البهائم والذباب.. بالذات الذباب الذي يتکاثر حول
أحشاء السمك الذي تقوم أم باسمة بتنظيفه. دعك من الكلب الأشعث
الذي كان يمد بوره نحوها.. كانت أمها عالية بعيدة ولا ترى، بينما
هي صغيرة قصيرة في نفس مستوى فم الكلب... فقط تصرخ فتشعر
بيد أمها تهز يدها في ضجر.

كل هذا من أجل الكتاكيت...

وكانت تشق طريقها ممسكة بيد أمها وسط ممرات السوق الفسيقة،
تنظر إلى السلال التي تراصت فيها الطماطم وثمار البازنجان.. تنظر

- لا توجد طماطم يا عفاف.. اذهبى إلى السوق وهاى لنا كيلو.
توترت عفاف لأنها لم تعتمد شراء أشياء.. لكنها كبرت ومن الواضح أن مسؤولية السوق سوف تنتقل إليها بالتدريج.

الآن تتلقى التعليمات: لا بد من أن تسألي أكثر من باائع عن ثمن الكيلو.. لا تشتري من أول السوق بل توغل في الداخل قليلاً لأن الأسعار أرخص.. لا تأخذي الكلام من فم البايع فلا بد من الفصال.. سوف يسألوك إن كانت الطماطم للطهي أم للسلطة.. اكذبى وقولي إنها للسلطة ولا خدعت وأعطيك كل الطماطم التالفة عنده بدعوى أنها تنضج أسرع.. لتكن حمراء حالية من الثقوب والتشوهات.. اعرفي السعر جيداً...

هكذا غادرت عفاف الشقة وهي مفعمة بالمسؤولية والأسرار، وفي يدها الحقيقة المصنوعة من الليف المجدول، وهي تدل على مسؤولية عظيمة..

سس سس سس!

* * *

كان عصام وحيداً.

أقنع نفسه بأن هذا من حقه، وأنه يريد الانتقام بأي ثمن. وقف في الشرفة ينظر إلى المدينة الخالية التي جمد البرد كل شيء فيها حتى الخوف وحتى الخواء. تذكر دعاية أمريكية قديمة قرأها عن القطب

تصعد إلى السطح حيث الشمس تكوي فضلات الدجاج فتبعد رائحة مميزة مألوفة.. ليست رائحة كريهة جداً.. هناك شيء محب فيها.. تمشي بين حبال الغسيل وتحث عن القبط.. ثم تجلس هناك على حافة سور تراقب الحرارة وتلتئم الحرنكش من قرطاس ورقي صغير. أحياناً تنظر إلى الطبق الصغير الذي ابتاعه أبوها. في فترة ما كانت حمى «الدش» في كل بيت، وكان كثيرون يعتقدون أنه الطريقة المثلثة لمشاهدة أفلام عارية. كانت هذه هي تلك الحقبة، قبل أن يعرف أبوها الوصلة ويقوم بتركيبها. لقد أخبره أصدقاؤه بأن قناة «شو تايم» لا تقطع اللقطات العارية.. بعد ساعات قضتها أمام الجهاز أصابه الاكتئاب.. إن الحياة قاسية، ومن الواضح أنه لا توجد قناة في عالم الأحياء تسمح لك بمشاهدة «هوت بيرد» أو ممثلة واحدة عارية.. هكذا زهد العالم والفنون البصرية.

لم تكن تعرف هذا وهي ترمي الطبق الصغير الذي كلف أبيها ثروة. تنتهي من الحرنكش فتنزل إلى الشقة.

بدالها الدرج رطباً جداً وندياً بعد نزولها من السطح، دعك من أن الظلام صار دامساً لا تستطيع أن ترى فيه أي شيء، والأسوأ هو تلك الشموس الملونة في كل مكان.

وقفت على باب المطبخ ترمي أمها وهي تضع الدجاجة في وعاء الطهي. رائحة الفلفل قوية.. عطست مرتين.

الأم تفتح درج الثلاجة ذات الباب الصدئ وتلقي نظرة:

كانت تقف هناك وكان يعرف أن اسمها نوال...
من أخبره بهذا؟ لا أحد.. هو خمن ذلك وقال لنفسه إن من تُدعى
نوال لا بد أن تبدو كذلك، أو من تبدو كذلك لا ينطبق عليها سوى
اسم نوال.

دنا منها أكثر فاستطاع أن يرى وجهها على الضوء الأزرق القادم
من مطعم «التيك أواي» الذي يشكو من ندرة الزبائن...

وجه مصرى أسمرا مليح.. لن تكسب لقب ملكة الجمال في أي
سابقة، لكنه وجه مريع مع ذلك. يعرف تلك الوجوه المثيرة جنسياً،
لκنه فى لحظات بعدها تبدو حيوانية أقرب إلى الغباء.. وهذا يجعلها
مثيرة أكثر. لا بد أن طاقتى أنها تختلجان وتسعن عندما.....
سيئة التغذية، مذعورة كفار.

رفعت عينيها نحوه وارتجمت.. ثم قالت الكلمة التي تكررها
في كل مرة:

- معك كبريت يا باشمهندس؟

يد مرتجفة أشعل سيجارتها.. في اللهب توحج وجهها..
تراقصن... عيناهما من العيون التي تبدو مكسوة بالدموع في وهج النار.
قال هامساً إن شقته قريبة. أو قال شيئاً كهذا.

قالت في غير ثقة:

- آخذ مائة جنيه في المرة.

الشمالي.. عندما تشب في الهواء لن تقع.. لماذا؟ لأن قانون الجاذبية
الأرضية نفسه متجمداً!

الظلام يزحف.. وهناك عواء كلاب من بعيد.. صوت البحر
لا يكف عن الهدير.

أعد لنفسه بعض الشاي على السيراتاية، وخطر له أنه يجب أن
يشتري موقفاً غداً.. يجب أن يحاول طهي بعض الطعام في البيت،
لكن ليس الليلة بالتأكيد...

لقد حان الوقت.. حان وقت البحث.

نزل من البناءة ومشى وحده في البرد.. يسمع صوت خطواته
وعواء كلب من بعيد، فيرتجف متخيلاً ما يمكن أن يحدث لو رأه
أمامة.. سوف يجري وسوف يجن جنون الكلب فيلحق به. إذن عليه
الا يجري.. لكن هذا مستحيل!

كان يعرف أنها تقف هناك قرب المطعم.. وحيدة شاردة تدخن
لفافة تبغ، وتنتظر رجلاً لا يأتي.. في هذه المرة ستكون له ولن يندم
لأنه يتقم.. الليلة لن تكون هناك مبررات أخلاقية.. لقد تلاشت إلهام
من حياته تماماً، وكذا ماتت المخاوف الدينية منذ زمن، فلم يبق إلا هذا
الخوف البرجوازي القديم: الخوف من الفضيحة.. الخوف من عيون
الآخرين.. الخوف من أن تفعل شيئاً لا يليق بطبتك.. الخوف من أن
تفعل شيئاً لم ترأبك يفعله قط... الخوف من أن تفعل شيئاً لا تستطيع
الكلام عنه بحرية وأنت وسط أقاربك..

- خمسين.

في الشبشب، ففقد بعضاً من حماسه.. قدم كهذه سوف تلوث الملاءات بشدة. كما أن شعرها الخشن جعل فكرة أخرى تخطر له: ماذا عن القمل؟

هنا شعر بجسده ينكمش تماماً.. يمكنه جعلها تغسل قدميهما، لكن هل يرغمهها على غسل شعرها بـ«اللابيسيد» كذلك؟

أحضر جريدة وفرشها على المنضدة ثم وضع المنضدة في متصف الصالة. وبيد راجفة فتح اللفافة وأخرج الشطائر ووضعها أمامها.

- كُلِي يا نوال.

نظرت إليه في حيرة وفتحت فمها لتقول بالتأكيد إن اسمها ليس نوال، لكنه أخر سها ياصبعه على فمه.

دست الشطيرة في فمها وراحت تأكل.. البقع البيض على وجهها تدل على نقص غذائي.. وربما هي تشكو من الديدان كذلك. كانت جائعة جداً.. جائعة كديدان القز. وأدرك أنه سيترك لها نصيحة من الطعام.. قاسِي جداً أن تدفع ثمن هذه الوجبة بجسدها، لكنه لا يعرف طريقة أخرى للحصول على جنس.. على الأقل هو لن يغتصبها.. إنها صفقة تمت برضاهما.

في أثناء انهماكها تسلل إلى غرفة النوم فأخذت الحافظة وما معه من مال تحت حشية الفراش. لا يريد أن ينام فتسقطو هي على كل شيء وترحل. القصة دوماً هكذا.

إن معني فتاة! لقد جلبت فتاة إلى البيت! لدينا الليل كله! لن ترحل

هزَّ رأسها ولم تتردد كثيراً.. قال لنفسه: يا بنت الواقعه!

وأشار إليها كي تبقى حيث هي.. ركض إلى مطعم «التريك أو واي» واشتري بعض الشطائر للعشاء مع علبتي مياه غازية. لماذا يصررون على تسمية العلبة الواحدة بصيغة الجمع «كانز»؟ سوف يعرف هذا فيما بعد، أما الآن فلا وقت للبحوث اللغوية.. إن قلبه يخفق كالطلب.. ستكون أول تجربة له بعد الطلاق.. الوحيدة والحزن والرغبة في الانتقام... ربما يستطيع أن يغرق هذا كله في بحر الجنس.

وفي الشوارع الخالية مشيا.

لم تكن هناك من حاجة للمناورات.. ليس هنا أحد في هذا الفصل من العام، ككل المدن الساحلية في الشتاء.. مدينة أشباح... يمكنه أن يصعد بها إلى شقته وهو يتكلم بصوت عالي، ويضرب الأرض بقدميه ضرباً، ويعيث بالمفاتيح ويخطئ في المفتاح ويختار أكثر من واحد.. لا مشكلة... وداعاً لللهمة واليد الراجفة والنظرات المذعورة من فوق كتفك. وداعاً للكابوس الجيران الغاضبين الذين يدقون الباب، والتزول بملاءة ملفوفة حول الجسد العاري ووسط مخبري شرطة الأداب.

وعندما دخلت الشقة استطاع أن يراها في الضوء بوضوح لأول مرة.

لم تكن قبيحة.. ثيابها رخيصة شائعة الطراز وتناسبها.. لكنه رأى كعبي قدميها المتشققين وأصابعها المتتسخة طويلة الأظفار

خلفه ومظلة عملاقة مثبتة بالجبار وكلب يغفو في الفضل.. باختصار:
كل لوازم بيع الطماطم.

- تعالى خذى طماطم يا شاطرة.

لم تكن تريد الشراء من هنا بالذات، وكادت تبتعد لكنه قال
[إصرار]:

- تعالى.. أنا أعرف ما تريدين.

حاولت الابتعاد، لكنه خرج من وراء الطاولة وأمسك بالحقيقة
 ذات الليف المجدول.. يبدو أن نظرة الباحثين عن طماطم مميزة،
 ويبدو أنها مرسومة على وجهها.. في مكان ما من العالم أمة من
 المتلهفين على الطماطم.. وكلهم ينظرون ذات النظرة.

- هل تريدينها للطهي أم للسلطة؟

- للسلطة.

- طيب.

وحمل الحقيقة ودار حول الطاولة ليتجه إلى الكشك الخشبي:

- تعالى لتأخذني ما تريدين.

متوجسة اتجهت إلى حيث طلب منها وهي تشعر بأن هناك شيئاً
 خطأ.. عصام رأى المشهد حيث وقف على بعد أمتار، وقد قدر أن
 شيئاً شيئاً يحدث، لكن خياله لم يبلغ هذه الدرجة، كما أنه لم يعرف
 ما يفعله بالضبط.

بعد الانتهاء، بل ستطلب أن يقيها إلى الصباح. راح يردد هذا النفسه
 ليتحمّس، وراح يقنع نفسه بأنه حلوف شديد الفحولة.. سوف
 تنبهر الفتاة بقواه وأداته برغم سنه.. فالحقيقة أن فكرة القمل قد
 أفلقته حقاً...

* * *

عفاف الصغيرة كانت تجوب السوق بحثاً عن طماطم بسعر
 أرخص.

كانت تتلقى الدعوات من الجانبين، بينما هي تحاول الابتعاد
 عن برك الوحل وعن الكلاب الضالة، وتحرص على ألا تدهمها
 الدراجات.

كانت هناك عربة كشرى، وقد وقف البائع يقلب الكشرى
 في أطباق معدنية صغيرة، مصراً على أن يقمع حافة الطبق بقوة
 بالملعقة.. يتحرك بسرعة فائقة ليوحى بالانهماك والاحتراف،
 بينما وقف بعض الأكلين يلتهمون الكشرى بسرعة لا لزوم لها..
 بدت لها الرائحة شهية فعلاً.

لكنها كانت تدرك المسؤلية على عاتقها وأنه ليس بوسعها أن
 تباطأ.. أمها تنتظر.

كان هناك ذلك الرجل الغليظ البدين المشعر برتدى جلباباً متتسخاً،
 ويقف خلف طاولة عليها أشكال وأحجام من الطماطم.. لاحظت أن
 لديه عيناً تالفة، وأن هناك جرحًا تحت عينه اليسرى. هناك كشك من

فُطِنَتْ إِلَى أَنَّهَا تُعْرِضَتْ لِاستغْلَالِ بَشَرٍ.. لَمْ تَكُنْ تَفْهُمُ هَذِهِ الْأَمْوَارِ، وَبِالْتَّأْكِيدِ لَمْ يَكُنْ الْجِنْسُ ضَمِّنَ مُفَرَّدَاتِ عَالْمِهَا.. لَكِنَّهَا فُطِنَتْ إِلَى أَنَّهَا اسْتَخْدَمَتْ كُثُرًا، وَأَنَّ التَّجْرِيَةَ كَانَتْ مُقْرَفَةً جَدًّا.. سَاحِقَ أَنَّ الرَّجُلَ قَبْلَهَا وَتُحْسِنَ جَسْدَهَا فَقَطْ، لَكِنَّهَا مُقْرَفَ بِمَا فِيهِ الْكَفَايَةِ. وَصَمَّةً.. عَارًّا.. يُمْكِنُهَا فَهِمُ هَذَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تَفْهُمُهَا طَفْلَةٌ فِي سَنَاهَا. لَا شَكَّ أَنَّ أَنَّا مُلْهَى سَبَقَنِي ظَاهِرَةً عَلَى جَلْدِهَا إِلَى الأَبَدِ...
مَسَحَتْ آثارَ اللَّعَابِ عَنْ شَفَتِهَا وَخَدِيهَا بِكُمْهَا، وَشَعَرَتْ بِأَنَّهَا تُرْغَبُ فِي الْقِيَاءِ.

اتَّجهَتْ إِلَى جَلَادَرْ وَرَاحَتْ تَبْصِقُ وَتَبْصِقُ وَتَبْصِقُ. فَلَمَّا انتَهَتْ كَانَتْ قَدْ تَعْلَمَتْ شَيْئًا عَنْ نَفْسِهَا: هِي لَا تَرْكَ حَقَّهَا أَبَدًا وَلَا تَنْازِلُ.
لَقَدْ عَيْتَ بِهَا ذَلِكَ الْحَلْوَفَ لَكِنَّهَا تَعْرِفُ كَيْفَ تَسْتَقِمُ.

أَلْقَتْ بِالْطَّمَاطِمَ عَلَى الْأَرْضِ.. ثُمَّ عَادَتْ بِخُطُوطَ ثَابِتَةٍ إِلَى الكَشْكَ الَّذِي نُصِبَتْ الطَّاولةُ أَمَامَهُ.. وَقَفَتْ مِنْ بَعْدِ تَرَاقِبِ الرَّجُلِ وَهُوَ يَزِنُ الْطَّمَاطِمَ لِلْزَّبَانِ وَيَبِدُو لَطِيفًا جَدًّا.. تَعْرِفُ هَذَا السُّلُوكُ جَيْدًا.. كَانَتْ زَوْجَهَا خَالِهَا تَشْتَمِّهَا وَتَزَدِّرِيهَا إِذَا ظَهَرَ خَالِهَا اسْتَحَالتْ إِلَى الْأَطْفَلِ كَائِنِ فِي الْوُجُودِ. كَانَ مِنْهُمَا كَائِنًا.. يَنْادِي بِضَاعِتِهِ فِي فَخْرٍ، وَيَكُومُ أُورَاقُ الْمَالِ فِي يَدِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا يَنْقُلُ الْطَّمَاطِمَ مِنْ قَفْصٍ كَبِيرٍ إِلَى قَفْصٍ أَصْغَرِ.. لِهَذَا اضْطَرَ إِلَى أَنْ يَجْلِسَ الْقَرْفَصَاءَ عَلَى الْأَرْضِ وَيَحْنِي رَأْسَهِ.

فِي ثَبَاتٍ اتَّجهَتْ عَفَافٌ إِلَى الْمِيزَانِ.. مَدَتْ يَدَهَا لِتَتَناولُ سَنْجَةَ

كَانَ الْكَشْكَ مَظْلَمًا قَذِيرًا، وَثُمَّ قَطْةً رَاقِدَةً تَنْظَرُ إِلَيْهَا فِي شَكٍ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ كَانَ هُوَ قَدْ سَدَ الْكَشْكَ بِجَسْدِهِ الضَّخْمِ.. لَمْ تَفْهُمْ إِلَّا أَنَّهُ قَبْلَهَا فِي شَفَتِهَا بِنَهْمٍ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَعْضُهُمَا، وَشَمَتْ رَائِحةَ أَنْفَاسِهِ الْكَرِيَةَ وَلَعَابَهُ.
ثُمَّ شَعَرَتْ بِتِلْكَ الْيَدِ الْغَلِيلِيَّةِ تَمْتَدُ إِلَى صَدْرِهَا الَّذِي مَا زَالَ مُسْطَحًا كَالْرَّخَامِ وَتَعْبَثُ هُنَا وَهُنَاكَ.

اسْتَغْرَقَ هَذَا التَّعْذِيبُ نَصْفَ دِقَيْقَةٍ، لَكِنَّهَا شَعَرَتْ بِأَنَّ عُمْرًا كَامِلًا قدْ مَرَ عَلَيْهَا هُنَاكَ، وَتَسَاءَلَتْ إِنْ كَانَ هَذَا سَيِّهِي أَصْلًا أَمْ أَنَّهُ مُسْتَمِرٌ إِلَى الأَبَدِ.. فَتَحَتْ فَمَهَا لِتَصْرُخُ.

هُنَا شَعَرَتْ بِذَاتِ الْيَدِ تَجَذِّبَهَا خَارِجَ الْكَشْكَ.. النَّقْتَ عَيْنَاهَا بِعَصَامِ لِلْحَظَةِ فَرَأَتْهُ يَنْظَرُ إِلَيْهَا بِقَلْقٍ لَا يَقْلُ عَنْ قَلْقِهَا.

الْيَدِ تَقْوِمُ بِتَعْبِثَةِ الْطَّمَاطِمِ فِي كَفَةِ الْمِيزَانِ كَأَنْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ:
- كِيلُو يَا شَاطِرَة؟

ثُمَّ الْطَّمَاطِمُ تَوْضِعُ فِي كِبِيسِ بِلَاسْتِيْكِي. لَمْ يَطْلُبْ مِنْهَا ثَمَنًا كَأَنَّهُ نَالَ أَجْرَهُ فَعُلَّا. وَبَعْدِ دِقَيْقَةٍ كَانَتْ تَبْتَعِدُ مُتَرْنَحَةً كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ مِنْ حَانَة.. رَأْسُهَا يَدُورُ وَوَعِيَهَا لَيْسَ عَلَى مَا يُرَايِم.. لَا تَسْتَوِعُ مَا حَدَثَ.. وَلَا تَعْلَمُ أَيْنَ هِيَ.
بَعْدِ لَحْظَاتٍ اسْتَجَمَعَتِ الرُّؤْيَ. عَادَتْ الصُّورُ تَحْمِلُ مَعْنَى، وَعَادَتْ الْأَصْوَاتُ تَقُولُ شَيْئًا مَا.

فَسْ سْ سْ!

ابتاعت كيلوجراماً من الطماطم ثم ركضت مسرعة نحو البيت.
ثُرى هل تركت أنامله وشفتاه أثراً عليها؟ هل ترى أمها ذلك؟
هل تراه في عينيها؟ ما تعرفه هو أنها لن تعود إلى هذه السوق أبداً
بعد اليوم.

* * *

الانتهاء!

* * *

كان عصام يرتجف انفعالاً.. وقف أمام الجدار يحاول أن يقرأ الكلمة.
السنجة.. هل كانت هذه هي لفظة «السنجة» تلك التي كتبتها على
الجدار؟ هل ما زال المشهد القاسي يدميها حتى لحظة اتحارها؟ بل
هو سبب اتحارها؟ لن يعرف أبداً...

* * *

أوووووع!

أفرغت نوال معدتها مرة أخرى على البساط. ثم أمسكت بمعدتها
كي لا تخرج من فمها وتتدلى على الأرض، وركضت إلى الحمام..
وسمع عصام صوت تدفق الإسهال في الداخل. هرع إلى الصيدلية
الصغيرة يبحث عن بعض أقراص «الفلاجيل» أو أي شيء آخر..
للأسف لا يوجد.

نظر في غل إلى لفافة الشطائر.. منذ التهمت الفتاة الشطائر وهي

ثقيلة لا بد أنها كانت تزن كيلوجراماً.. حملتها في ثبات واتجهت
لتقف خلف الرجل وهو منهمك.

إما الآن وإما أن تضيع الفرصة للا بد ولو سوف يفتك بك.

حملت السنجة بكلتا يديها ثم هوت بها على مؤخرة رأسه الخالية
من الشعر... لا شك أنها ضربة غير قاتلة ولم تؤذه أو تُحدث جرحاً،
لكنها بالتأكيد ألمته جداً.. وبالتأكيد ستكون هناك «بطحة» بارزة
ترافقه عدة أيام.

صرخ.. وقبل أن ينظر إلى الخلف كانت ترکض كالهير الصغير
متوارية وسط الزحام.

سمعت صحيحاً وسمعت من يسبها بأنها ابنة الزانية، لكنها كانت
تعرف أنهم لن يجدوها.. دعك من أن أحداً لا يعرفها هنا.

كانت ترکض متثيسة جداً، راضية عن نفسها، مع الكثير من التوتر..
لهذا كان قلبها الصغير يخفق كطبل، موشكًا على التوقف.

لم تكن لتخبر أبيها أو أمها، لأنها كانت ستلقى اللوم في كل
الظروف.. «أنت المخطئة لأنك فعلت كذا وكذا ولم تفعل كذا وكذا»..
لم تكن قد كونت خبرات عميقة عن الحياة، لكنها كانت تعرف أنها
مخطئة في كل الظروف.. كان الانتقام مشكلتها هي وحدها.

وعندما خرجت من السوق أخيراً اتجهت إلى باياعة الطماطم
الجالسة على قمة الشارع.. الباياعة التي أنذرتها أمها من الشراء منها
لأنها غالباً تبيع بسعر باهظ.

بحيرات من الألوان. خيطان أسودان يسيلان على جنبي عينيها إلى أسفل، كأنها مهرج في لوحة من لوحات بيكاسو الزرقاء، في صباح كان منظر المكياج الذائب يشيره جنسياً.. ربما كان يُشعره باهتزام المرأة أو أنها نزعت الأقنعة الاجتماعية. لكن المشهد هنا يشير للشفقة والسخرية.

ارتمت على الأريكة غير عابثة بما يظهر أو لا يظهر من فخديها.. كأنها تدرك أنها تحولت إلى كتلة مرضية مقرضة.. لقد انطفأت جذوة الأنوثة الشهية ولم يبق سوى رماد جسد سقيم.

نهض إلى الحمام وحاول ألا ينظر إلى أي شيء، وكتم أنفه، وحاول أن يضغط زر صندوق الطرد، ثم راح يسبب من زجاجة حمض «الكاربوليک» في كل صوب لتصاعد رائحة المُطهر المحيبة.

ناضب كثیر منسية منذ قرون.
فشل زواجك.

ماتت قصة حبك.
جفت قريحتك.
تركت وظيفتك.

تبخرت مدخلاتك.
شاب شعرك.

لم تتوقف عن القيء والإسهال لحظة واحدة.. لحسن الحظ أنه لم يأكل.. لكن شقته قد تحولت إلى قسم طوارئ في مستشفى.. إن تنظيف هذه الفوضى قد صار مستحيلاً.

المشكلة كذلك أنها لا تضغط على زر الطرد في المرحاض أبداً.

بطنه يتقلص من الاشمئزاز.. لكنه على الرغم من كل شيء مستمتع جداً بالسخرية الواضحة في هذا المشهد.. عندما يعيث ويُحضر إلى شقته فتاة ليل فإنها تصاب بتسمم غذائي وإسهال، ويتحول هو إلى مسعف أو ممرض.

تبأ لذلك المطعم.. ماذا توقع من مطعم لا يبيع شيئاً؟ بالتأكيد كل هذا الأكل تالف فاسد حامض ومزرعة للبكتيريا، لكن الفتاة الجائعة لا تعرف الفارق بين طعام وآخر...

«دجاج كيف» و«دجاج شانجهاي» يا أولاد النصابين؟ لقد جرب «دجاج شانجهاي» هذا في ألف مطعم فذاق ألف طعم مختلف، وأدرك أنهم لا يعرفون معنى «دجاج شانجهاي» هذا.. الجديد هنا أنه مسمم، وهو قد نجا بأعجوبة.

أمسك بالقلم والورقة وكتب يُذكر نفسه بالموقف.. سوف تكون قصة قصيرة ممتازة يكتبها يوماً ما.. فقط لتنتهي هذه الليلة بأي شكل.
انفتح باب الحمام وظهرت نوال على الباب.

لشد ما تبدلت.. حافية القدمين منكوشة الشعر تجر قدميها، وقد أغرق العرق وجهها فسأل كل ما وضعته من مكياج ليخلق

وعادت تفرغ معدتها.

قال لها وهو يحاول ألا ينظر:

- هل تريدين الذهاب إلى المستشفى؟

هزّت رأسها أن لا..

لكته كان مذعوراً، بدأ يقلق فعلاً من أن تموت بالجفاف وتجلب له مصيبة. هرع إلى المطبخ وبيده مرتجلة بحث عن ليمونة وكوب ماء.. عصر الليمونة وأضاف إليها بعض الماء، ثم عاد إليها وهو يرتجف وأمرها أن تشرب:

- اشرببي.. الله يخرب بيتك.. اشرببي..

لم يكن قادرًا على الغضب.. لقد تخلص فم معدته الشهراً
وتقرّز، لكنه كذلك كان مستمتعًا بالأبعاد الكوميدية للموقف، وخطر
له أن الواقع يكون أحياناً أغرب من خيال أي أديب.

كانت قلقة لأن ثيابها اتسخت.
قلقة لأنها تأخرت في داره.
قلقة لأنها لن تتغاضى مليئاً، ما لم يكن راغباً في دفع ثمن قيتها
على بساط الصالة.
قلقة لأنها فشلت في أن تلعب دور فتاة الليل.
والحقيقة أنها لم تلعب هذا الدور بنجاح سوى مرات معدودة
من قبل.
أما هو، فكان يعرف أنه لن يجرؤ على طردها.. سوف تمضي الليل
مريضة عنده، وسوف يعني بها كأنه ممراضة، وفي الصباح سوف يطلب
من ينلف لـ الشقة، لكنه في النهاية سوف يدفع لها الخمسين جنيهاً.
لماذا؟
لأنه أبله طبعاً.

حيث أجلس في الشرفة أرمق الأمواج تكسر في بحر أزرق.. أزرق
صاف بلون عيني ناردين بالضيـط ...

كان يعرف أن اللحظة آتية لا محالة.. سوف يفتح عينيه ليجد نفسه
في غرفة نومه العطرة، وذلك اللون الأزرق الخافت يتسلل عبر ستائر
النافذة.. النافذة التي تمتد عبر جدار كامل.. سوف تأتي ناردين لتقدم
له عصير البرتقال، وسوف ينهض من النوم ليشم أرنية أنفها. نعم،
لابد من أرنية أنفها فهي -الأرنية- صغيرة لعوب.

لكن الكابوس قد طال فعلاً...

أمس، رأى نفسه في عيادة طبيب.. أحد أساتذة أمراض الكبد الذين
لقي عياداتهم في وسط البلد. كان هناك وحده.. في هذا الكابوس يرى
نفسه مُسناً جداً، واهناً، ذا كرش عملاقة.. وكان يجلس بانتظار دوره.
ثم نهض ليقابل العالم الذي سيخبره متى وكيف يموت.

تأمل الطبيب الأشعة وقرأ التحاليل.. ثم قرأ الأشعة وتأمل
التحاليل.. ثم هرش أنفه مرتين.. ثم وضع الأشعة والتحاليل ثم
نظر إليك باستمتاع وقال:

- لا تخف.. تلك الخلية المجنونة في كبدك تتضخم.. لقد خرجت
عن السيطرة.. لا تخف.. لقد أرسلت بناتها في كل مكان.. لقد
اتسعت.. لا تخف.. لن نطلق على المرض اسم سرطان مع أنه
كذلك.. لن نخبرك أنك ستموت وأنك ستفرغ ما في معدتك
من دم.. لن نخبرك أن عينك ستصرفر وأنك ستبدأ في الهديان

٥

سمع صوتها يوقظه من الظلام.. كأنها تنادي وهو في قلب كهف:
- إبراهيم.

فتح إبراهيم أبو غصيبة عينيه وتمنى أن يكون قد صحا وبرا من
مرضه، لكنه عندما شم رائحة المستكة ممزوجة بالعرق أدرك أين هو.
كانت هذه غرفة النوم الضيقة، الحارة، ذات الجدران التي
غزتها الرطوبة. الوسادة مبللة بالعرق.. الملاءات مغسولة بإهمال
واضح.

وكانت تلك المرأة الشرسـة الـبدـيـنة تـهزـه كـي يـصـحـوـ:ـ
- إبراهيم.

قال لنفسه: يا رب.. دعني أنهض من هذا الكابوس.. دع ناردين
هي التي توقطني أرجوك. لقد طال المدى بهذا الكابوس حتى نسيت
حياتي السابقة. أريد أن أرى تلك الفيلا الصغيرة في الساحل الشمالي،

يهبط في الدرج المتهشم وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

زوجته تقول له وهو على الباب:

- لا تنس أن تشاجر مع زوج المرأة عطيات.

يهز رأسه أنه إن شاء الله سيفعل.. ويقول همسا إنه مصاب بالسرطان.. لا يريد أن تسمعه.

يمشي في الحرارة فوق الحجارة والقمامدة وأحشاء الدجاج.

تذكر لسبب ما تلك الفتاة فائرة الجسد التي تعمل في مجزر الدجاج قرب «دحدب الشناوي».. إنها جزء مهم من الكابوس، أو هي من العوامل التي تجعل الكابوس أقل بشاعة. تقف هناك ممسكة بالسكين لتذبح دجاجة أخرى.. لسبب ما كان رذاذ الدم الذي يلوث أدمالها وأعلى صدرها يثيره جداً.. لماذا تذكر هذا الآن.. أحشاء الدجاج غالباً...

كان هناك ديك روبي في المجزر، وقد اعتبر الفتاة دجاجة أني، وكان يلقي بنفسه على قدميها بلا توقف، وفي افتتان غريب، لكنه لم يستطع أن يلومه. وخطر له أنه من الجميل أن تمسك هي بجناحيه - جناحي إبراهيم - وتضعه في تلك المصيقة العملاقة ذات القمع ليتدلى رأسه ثم تحزر قبته.

اسمها عفاف.. لا يدري كيف عرف هذا لكنه يعرفه.

يخرج من الحرارة ويقف عند بداية الشارع.

وتتصرف كالسكارى.. لن نقول هذا أبداً، بل سنبدأ تعاطي العلاج الذي أعرف أنا وأنت أنه لا نفع منه.

ويبدون لك الروشتة المليئة بالسطور.

تخرج من عند الطبيب مسروراً.

كل هذا كابوس.. ومهما ساءت الأمور فلسوف تفيق منه. كلما ساء الكابوس وادلهم، كانت لحظة الاستيقاظ أروع وأجمل.

أنت الآن في الفراش.. تنہض من النوم عالماً بأنك تأخرت وأن عليك الخروج حالاً.. سوف تفطر في المقهى جوار الورشة.. هذه قواعد الكابوس وأنت مضطرك إلى لعبها.

تخرج من غرفة النوم لترى هذه الوجوه الشقية الكالحة المليئة بالإثم والجريمة.. هذه وجوه أطفاله كما يحاول الكابوس أن يقنعه. طبعاً هذا كابوس في كابوس ...

يعرف وجوه أطفاله أولاد ناردين ويعرف أنهم أقرب إلى الملائكة كما يرسمونهم على مقاعد الصالون «الأوبيسون».

هل هذه زوجته؟ تلك المرأة البدينـة المترهلـة الضخمة التي تجلس القرفصاء على كرسي المطبخ، وقد ثنت عنق إوزة من تحت فخذها كأنها «هرقل» وقد استطاع أن يجندل «أطلس».. تدس بين منقاريها تلك الحبوب المبتلة بالماء.. هل حقاً اشتئـى هذا الجسد في لحظة ما؟ مستحيل.

منذ يومين أو ثلاثة كان في هذا الميكروباص بالذات، ونظر إلى الخلف.

كانت عفاف هناك جوار النافذة.. محشورة كالعادة.. وكان وجهها شاحباً بطريقة غير عادية وقد اتسعت عيناها كأنها مذعورة.. التقت عيناهما.. للحظة حررت شفتتها كأنها تنطق بشيء ما... لم يفهم.. هل هي تغازله أو ت يريد أن يغازلها؟ لم يفهم فعلاً... نظر إلى الجالس جوارها فوجده نائماً كالثور على مسند المقعد الذي أمامه.

هنا كانت محطة قد جاءت.. لم يجد الشجاعة للبقاء أكثر ليفهم ما تريده منه.. وعلى كل حال كان الميكروباص قد ألقى به في مكان ما من العاصمة المرهقة المترفة.

فتاة مثل عفاف قد ماتت فيما بعد ومزقها القطار.. ربما هي.. لم يعرف لماذا فعلتها.. الكلام كثير.. لكنه لا يحتاج إلى تفسيرات كثيرة.. هذا كابوس وكل شيء يمكن أن يحدث في الكوايس على كل حال. قد تكون هي عفاف وقد لا تكون.. قد تكون ماتت وقد لا تكون.. ثم من هي عفاف أصلاً؟ ربما لا وجود لها في العالم.. بل هذا هو الاحتمال الأرجح. ربما هي تلك الصبية التي يحلم بها الجميع. «كل هذا كابوس». قالها لنفسه عدة مرات.

ما زال الوقت مناسباً كي يتناول الإفطار والشيشة قبل الذهاب إلى الورشة.

ليست لديه سيارة في هذا الكابوس.. هذا غريب.. إن عنده في عالم الواقع سيارة «فور باي فور» ثمنها مليون ونصف المليون.. لا بأس.. فليتعامل مع الكابوس بقواعدة.

يقف على محطة الميكروباص وسط الوجوه المرهقة التي أفعمت حزناً وكآبة.. تصل السيارة التي يتدلّى «التابع» منها بقوة فيزيائية لا يعرف كنهها إلا الله.. يركب.. سائق الميكروباص لا يكف عن الكلام عن لجان المرور وسحب الرُّخص والأقساط التي يجب أن يدفعها.

كالعادة هناك تلك المشاجرة عندما يعلن السائق أن الأجرة جنيه ونصف.. من مكان ما لا بد أن يرتفع صوت ذلك الرجل ضيق الخلق نافذ الصبر:

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. أنا ركبت امبارح بجنيه وربع.
فيرد السائق وهو يرفع صوت «الام بي ثري» الذي كان «كاسيت» منذ عامين:

- اركب امبارح يا أستاذ.
ويهدد الراكب بالنزول، ثم يُفاجأ بأنها ثورة بلا ثوار، وأن أحداً لن يشاركه في الغضب، لذا يصمت.. لقد سجل موقفاً وانتهى الأمر بينما يكرر السائق في انتصار:

- الأجرة جنيه ونصف يا حضرات.

لقد اكتسب هذه العادة في هذا الكابوس بالذات، وهو يعرف أنه في الحقيقة يجلس في الشرفة ليتناول الكروasan مع عصير البرتقال، لكنه في هذا العالم يتყاع فولاً وطعمية ورغيفين، ثم يذهب إلى المقهى ليشرب الشاي ويدخن حجراً.

أنت لا تتصور تلك الألعاب الخبيثة التي يلعبها العقل.. إنه يذوق الفول والشاي على حلمات لسانه، ويشم الدخان بوضوح تام.. سبحان الله! كأن هذا هو الواقع.

في الكابوس يجلس هناك في المقهى ليجد جمال الفقي ومصطفى المزین وعباس الدلجموني.. مع أنهم من عالم الكابوس فإن وجودهم يبعث فيه بعض الألفة.. كان جمال الفقي يؤكد أن الفتاة التي ماتت تعمل في مشغل قريب وقد نامت مع صاحب المشغل. المسكينة عرفت أنها حُبلت، وحاولت أن تجهض نفسها في المستوصف الخيري، لكنهم طردوها.

كان رأي عباس الدلجموني أن الفتاة كانت مسطولة وتحت تأثير عقار ما.. لا بد أنها تعاطت بعض البرشام أو الحشيش.

قال مصطفى المزین وهو يتطلع قرص علاج السكر: إنها تعمل عند كواifer في شارع الحكمة.. هؤلاء الأوغاد يكسبون مكافئ فاحشة فعلاً. بينما قال واحد لا يذكر اسمه: إنها كانت تعمل في محل طرح في شارع التوسماني. ربما كان علاء أبو فرحة هو القاتل: إن أمها أرادت لها أن تعمل في الدعاارة فرفضت. إبراهيم يعرف يقيناً أنها تعمل في

مجزر دجاج، لكن من يدري؟ ربما ليست هي من دهمها القطار.. سوف يمر على المجزر ليرى إن كانت اختفت.

وينظر بطرف عينه فيجد ذلك الرجل غريب الأطوار يرمي في مهمل.. ثيابه رثة وذفنه نامية وحذاوته بالـ.. يبدو أنه مثل الآخرين أو بعبارة أدق يحاول أن يبدو مثل الآخرين.. لكن نظراته مزعجة ولا تشعرك بالراحة.

اسمها عصام.. هم يعرفون اسمها ولا يعرفون من هو بالضبط.. ولا يعرفون لماذا يأتي هنا ولا لماذا يتبع كل ما يقولون باهتمام. نظر إليه وقرر أن يبقى حذراً.. صحيح أن هذا كله غير حقيقي لكن الحذر واجب.

للمزاح هي أن كل شاب يتهم أم الآخر بأنها عاهرة.. وهنا ينفجرون سحقاً باعتبار هذا ظريفاً جداً.

شاب يكلم صاحبه:

- يا ابن المرأة.. البت فيفي حلقت لك.
- (صوت حلقي يدل على الاستنكار).. ما هي حلقت لك انت
كمان يا ابن الـ...
- (اسم فعل بمعنى أستهجن).. (وصف لعضو حميم لدى الأم).
- (صوت حلقي آخر).. وعهد الله وعهد الله لأطلع «...أمك».

الصوت عالي جداً.. الصوت إهانة في حد ذاته.. مع طابع تطجين مميز كأنهم من السوق.. هل هؤلاء هم الذين قاموا بالثورة؟ بالطبع لا.. كانوا هنا يدخلون الشيشة.. هو ذهب إلى التحرير مراراً ورأى الثوار، وبالتالي لم يسمع أحداً يصف الآخر بـ«ابن المرأة»، حتى لو كان يشتم «مبارك» نفسه. أسوأ ما سمعه في تلك الأيام كان «ارحل يعني امش».

بعد نصف ساعة من محاولة التركيز بلا جدوى أغلق الكمبيوتر. لم يجرس على أن يدي الاعتراض أو الضيق لأنهم وقحون وعدهم كبير جداً.. سوف يتصرفون بوقاحة أكثر. وضع ورقة مالية على المنضدة تحت القدح ونهض.

٦

جلس عصام في تلك الكافيتريا.. في الخارج على قارعة الطريق حيث الهواء النقى البارد ورائحة الليل.. يحب هذا الجو كثيراً... الطقس يلسع فعلاً لكنه يعشق البرد.

جاء النادل بالشيشة ومعها المسمى المغلف بالبلاستيك. طريقة تقديم تختلف تماماً عن طريقة الدحديرة. جاء الشاي في فنجان أنيق ومعه طاقم من الكريستال وطبق صغير فيه بعض قطع البسكويت. فتح جهاز اللاب توب وضغط زر التشغيل.. صوت الرنين المطمئن الذي يخبرك أن برنامج التوافذ صحا من نومه. راح يراقب الشاشة ويحاول أن يجد خيطاً من الأفكار التي خطرت له. خيط واحد سوف يبدأ النسج منه.. والنسيج سيتحول إلى ثوب كامل جميل. سمع سيارة توقف بفرملة قوية وطريقة عدوانية واضحة. انفتح الباب... مجموعة من الشباب يجلسون إلى مائدة بجواره.. الكثير من الصياح والمرح والشخير.. لا توجد لديهم سوى طريقة واحدة

«فجاجة القديس جون»، وهو تعبير طلابي يعني أن يستغلوا بائعة الهوى ثم لا يدفعون لها شيئاً ويضرّونها.. لا دخل للقديس هنا، لكنهم ينسبون هذه العادة لكلية بهذا الاسم اشتهرت بها.

إنه في وضع باهش، لكنه على الأقل ليس مجبراً على قضاء ليلة مع هؤلاء الأوغاد ليأكل.. ما كانت لتوجد مهنة العاهرة لو لم يوجد رجال زناة، لهذا الم يكن على أدنى استعداد لأن يدينهما وحدها.. لكنه كذلك لم يكن على أدنى استعداد للتعاطف معها.

هناك طرق أسهل يبيع المرأة بها نفسه.

وفي تلك المرات يكسب أكثر من نوال ألف مرة.. هذا لو تقاضت أي مال أصلاً.. أي شيء سوى الصفعات والركلات والبصقات...

* * *

فرغ عبد الظاهر من صنفه القضايا جيداً، وتأكد من أنها نظيفة مغسولة بالصابون.. رشف رشفة من مشروب اليانسون الذي جلبوه له، ثم رج علبة «السبيري» بقوة.. وببدأ عملية الدهان وهو يصفر.. إن اللون متجانس وجميل.. المهم أن تكفي العلبة؛ فهذا الدهان يحافظ الثمن.

سس سس سس!

* * *

في هذا الوقت كان الكيل قد طفح بحسين عبد الرحمن تماماً.

سمع من يصبح بين هؤلاء الشباب:
ـ نوال!

رفع عينيه في حذر فرآها.

كانت تمشي في تؤدة أمام الكافيتريا، وكانت قد استردت عافيتها وارتدى ثياباً لا يأس بها.. تمسي في تؤدة كمن يتظر شيئاً والأولاد التقطوا الإشارة على الفور.

التقت عينها عينه ثم ابتعدتا فوراً.

لو كانت هذه قصة رومانسية لوقع في حبها ولاكتشف أنها الموسم الفاضلة، لكن الأمر أعقد من هذا.

هي لن تنسى تلك الليلة، وهو لن ينساها.. ولسوف يتذكّر كل هذا القيء والإسهال للأبد.. لقد احتاج إلى نصف يوم لتنظيف الشقة يومها، غير أنه مندهش جداً من أنها ما زالت تمثل إغراء لبعضهم. ثم خطر له أن هؤلاء الشباب يمرّون بحالة تدفق عالي للهرمونات، ولو كان ما يمر بهم خنزير مصاب بالجدام فلربما شعروا بالهياج ذاته.

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

ابتعد وخمّن أنها ستركب السيارة معهم.. لا بد أن هذا برنامجها الليلة.

ما عرفه كذلك يقيناً هو أنهم سيفعلون ما يريدون ولن يعطوها مليئاً.. سوف تتلقى علقة ساخنة. عندما كان في نيويورك عرف تعبير

الراحلة الكريهة الخاصة بالدجاج، وكانت تلبس جلباباً ملوثاً بالماء والدم.. لذا كان يتنفس فعلاً لو يراها بشاب عاديه.

أمام المحل يمر ذلك الرجل الذي يوشك على أن يلتهمها بعيته.. اسمه إبراهيم على ما يذكر.. نظرات وقحة فعلاً وتجعلك عدائياً.. رجل مسن بدین ويدو أنه «صاحب عيماً»، لكنه لم يكف عن التجasse. التفت عيناه بعيته إبراهيم فأسرع يبتعد.

الديك الرومي الذي تركوه حرّاً خارج القفص، يلقي بنفسه على قدميها كأنه يعتبرها دجاجة عملاقة بارعة الحُسن.. ركلته برفق ثم مدّت يدها إلى حسين... .

ناولها الدجاجة.. حملتها بصعوبة فقد كانت ثقيلة جداً:
ـ من أين جئت بها؟ من السوق؟

سألت وأجابت على نفسها من دون أن تنتظر رده، ثم اتجهت إلى قمع الذبح.. أشاح بوجهه وسمع صوت جلبة ثم بدأت رفرفة الجناحين تهدأ... .

كانت عفاف تمسك بالسكين الملوثة بالدم وتنتظر...
ثم إنها بدأت تزيل بعض الأجزاء ووضعت الدجاجة في آلة الطرد المركزي ذات المسامير إليها، التي تجردها من الريش...
دوى صوت الهدير... .

أوقفت الأداة ورفعت الدجاجة وتأملتها ثم كورت أنفها في اشمئزاز:

كان في بداية اليوم قد ذهب إلى السوق وابتاع «دجاجة أمهات» ثقيلة الوزن لأن أمها تحبها. دفع ثمنها ثمانين جنيهاً وابتسم للبائعة.. هو لا يعرفها لكن وجهها سمع، ولها ضحكة عذبة فعلاً، تعلق آيات قرآنية وتشغل القرآن على الكاسيت وتشعل عودين من البخور. كان عليه أن يذبح الدجاجة وينظفها سريعاً لأنه سينطلق بعد هذا إلى المحافظة.

حسين شاب أسمه تحيل لكنه مفتول العضلات، وله شعر أكرت مجعد يأبى أن ينام بأي ثمن. له كذلك عينان يقطنان تابعان كل شيء.

يعمل حسين في مهنة لا نعرف ما هي بالضبط.. هو نفسه لا يعرف ما هي.. هؤلاء الشباب الذين يدورون على المقاهي ليبيعوا منتجات صينية رديئة، ويتجرون عليك لجاجة شديدة فتصير فطاً.. وهم أولئك الذين يقابلونك عند محطات الوقود ليسألوك عن اسم بلد المليون شهيد، فإذا قلت إنه الجزائر هنّاؤك على عقر يتك ودعوك لحفل تكريم فيه على كل هذا العلم.. فقط نحن نريد عشرة جنيهات لضمان الجدية وللتتأكد من حضورك.

ما اسم هذه المهنة؟ هو لا يعرف.. أنا لا أعرف.. فقط نطلق على كل هذه الأنشطة اسم «متروب» لأننا لا نعرف اسمها آخر.

هناك في المجزر كانت واقفة تنظف أحشاء الدجاج.
التفت العينان.. في كل مرة تلتقي العينان.

اسمها عفاف وهي رشيقه جميلة، لكنها ارتبطت في ذهنه بهذه

المرافق. لقد ظفرت المحافظة بخمسة آلاف طلب.. وقد دفع كل متقدم ٤٠٠٠ جنيه، وكان كل شيء ييدو وردياً خصوصاً مع نظام التقسيط المريح الذي وعدوا به.

من الغريب أنك تكافح في مصر للحصول على ما هو حق لكل «برص» يجده شقاً في الجدار بيست فيه. وفي هذا الشق تحاول الحصول على حق يمارسه أي قط في زقاق: الزواج.

لكنهم في المحافظة يعترفون بأن المرافق كان يجب توصيلها قبل بناء أي شيء في المشروع، والآن ييدو الأمر مرهقاً وصعباً. المتشاركون قالوا إن المال ضاع لأن أحداً لا يسترد مالاً من الحكومة أبداً.

المتفائلون قالوا إن المستر كين سيسيردون مالهم بعد فترة تكون المحافظة فيها قد حصلت على الأرباح وقادمت بتوزيعها على المحظوظين.. باختصار هم أخذوا منك ٤٠٠٠ جنيه وحصلوا على أرباحها ثم أعادوها إليك بعد أعوام.. كان بوسعك أن تستغلها في أي مشروع.

ذهب إلى المحافظة ليقابل ذات المجموعة من الموظفين غير المبالين.. نظرات باردة خالية من المعنى.

تشاجر كثيراً وهدد وتوعده.. خصوصاً عندما بُرِزَ له ذلك الموظف سخِّم الجثة ليقول له العبرة الخالدة:

- أعلى ما في خيلك اركبه يا أستاذ.

- تقول إنها من السوق؟

هز رأسه أن نعم وهو يشعر بعدم راحة:

- هل من شيء خطأ؟

قالت وهي تنظر إلى الدجاجة المتبدلة في يدها كأنها ثعبان كويرا:

- فيها ماء كثير.. ماء أكثر من اللازم.

- ماذا تعنين؟

- ربما أنا واهمة.. ربما هي سمينة جداً.. على كل حال اذهب لقضاء مشوارك وعد.. سأكون قد نظفتها جيداً.

- ساعتان؟

- لا مشكلة.

سس سس سس!

هكذا تركها وهو مندهش من رد فعلها.. لكنه إذ خرج إلى الشارع الرئيسي وركب الميكروباص، تحول إلى كتلة «أدريالين» وبدأ يفكر في مشكلته.

ثلاثة أعوام.. وقد دفع للمحافظة ما طلبت.. يعلم الله كيف استطاع تدبير هذا المبلغ. لقد مارس على نطاق واسع «تلييس عمه ده لده». أي أنه افترض من الجميع وسدّد دينه للجميع.. هناك لعبة كراسى موسيقية دائمة يلعبها بدقة مخيفة.

في المحافظة يقولون إن تسليم الوحدات السكنية متوقف بسبب

-دجاجتك!

قالتها وهي تناوله دجاجة صغيرة حقيقة.. دجاجة لن يتجاوز وزنها كيلوجراماً ونصف الكيلوجرام بحال، ومهما كنت متفائلاً... وأشارت إلى طبق بلاستيكي مليء بالماء جوارها:
- حقنوها ليزيدوا وزنها.. قلت لك هذا.. عندما شفقت يطئها سال منها نهر!

راح ينظر إليها وإلى الدجاجة في بلاءه.

هذا الغز حقيقي.. هل حقنت المرأة الدجاجة بالضبطة قبل وزنها؟ أم حقنتها منذ فترة؟ وكيف عرفت أنه سيختار هذه بالذات؟ وكيف لعل الدجاجة حية وهي تحوي بداخلها نحو أربعة لترات من الماء؟
نظر إلى الدجاجة في اشمئزاز وهتف:
- لا أريد هذه... لن أكلها أبداً ولو أذنت في أذني.

وشعر بالحمض يحتشد في فم معدته ويتسق المريء.
لكنه أخذها ودسها في كيس بلاستيكي، وترك عفاف ليركض نحو السوق.

الشيطان.. الموت.. الجحيم.

لقد صار هو هذا كله في لحظة واحدة... الشيطان يحمل دجاجة وركض في السوق.. الشيطان العجوز يريد الانتقام...

يبدو أنهم يدخلون هذا الموظف كحلٌّ أخير لضرب المشاغبين، وبالفعل أدرك حسين أنه لن يقدر على ضربه.
كطفل غاضب ألقى الكثير من التهديدات.. هذا السيناريو تم بحدائقه عشرات المرات، ومن المؤكد أنهم جربوه مع الآخرين مراتاً.. قاموا باعتصام فلم يعبأ بهم أحد.. الزمن يقتل أي اعتصام.. وهم يعرفون هذا جيداً.

هكذا غادر المكان وعقله يضع عشرات الخطط المجنونة... حاول أن يتناسى عشرات المواقف التي خُدع فيها.. يتصدون دمه في العمل امتصاصاً.. الدولة نفسها تحاول خداعه. هل كان عبد الحميد الديب هو القائل:
حتى كأني حائط كُتب عليه ها هنا أيها المزنوق طرطر
هل هناك لافتة على قفاه تدعو الناس لصفعه؟ هل هناك غرض آخر من وجود البشر سوى سرقته؟

عائداً إلى «دحديرة الشناوي» هبط من الميكروباص، ومشى إلى حيث كان مجزر الدجاج.. لقد مرت ثلاثة ساعات على كل حال وعليه أن يعود بالدجاجة لأمه.

كاد يصطدم بجمال الفقي.. كان يعرفه من الدحديرة، وكان يحمل جواً لا صغيراً لا تعرف ما فيه، لكنه بادي السرور بشكل غريب... كانت عفاف واقفة على الباب تتسم في نوع من الشفقة والانتصار.

وفي غضب حقيقى انتزعت الدجاجة فى كيسها من يده.. ثم
دست الشمانين جنيهًا فى اليد الأخرى. كانت تتصرف كمديرة بيت
عقار لا تبغي شوشرة.

كان يتمنى أن يصرخ ويحدث جلبة، لكن شخصيتها كانت أقوى
له، وشعر بأنه يريد أن يخرس.. وأثار هذا جنونه أكثر...

ابعد وهو يطلق السباب من تحت شاربه...

* * *

الدجاجة محقونة بالماء.

لن تناول مسكنك.

لا عمولة لدى شركة الإعلانات.

فاتورة الكهرباء مغلوظة.

عداد المياه لا يعمل، ومع هذا تدفع لهم مبالغ باهظة.

لم تبع شيئاً، وما يعته لم تحصل على عمولتك عنه.

المواصلات على حسابك.

الكتشافات الصينية تالفت كلها.

شركة الأمن لم تقبلك.

تعرف ما ستفعله.. سوف تقتل...

* * *

لقد بلغت قدرته على التعقل نهايتها.. لم يعد يملك أي قدرة
على كبح جماح نفسه.

البائعة الطيبة سمححة الوجه التي تُعلق آيات قرآنية وتشغل القرآن
على الكاسيت، رأته قادمًا من بعيد، وأدركت أنه يحمل معه الخطر..
ربما الموت... كانت تكلم اثنين من الزبائن.

لم توقف عن الكلام لكنها مدت يدها في الدرج الخشبي الصغير
وأخرجت أربع ورقات من ذات العشرين. عندما وصل إلى موضعها
نظرت إليه في حزم ووضعت إصبعها على شفتها السفلية:

- ولا كلمة!

فتح فمه ليصرخ لكنها أخرسته من جديد:

- ولا كلمة!

آخرس! ولا كلمة!

دعني أخدع غيرك من فضلك.. لا تملا الدنيا صرائحًا فكلنا نخدع..
أرى في عينيك أنهم خدعوك في المحافظة وخدعواك في عملك
وخدعواك في كل مكان تواجدت فيه.. الحياة نفسها خدعة كبرى.
الدولة تخدعك طيلة الوقت.. أنت لا تناول خدمات ولا رعاية صحية
وليس من حقك المسكن ولا الزواج ولا العلاج... وبعد هذا كله
تملا الدنيا صرائحًا من أجل دجاجة بها بعض الماء؟!

آخرس! ولا كلمة!

أروع وهو يرى سكيناً تحت ذقنه المزدوجة الشحيمية أو طينجة مصوبة
إلى رأسه.. سوف يرتجف ويتسل.. سوف يبكي كالنساء.

كانت هذه هي القطرة رقم مائة بعدها تلقى تسعًا وتسعين قطرة..
لم حدث الشرخ في الصخرة. النظرة السطحية تقول إنه قرر أن يقتل
مسؤولًا لأن الدجاجة محقونة! لكن الحياة أكثر تعقيدًا من هذا بالطبع.

كان قد توصل إلى قراره النهائي.. لا بد من شراء طينجة.
لا بد من أن يجد حماصة.

٣

كان حسين يهوى قراءة الشعر.. لديه في بيته الضيق بضعة دواوين
مهترئة عتيقة.. غالباً لا يجد اسم الديوان ولا اسم الشاعر.. صفحات
مزقة يستحيل أن تعرف ما كان فيها.

لكنه كان يعرف أن تلك الأبيات لشاعر اسمه شمس الدين
الموصلـي، يصف فقره فيقول:

أصبحت أفقـر من بـروع ويفـتدـي ما في يـدي من فـاقتـي إـلا يـدي
في مـنزـلي لم يـبقـ غـيرـي قـاعـداً فإذا رـقـدت رـقـدت غـيرـ مـددـ
على أـنـه فيـما بـعـد قـرـأـ هـذـهـ الأـبـياتـ تـحملـ اـسـمـ «ابـنـ دـانـيـالـ»..
لـاـ يـعـرـفـ الـحـقـيـقـةـ فـعـلـاًـ..ـ لـكـنـهـ قـرـأـ شـعـراـ قـرـيبـاـ مـنـ هـذـاـ اـبـنـ دـانـيـالـ يـقـولـ:

ما عـادـ عـنـديـ ماـ يـبـاعـ وـيـشـترـيـ إـلاـ حـصـيرـاـ قـدـ تـساـوىـ بـالـثـرـىـ
أـفـ لـعـمـرـ صـارـ فـيـ رـيـعـانـهـ مـثـلـيـ يـوـدـ بـأـنـ يـمـوتـ وـيـقـبـرـاـ
كـانـ يـقـرـأـ هـذـهـ الأـبـياتـ وـيـدـرـكـ أـنـ هـنـاكـ تـنـاسـخـاـ عـبـرـ التـارـيخـ..ـ هـنـاكـ
دـائـمـاـ شـابـ يـتـمـنـيـ الـمـوـتـ لـأـنـهـ اـسـتـلـبـوـهـ كـلـ شـيـءـ..ـ هـذـهـ الأـبـياتـ تـكـلـمـ
عـنـهـ بـدـقـةـ،ـ وـبـمـاـ لـاـ يـقـدـرـ لـسـانـهـ عـلـىـ وـصـفـهـ.

هـذـهـ هـيـ الـلحـظـةـ الـتـيـ عـرـفـ فـيـهاـ أـنـهـ سـيـقـتـلـ مـسـؤـلـاـ..ـ سـوـفـ يـتـقـمـ
وـسـوـفـ يـذـيقـ هـؤـلـاءـ الـأـوـغـادـ الـوـيـلـ..ـ كـلـهـمـ يـخـدـعـونـنـيـ..ـ جـاءـ الـوقـتـ
الـذـيـ يـمـوتـونـ فـيـ جـمـيـعـاـ..ـ أـوـ عـلـىـ الـأـقـلـ يـمـوتـ وـاحـدـ مـنـهـمـ وـيـبـولـ
الـآـخـرـونـ ذـعـرـاـ فـيـ سـرـاوـيـلـهـمـ.

الـوـاحـدـ مـنـ هـؤـلـاءـ يـبـدوـ رـائـعـاـ قـوـيـاـ وـهـوـ خـلـفـ مـكـتبـهـ،ـ لـكـنـهـ سـيـلـدـوـ

rewayat2.com

سيزيف:

عرفت أنها امرأة بالطريقة الصعبة، ولم تكن فخوراً بذلك على الإطلاق.

عفاف الشيطانة الصغيرة.

عفاف التي تمارس كل موبقات الطفولة وشرورها.

عفاف التي تلعب «القال» على السطح وتلتهم العسلية والحرنكس وتنط الحبل في الحرارة.

عفاف الطفلة التي تجيد الانتقام.

هناك تلك اللحظة التي يصحو فيها المييض وتببدأ لعبة «الاستروجين» و«البروجسترون» في دمها.

كانت تلك اللحظة سيئة جداً.. لأنها كانت جالسة على سطح البناء مع محمد وعلاء وسمية... وعلى الأرض كانت قد رسمت ثلاثة خطوط تقاطع مع ثلاثة خطوط.. تسعة مربعات هي العالم السحري للعبة السيجدة.

قطعها حجارة صغيرة، وقطع محمد نوى نق جفنته الشمس.
رائحة فضلات الدجاج التي جفتها الشمس ليست رائحة كريهة جداً، الغسيل فوق الحال تساقط منه قطرات من الماء فتجعل الحياة رطيبة جميلة.

كانت المبارزة متحدة، وقد جلست متربعة وهي تعثث في الطلاء الرخيص على إصبع قدمها الكبيرة. تقرشة بأظفارها. ومحمد كان يهث في أنفه محاولاً استخراج شيء ما سوف يشعر بسعادة عظمى لو أخرجه.

كانت القطة تحوم حولهم.

تناول علاء غطاء زجاجة مياه معدنية وقدفه عليها.. سقط الغطاء جوارها فشتت قوائمها لكنها لم تفر.. ثم إنها اتجهت إلى عشه الدجاج وبكلة اجتازت طريقها وسط الفضلات.. راح الدجاج يصرخ في جنون وهستيريا، ويتواثب، وقد أضحك هذا المشهد عفاف كثيراً.

نقلت حجرًا آخر لتغلق الرقعة أمام محمد.

مس من من!

ثم شعرت بذلك التدفق الساخن.

شهقت ووقفت مذعورة.

نظرت إلى قدميها.

كان هناك دم أحمر يسيل منها ملتفاً حول الفخذ وقد تساقطت

ما حدث وشاعت ابتسامة خافتة على شفتيها.. ابتسامة هي مزج من الشفقة والتحفظ والفهم... ابتسامة من طراز «إذن - أنت - صرت - موضوعة - مثلّي».

أبو محمد أمر الأطفال بالرحيل ورحل معهم من دون أن يعلق.
انغلق الباب، وكانت عفاف تشهق مذعورة والمخاط يسيل من أنها بلا توقف، بينما الأم تطمئنها:

- كل البنات مرن باللحظة كهذه.. أنت بخير.
لا. ليست بخير؛ لأن أبيها ظهر من الحمام وصابون الحلاقة يعطي نصف ذقه. كان قد سمع وعرف ما حدث. بدا لها كأنه وحش استوبي من وحوش القصص للحظة.

تكاد تقسم إن عينيه كانتا تطلكان شرّا وإن أذنيه استطالتا، وإن لحيته نمت فجأة، وإن أسنانه اصفرت فجأة:
- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يتزع الشيشب من قدمه.
- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يبصق في وجهها.
- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يمسك بساعدها بيد من حديد.

قطرات عديدة على رقعة السجدة.. ورأى الأطفال ما حدث فصرخوا رعباً:

- عفاف تبول دمًا!

أما هي فقد شجبت ووقفت عاجزة عن النطق، بينما هم يمسكون بيدها ليبعدوها عن الرقعة.. الخيط الأحمر ينحدر صانعاً بركة صغيرة.. ماذا حدث لي؟ ماذا حدث لي؟

كانت تشعر بالرعب.. لكن الأسوأ من الرعب هو شعورها بالذنب.. لقد أتلفت شيئاً في جسدها من دون أن تعرف كيف أو متى.. بالتأكيد هذا هو ما حدث.

والسؤال هو: هل يقدر الطبيب على إعادة ما تلف؟

كانت تقف هناك وقد ضمت ساقيها ولفت الثوب عليهما بقوة، وبدأ أنها لن تذهب إلى أي مكان حتى يوم القيمة.

محمد هرع إلى بيته الذي يقع تحت السطح مباشرة، وبعد لحظة كان قد عاد مع أبيه.. الأب الذي ألقى نظرة على المشهد وفهم كل شيء.. هكذا طلب منها ألا تخاف وحملها بين ذراعيه.
وانطلق الموكب المذعور عبر الدرج إلى شقة عفاف.

لابد أن الأم سمعت القصة كاملة قبل أن تدخل عفاف الشقة، وراح تحمل عبارة «عفاف تبول دمًا» تكرر ألف مرة.

وعندما فتحت الباب وأمسكت ببابتها كانت قد فهمت

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يحاصرها في ركن الصالة.

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو ينهال عليها ضرباً بالشيش، هذه المرة كان يضرب الوجه.

- يا بنت الكلب!

يقولها وهو يحاصرها في ركن آخر.

كانت تعوي من الألم، وعزز هذا الانطباع الذي كان لديها.. هي أفسدت شيئاً لها، أتلفت شيئاً في جسدها.. وأبوها يعاقبها على ذلك.

الأم تكرر:

- إن الفتاة لا ذنب لها!

لكنه غاضب جداً.. غاضب لأن هذا حدث أمام شهود ذكور، وغاضب لأن جاره هو الذي جاء بالفتاة يحملها من سطح البناء، وغاضب لأن دمها في كل مكان يحكي قصة أنوثتها. كانت عفاف صغيرة جداً لكنها أدركت بشكل ما أنها تُعاقب لأنها أنثى.. الجريمة الشنعاء هي أنها لم تولد ذكراً، وهذا هو الخطأ الأعظم.

الآن انتقلت الشتائم إلى صفحات أخرى من قاموس البلاغة.. وصارت سرعة الضربات أكبر.. وانتقلت الشتائم إلى أمها التي حاولت أن تنقذها عشرات المرات، حتى إنها تلقت عدة ضربات في صدرها.

عندما انتهى الرجل من عفاف، بسبب الإرهاق على الأرجح، لم يكن في صدرها هواء، وتحولت حبالها الصوتية إلى ألفا.. نامت عدة قرون ولم تnel شيئاً من الطعام لعدة أجيال.

بعد أيام كانت قد عرفت المزيد عن الحياة، وضاقت الجدران من حولها أكثر.. وحينما صعدت إلى السطح من جديد كانت مثقلة بالهموم كأنها امرأة صاحبة تجارب.

رأت رقعة السيجة حيث هي وقد تلوثت بالدم الجاف الذي اسودَ الآن.

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت فكرة الأنوثة عندها برقعة السيجة الملوثة بالدم، وأثر الشيش على كل بقعة من جسدها.

الاب القاتل

* * *

العار

* * *

عبر عصام القضبان غير مبالٍ بالقطارات القادمة.

توقف عند جدار مصنع الحلوي الذي هرعت سحلية صغيرة توارى في شق منه. وقف يرمي الكلمة على الجدار ويدت له منطقية جداً.. كيف لم يستطع قراءتها من قبل؟

السيجة

يجتاز بركة الماء القدر التي سكبتها باتعة على الباب ممزوجة بعمل سحري ما نكيد به لزوجته.. يصعد في الدرج.

تخبره زوجته أن الوادي يوسف قد نال صفرًا في امتحان الرياضيات ولا بد من درس خصوصي.. تخبره أن الفتاة شيماء مزقت حذاءها للمرة الثالثة.. تخبره أن لوزئي أكرم التهبا وبيدو أنه لا بد من الجراحة، وإلا هبطت الحمى الروماتيزمية على قلبه.. تخبره أن فاتورة النور جاءت لكنها لم تدفعها لأنها مرتفعة جداً ولا يوجد قرش أحمر في البيت.. تخبره أن بالوعة المطبخ مسدودة.. تخبره أن سليمان جارهم وقف في نافذة المنور واحتلّس لها عدة نظرات وهي في الحمام.. يجب أن يتشارج معه.

- لا تنسَ أن تتشاجر مع زوج المرأة عطيات.

لا بأس... الكابوس شنيع، لهذا تكون لحظة الاستيقاظ عذبة.
سوف يتحمل.

- ألن تتشاجر مع سليمان؟

هزّ رأسه بما يفيد بلّى أو نعم.. إنها من طراز النساء اللاتي يرددن أن يتشارج أزواجهن طيلة الوقت، فإذا ما فتح سليمان رأسه - وهذا أكيد - ملات الدنيا صرائحاً على سبعها وحملها.

هؤلاء الأطفال الأوغاد الذين يشبهون قراصنة الكاريبي.. لا يمكن أن يكون شخص بهذه الخسفة والوقاحة إلا إذا كان طفلاً.. في عالم الواقع أطفاله يختلفون كثيراً جداً.

هذا واضح جلي... لسبب ما ظلت الفتاة حتى اللحظة الأخيرة تذكر رقعة السيجارة في الدم. لقد غيرت كل شيء في حياتها، ولعل النهاية التي لاقتها لها علاقة قوية بهذه التجربة.

عندما كتبت الفتاة كلمة «السيجارة» على الجدار كانت ترسل رسالة.. الرسالة تتعلق بصدمة الأنوثة الأولى.. لكن باقي الرسالة لم يتضح بعد...

هزّ رأسه في فهم وتراجع بظهره من دون أن يبعد عينيه عن الجدار.
الآن بدت له خيوط القصة واضحة.. الصدمة الأولى.

هدير قطار آتٍ من بعيد.. لكنه لن ينظر.. لقد صار أكثر وقارًا من أن يبدي الذعر أو اللهفة لدى قدوم قطار. إنه يصير من رجال الدحديرة بعرور الوقت.

* * *

كان إبراهيم يعرف أن كوايسه تبدو واقعية أكثر مما يجب.. حلم ذات مرة أنه متهم في قضية أمن دولة وقد قبض عليه.. تعرض للتعذيب فعلاً وكهربوا جسده فعلاً.. شعر بهذا الكله.. وعندما أوشكوا على دس عصا المكنسة في جسده نهض من نومه، ولشد ما شعر بالنشوة وهو يدرك أنه في فراشه المبلل بالعرق.. الكوايس تمنحك لذة لا شك فيها؛ هي لحظة الإفاقة.

لكنه بصرامة بدأ يشعر بتوتر عندما جاء العصر وعاد إلى بيته من دون بادرة توحّي بأنه سيفيق.

هذه الجدران تخنقه.. هااااه! أخذ شهيقاً عميقاً.. يتنفس الخروج
من جدران هذا الكابوس.. هناك فتحة مالكن أين هي؟

لم يجد الفتحة.. لم يجدها وهو يراقب زوجته تُعد الإفطار
للاطفال.. تُلبسهم ثيابهم وهي تصفع هذا وتلکر هذه.. لم يجدها
وهي تضع حذاء الفتاة في وجهه ليصدق أنه ممزق.. ثم تنزل الأوغاد
إلى مدارسهم وعرف أن عليه أن يلبس ثيابه ليذهب إلى العمل.

لو كنت في كابوس فعليك أن تلعب بقواعدك.
إنه كابوس.. هذه ليست زوجتك.. هذه ليست حياتك.. هذا ليس
أنت.. هذا ليس بلدك.

حمدًا لله! سوف تقيق بعد قليل لتجد نفسك في فراشك الوثير
المبلل بالعرق، من ثم تنهض للحمام لتفرغ مثانتك وتشرب كوبًا من
الماء المثلج وتعود للنوم.

هذا ليس واقعك.. هذه ليست حياتك.. اصبر قليلاً.

يدخل الفراش القذر والغرفة كريهة الراححة التي تناشرت الخرق
والثياب المكومة في كل ركن منها.. يأمل أن يظفر بساعات من النوم.
 هنا تدخل زوجته الغرفة.. إنها تنزع ثوبها القذر لترتدي أبشع
قميص نوم رآه في حياته، ثم تندس جواره فيشن الفراش البائس ويتأوه
ويوعي.. إنها ما زالت تتكلم.. تتكلم عن ارتفاع سعر الخضار وعن
جارتها الوقحة عطيات وعن آلام الظهر وعن حاجتها إلى غسالة
«فول أوتوماتيك».. يقول لها وهو ينظر إلى السقف حيث يمشي
برص صغير:

- كنت عند الطبيب.. أنا مصاب بفيروس «ج».. والحالة متقدمة.
- هذا هو ما تجده.. المرض.. منذ عرفتك وأنت مريض بشكل ما.
وتنهال على رأسه بالسباب والإهانات والشتائم.. هؤلاء لم يعودوا
رجالاً.. هؤلاء مسوخ صنعتها هرمونات الفراخ البيضاء ولن تندهنش
لو نما له مبيضان ورحم واشتري مشدداً، وهي البائسة التي تغسل
وتتمسح وتطبخ.. فلو كانت خادمة لوجد في عروقه بعض القوة..
الفارق هو أن الخادمة تقاضى مالاً، أمّا هي فتضرب بالحذاء، والله
يرحمك يامّه.

ينام وهو يدعوا الله أن يفتق أو يموت.

إنه الصباح.. شعور عام بالقلق يغزوه وهو يرى ذات معالم الحجرة
وذات الفيل البشري الذي يسيل لعابه على الوسادة.

العرق يليل جيئه وهو موشك على أن يغيب عن العالم.

كان بحاجة إلى وقت آخر حتى ينعم بالحظات كهذه من جديد..
ليست لذة متأحة طيلة الوقت للأسف.

* * *

لم يكن جمال بعيداً عن العيون إلى هذا الحد.. لقد رأه عباس الدلجموني يرقد هناك على حافة المصرف وهو يتلوى من النوبة، وخطر له أن الرجل يبدو كمن قضى ليلة حمراء حافلة... لكن هذا بدا غريباً طبعاً، وعلى كل حال لم يكن يجهه ولا يرتاح له على الإطلاق، وإن كان يقابله دوماً في المقهى. جمال مندفع وقع قليلاً وله آراء تثير الغموض.

لكن عباس الدلجموني لم يكن رائق البال. كان يتجه إلى الدحديرة ليقابل صلاح.. إنه يتظاهر في عادة من العشرين العشوائية المترادفة قرب قضيب القطار، ومعه شرائط البرشام. ككل مدمن برشام اكتشف عباس أن المهنة الوحيدة في العالم التي تتيح له دخالاً يسمح بمزيد من الإدمان، هي تجارة المخدرات.. أي أنه يبيع جراثيم داته للناس. كان يرى العالم كله من منظور كيميائي ضيق، ولهذا كان يؤمن بأن أي نصر غريب في الكون ناجم عن تعاطي المخدرات، وكان يؤمن مثلما يؤمن ابنه ما زال «صاحب كباية» ولم يقلع عن الخمر كما يزعم.. نظرات عينيه وتصيرفاته تقول هذا. كما كان يؤمن بأن «أوبياما» حشاش قديم لكنه يتعاطى الآن أنواعاً باهظة الثمن:

٨

جري جمال الفقي.. حتى بلغ مصرف الماء.

هذا هو المكان المعتاد الذي يقصده في كل مرة، وكان يعرف أنه لا يوجد هنا سوى بعض الصيادين المسلمين. أحياناً كان يقابل مصطفى المزین جالساً، وجواره صفيحة السمن الصدئة والراديو الصغير، وهو يدللي الصنارة في الماء.. بالطبع لم يكن يصطاد أي شيء إلا عندما يأتي الغروب وتنكسر حدة الشمس. كان مصطفى ينصحه ألا يأكل سمك القراميط بأي شكل لأنه يأكل منه من المصرف.

لكن بالطبع لم يكن جمال يرغب في أن يقابل مصطفى الآن.

اتجه إلى الضفة، وتلفت حوله.. ثم بدأ ينزل الجبل ببطء في الماء... سمع صوت العويل والحركة والذعر.

قلبه يتواكب بين الضلوع.. هذه هي اللحظة التي بلغ الذروة فيها فألقى بالجواب في الماء وارتدى على الضفة يشقق.

كانت العشة ضيقة جداً.. بها فراش فقط، لكن هذا هو كل شيء.. فعلاً.. الفراش يحتل كل المساحة فلا توجد إلا مساحة صغيرة تحته لسماع بوضع موقد وأنية طبخ، وقد تم فرشه بالكليل، بينما هناك على الجدار أرفف خشبية تم تزيينها بورق «كروشيه» ملوّن على شكل مثلثات أو عرائس مقصوصة من ورق الكراريس.. على أحد الأرفف جهاز كاسيت.. وهناك عدة صور فوطة خشنة للممثلين تم فصها من مجلات أو اشتراوها في زمان ما.

لا توجد طريقة للبقاء في هذا البيت سوى التربع على الفراش.. وقد فعل عباس الدلجموني هذا.. كانت كل عظام جسده متعبة مؤلمة كعادة مدمري «الترامادول».. الفكرة أن العقار اللعين يجعلهم يحملون جسدهم الكثير من المشقة والتعب، مما يدمر العضلات تدريجاً.. نزل صلاح تحت الفراش وأخرج كيساً من البلاستيك الأسود.. وثب إلى الفراش ليبدأ التقسيم.

إنه «الترامادول» الصيني الجديد... يؤدي العمل جيداً، ولكن فيما بعد سوف يعرف الجميع أنه يسبب بؤراً صرعية.. أشعل عباس سيجارة وسحب منها بنئهم.. هذه من علامات «الترامادول» المهمة.. أن يبدو دخان السجائر أكثر متعة ولذة.. والحقيقة أن معدل تدخينه صار الضعف.

الحوار مقتضب جداً.. هؤلاء قوم فرغوا من الكلام من زمن و قالوا كل ما يمكن قوله.. لهذا معظم المحادثة هي:

-شغل المعلم لنفسه.. تخيل رئيس أمريكا بكل من تحت يديه من علماء.. لا بد أنهم يصنعون له أجدع برشام في الكون.
لو صار رئيس جمهورية لكون وزارة للمزاج فقط.. وزارة من العلماء والكمبيائيين والمزارعين، مهمتها أن تصنع له أعظم مخدر في التاريخ.. لا بد أن «أوباما» فعل هذا فعلاً.

كانت صاححة زوجة صلاح تقف بجلبابها الأسود الفسيق أمام العشة تنشر الثياب على جبل هناك، لكنه بالطبع حاول أن يتحاشى النظر إليها.. جلباب أسود ناعم ضيق خبيث يعد بمسرات خفية حرافة.. هذه امرأة حقاً.. امرأة مفعمة بالأسرار وتملك مفاتيح عالم الأنوثة الرهيب المعقد، وليس مجرد فتاة معجبة بنفسها في الشارع.. لكن هناك قيمة اسمها «الأخوية» يستعملونها طيلة الوقت ويتكلمون عنها في كل الظروف.. وهي تقريراً القيمة الوحيدة في حياتهم.. ولهذا لم ينظر إليها.. لو كنت تثق في كلامي فأنا أؤكد لك أن شيئاً لن يحدث بينهما.. هناك مقدمات لكن لن تكون هناك نتائج.

صلاح لم يُرزق أطفالاً بعد، ويفيد أن لديه مشكلة جنسية ما لكنه لا يتكلم عنها.

رأى الفتى ابن أم بليل يتبعه وقد بدا عليه الرضا.. يعرف أن الفتى زبون لكنه يتعاطى البانجو فقط ولا يتعاطى «الترامادول». لا يعرف ما يعمله الفتى.. لكن مهنة «مدمدن» مهنة شائعة هنا ومحترمة على كل حال. الكل يفهمها ولا يتعالي عليها.

-إيه؟

-آه.

-أهـ.

-أيوه.

إن قواعد الأخوية قوية جداً، وعلى كل حال عباس لا يرغب في
لفسح هذه العلاقة التجارية الناجحة.. سوف يعرف صلاح وسوف
يأنقذ ليفتوك به.. وغالباً سوف ينجح.

«النسوان كتير».

في كل مرة يقولها لنفسه وهو يتعدّد.

لكنه إذا ابتعد ببعض خطوات وجد نفسه أمام شاب يعرفه، لا تربطهما
صداقة لكنهما متعارفان. كان هذا هو حسين عبد الرحمن.. شاب
«الغلبان» يعمل مندوبياً في أكثر من شركة.. يبيع كل شيء تقريباً، ومن
الواضح أنه لا يجد ما يكفي ليأكل.. وكان يمسك بيقايا سيجارة يبدو
أنه لن يتخلص منها أبداً.

يحمل حقيبة جلدية مهترئة.. على الأرجح فيها زجاجات عطر
أو أمواس حلقة أو ماكينات خياطة صينية بحجم قبضة يده. المهم
أنه لا يبيع أي شيء منها...

وواصل المشي فوق الأرض الوعرة وهو يشعر بثقل ما يملأ به
جيوبه. ليس هذا أفضل وقت للثرثرة في الشارع، لكن الفتى لحقه
وهو يضحك.. لا يمكن أن يكون ما يطلبه الفتى هو الصنف.. على
قدر علمه هو لا يتعاطى أي شيء. من المستحيل أن يكون قد قرر
أن يبدأ الآن.. في هذه الساعة.. ثم من أخبره أن عباس الدلجموني
يبيع أي شيء؟

بدأ يشعر بضيق.. نظر إلى الفتى في غلٌ ثم توقف:

لم تكن هذه أفضل طريقة لتوزيع الصنف ولا أكثرها حذراً،
لكنه كان قد تعلم مع الوقت أن «الدارأمان»، وأن الشرطة لا تتدخل
أبداً.. دائماً هناك مصالح مشتركة مع الشرطة.. ومن يتورطون
فلا نهم لم يتعاونوا مع المخبرين في الوقت المناسب، كما أن
معظم من يُقبض عليهم هم ضحايا زوجة عَصْبَى بسبب ضرتها..
أي أنه لا بد من شخص ينقب وراءك، وفيما عدا هذا فلا مشكلة
ولا خطر.

انتهت العملية فدس عباس ما حصل عليه في جيوب السترة..
فرغ من شرب الشاي بسرعة وأشعل سيجارة أخرى، ثم وثب نازلاً
من على الفراش ليقف أمام الباب:

-سلام.

-سلام.

ثم مر أمام صاححة التي تقف بجلبابها الأسود الضيق أمام العشرة
تنشر الثياب. رمقها بنظرة جانبية سريعة تجمع بين التحية والوداع
والاشتاءء، دعني أؤكد لك من جديد أنه لن يحدث شيء بينهما..

- هل من شيء تريده؟

حتى كأني حائط كُتب عليه ها هنا أيها المزنوق طر طر
قال الفتى في حرج:

- أولاد الحلال قالوا إن بوسنك أن تساعدني.. قالوا إنك تعرف
مكان حماصة.

نظر إلى الفتى ومضغ فلتر السيجارة التي بين شفتيه.. لم يقل
أي شيء.

قال الفتى وهو يرتجف وينظر حوله:
- أريد.. أريد طبينة.

إذن هذا هو الموضوع.. فكر في أن يصرخ في الفتى قائلاً إنه
لا يعرف أي شيء ولا يعرف من هو حماصة هذا، ثم قرر أن وقت
هذا السخف قد مر.. لا بأس من أن يعرف عن الموضوع أكثر.

على مسافة قرية من ذلك الرجل اللوح الذي يرونـه في المقهيـ
كثيراً ويحاولـ مصادقـتهم بأـي شـكل.. لـيس مـخـيراً، وـلا يـدـوـ مـتـمـيـاً
إـلـى الـحـكـومـة أـصـلـاً، لـكـنـه لـغـزـ وـلـا بـدـ مـنـ الـحـلـرـ منه.. يـدـوـ أـنـ اسمـه
عـصـامـ، وـهـوـ كـالـذـبـابـةـ مـنـ الصـعـبـ التـخلـصـ منهـ. هـكـذـا ظـلـ عـبـاسـ
صـامـتـاـ حـتـىـ اـبـتـدـعـ هـذـاـ عـصـامـ ثـمـ نـظـرـ لـلـفـتـىـ سـائـلاـ:

- ماذا تنوـيـ عملـهـ بـالـطـبـيـنةـ؟

سؤال غـرـيبـ.. فـيمـ يـسـتـعـملـونـ الطـبـيـنةـ إـلـاـ لـلـقـتـلـ؟ لـيـسـ لـدـقـ

المسامير عندما يضيع الشاكوش.. بالتأكيد.. الفتى يواصل النظر
حوله في حذر.. ثم يلقي بالسيجارة ويقول:
- سأقتل.. سأقتل شخصاً.

- من هو؟

- لم أعرف بعد.

يا ابن الجنون! يبدو أننا سنمرح كثيراً.. هؤلاء البلهاء أمعن من
البانجو ألف مرة.. هذا الفتى يعتقد أنه غاضب إلى درجة القتل..
من المслـيـ أنـ تـراـقبـ هـؤـلـاءـ.. غـضـبـهـمـ مـمـتـعـ كـغـضـبـ الـأـطـفالـ
وـلـاـ يـحـقـقـونـ أـيـ شـيـءـ مـنـ خـطـطـهـمـ الـانتـقامـيـةـ أـبـداـ. فـقـطـ يـوـشـكـونـ
عـلـىـ الجـنـونـ وـيـمـوتـونـ كـمـدـاـ.

راح يفكـرـ منـ جـديـدـ.. نـفـثـ سـحـابةـ مـنـ الدـخـانـ فـيـ وـجـهـ الفتـىـ
لمـ قـالـ:

- منـ قـالـ إـنـيـ أـعـرـفـ مـكـانـ حـماـصـةـ؟

- أـرجـوكـ!

قالـهـاـ الفتـىـ فـيـ إـصـرـارـ، وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ مـتـأـكـدـ مـنـ أـنـ عـبـاسـ يـعـرـفـ
مـكـانـ حـماـصـةـ.. فـيـ الـحـقـيـقـةـ كـانـ هـذـاـ صـحـيـحاـ.. لـكـنـ حـماـصـةـ لـيـسـ
سوـبـرـ مـارـكـتـ أوـ كـافـيـرـيـاـ.. أـنـتـ لـاـ تـاخـذـ النـاسـ إـلـىـ السـرـجـةـ لـمـجـرـدـ
أـنـهـمـ يـرـيدـونـ ذـلـكـ.

- اـسـمـعـ يـاـ بـرـنسـ.. أـنـاـ لـاـ أـعـرـفـ أـيـ شـيـءـ عـنـ حـماـصـةـ.. الطـبـيـنـجـاتـ

قال عباس لنفسه: يجب ألا يصدق كلامي.. يجب ألا يكون
المرء بهذه السذاجة.

قال كلامهما: الآخر وغدو قدر.. وعلىَّ أن أكون حذراً.

* * *

فرغ عبد الظاهر من غسل القضايا جيداً، وتأكد من أنها خالية من
ذرات التراب.. سوف يرش الطبقة الثانية من الدهان... هذه ستجعل
اللون أكثر تجانساً...
لابأس... المهم أن تكفي العلبة.

* * *

فرغ مصطفى المزين من إبعاد الذباب بالمنشفة، ورش بعض
الماء، ثم جلس على المقعد يتابع واحدة من القنوات الفضائية
الدينية التي تتحدث عن عقوبة سرقة «الدش» عن طريق الوصلة.
جلس يمصمص شفتيه متعطضاً وهو يتسلق بركل سلك الوصلة الذي
يتندلى من التلفزيون إلى الأرض.

هناك في المرأة المشروخة رآها وهي تحمل لفافة الفول
والطعمية، تمشي بسرعة أقرب إلى الجري قاصدة محل الكواifer
الواقع أمامه.

اسمها عفاف كما قيل له.. وجسمها جميل لكن بالطبع لم يعد في
جسده طاقة تسمح له بأي نشاط غير الأكل وقضاء الحاجة.. حتى

لأتباع في الشارع.. ثم إنها خطيرة جداً وقد تؤذيك.. ربنا يسترك..
خلاص؟

وأوشك أن يبتعد لكن الفتى تمسك بطرف سترته.. هنا جن
جنونه:

- هل تريد أن تموت؟ لو أردت أن أنزع وجهك من مكانه فلتفعل
هذا مرة أخرى.

«الترامادول» يشعره بأنه ذو قوة كاسحة وأنه قادر على تفجير
رأس أي شخص.

- أرجوك.. سأدفع لك ما تريد!

هنا قرر عباس أن يلعب اللعبة المعتادة.. يشتري ولا يبيع.. سوف
يبقي الفتى قريباً وفي الوقت نفسه لا يقدم له أي شيء. لن تكون هناك
طبيعة. لن يكون هناك حماصة.. لكنك لن تعرف هذا.

- اسمع.. تعال غداً في نفس الوقت عند عربة الفول.. سأحاول
أن أجده لك واحدة.
وتبادل النظارات.

قال حسين لنفسه: الرجل كاذب.. يريد الخلاص مني فحسب.

قال عباس لنفسه: الفتى مجنون.. أريد الخلاص منه فحسب.

قال حسين لنفسه: لا أصدق كلامه.. الأمور ليست بهذه البساطة.

نظر إلى الخلف فرأى ذلك الرجل الغامض الذي يظهر في المنطقة
كثيراً هذه الأيام.

- صباح الفل.

واتجه الرجل إلى المقهى الخالي فجلس ونزع عويناته وأراح
ظهوره:

- أريد حلقة ذقني.

سعل مصطفى المزین وبصق.. ثم أخرج الطبق المعدني الذي
يقلبون فيه الصابون وبدأ يسن الموسي.. توقع أن يتساءل الرجل
عن التعقيم أو الأشعة فوق البنفسجية ليلعن أبياه، لكن الرجل التزم
الصمت.

ساد صمت ثقيل.. لا يقطعه سوى صوت الموسي.

قال عصام وهو مغمض العينين:

- هنا من زمن يا عم....؟

- مصطفى.

ثم باقتضاب أردف مصطفى:

- من زمن.

يا لهذه الإجابات الحادة الباردة كالسيف.. تقطع جبل الكلام

تماماً.

التبول صار عسيراً مع تلك البروستات اللعينة.. إن البول يخرج كأنه
من نافورة تبلل كل شيء.

كان مصطفى من هؤلاء الشيوخ الذين عبثوا كثيراً في شبابهم، ثم
لما تقدمت بهم السن ضاق خلقهم وقصر فتيلهم. يكفي أن تتبادل
معه ثلاث كلمات حتى ينفجر في عصبية وهو يرتجف.. بينما تبرز
الأوردة على فوديه وتتحجّظ عيناه.. ويردد ألف مرة: «إنت مين انت؟
مين انت؟» أو: «اتكلم بآدب».

يحاول أحياناً إقناع نفسه بأنه - وقد صار الوقت ضيقاً - مهتم
بالدين وقراءة القرآن وسماع القنوات الدينية، لكنه ينسى ذلك سريعاً
مع أول فتاة لعوب تمر أمام المتجر، أو أول نكتة بدائية يحكوها له
جمال الفقي، أو أول شخرة يُطلقها في وجهه عباس الدلجموني..
عندما ينسى كل شيء ويفسد في الأرض كما كان يفعل وعمره
عشرون عاماً...

بالطبع مع عصبيته هذه لم يعد هناك زبائن تقريباً... لا يحلق
إلا عدد محدود جداً من الناس، وهو بصرامة لم يعد يطبق الزبائن..
لو كانت هناك طريقة تجعل الزبائن يدفع المال ثم يرحل من دون
حلقة لكان هذا رائعاً.. يبدو أنهم في اليابان يفعلون ذلك، لكن
أين نحن من اليابانيين؟ إنهم قوم محترمون وأولاد ناس حقيقيون..
مسلمون بلا إسلام كما قال الإمام محمد عبده.

سمع نحنحة.

-ربنا يديك الصحة.

ثم فتح عصام عينيه ببطء... رأى في المرأة تلك الفتاة، عفاف، تمشي بسرعة خارجة من محل الكوافير.. فسأل في خبث:

-ما شاء الله.. هل هذه الحلوة تعمل عند الكوافير أم هي زبونة؟

قال مصطفى في ضيق:

-تعمل.

-يبني وبينك في زمن التلوث والطعام المغشوش هذا، ينبغي للمرء ألا يتزوج ألا فتاة كهذه.. إن تأثيرها سحري قادر على قهر التلوث والفراغ البيضاء.. هه هه.

ثم ندم على هذا الكلام -الحلاق المسن عتشكك، وهذا الكلام يوحى بأن عصام يزيد معرفة المزيد عن الفتاة، وهو ما سيجعل الحلاق يحتد.. نحن لا نمارس هذه المهنة يا أستاذ.. هناك من يمارسونها فابحث عنهم.

لكن الحلاق قال وهو متوجه كما كان:

-الفياجرا.

ما المناسبة؟ هل هي سيرة الفتاة الفاترة؟ أم أنه كان يفكر في شيء آخر؟ أم ماذا؟ الفياجرا.. لا تعرف هل يمتدحها، أم ينتقدها، أم يتسلى بذكر اسمها، أم يخشى أن يكون قد نسي الاسم ويجرب ذاكرته.

ثم راح يفكر قليلاً وهو يسن نصل الموسى.. وقال:

-هناك «السياليس».. وهناك دواء اسمه «ليفيتر».. جبار فعلاً.

هناك كذلك حلول غريبة.. البعض يغلي أوراق النبق.. وهناك من يستخدمون جوزة الطيب.. عندي زبون لم يعد يصل إلى النشوء إلا لو أغرق كلاباً صغيرة في الماء!

هب عصام مذهولاً حتى كاد يقطع رقبته بالنصل.. هذا آخر حوار لوفع أن يسمعه.. ما علاقة الكلاب الصغيرة بالنشوة؟

قال الحلاق من دون أن يهتز وجهه لحظة:

-هكذا.. يضع كلاباً صغيرة في جوال ويغلقه عليها ثم يذهب إلى النهر ويسقط الجوال بما فيه.. يقول إن هذا يعيد رجولته! كانت الإجابة سهلة.. الضعف الجنسي قد لا يستجيب إلا مع السادسة المفقرة.. هكذا يحدث للسفاحين في الخارج، وعصام قد فر أقصية السفاح «تيد بوندي» جيداً.. بل إن تعذيب الحيوان من النذر المخيف التي تُنبئ بأن ابنك سيكون سفاحاً، لكن هذا لا ينطبق على شارع التوسانى و«دحدبيرة الشناوى».

ثم إن الحصول على النشوء بقتل الكلاب ليس مصدرًا متاحاً، وليس سهلاً.. إنه كمن يدخن الأبخرة المتتصاعدة من البراكين من أجل عمل دماغ.. معنى ذلك أن الرجل لا يظفر بالنشوة إلا مرة كل خمسين عاماً!

-هل... هل هو زبون عندك؟

-لا.

قالها الحلاق وقد شعر بأنه تكلم كثيراً.

في هذه اللحظة بالضبط ظهر جمال الفقي على الباب.. تمطى وتناءب ثم أصلح من وضع قميصه داخل السروال وقال للحلاق المسن:

- ذقني يا مصطفى.

ثم أخرج لفافة تبغ من علبة مكرمشة...

في اللحظة ذاتها كان الحلاق قد مسح وجه عصام وغسله وجفنه، ثم وضع له البودرة وأنهضه.. فلو استطاع أن يرفض الأجر لفعل.. كل ما يريد هو أن يرحل هذا الأحمق قبل أن يقول كلمة ما.

قال عصام وهو يتحسن جيئه ليخرج المال:

- هذا الذي يغرق الك...

قال عم مصطفى بسرعة وهو يقتاده للباب:

- فيما بعد.. فيما بعد.. أنا متوجّل فعلًا.

وتناول المال فلم ينظر إليه لحظة.

وسرعان ما وجد عصام نفسه في الشارع لا يفهم ما حدث.. والأدهى أن العلاقة سيئة جدًا.. هناك أجزاء من ذقنه لم تُمس.. نظر إلى الخلف في دهشة فرأى جمال الفقي ومصطفى.. الأول في مقعد الحلاق والثاني يقف خلفه.. كلاهما يرميه في شك وكراهة.

لقد كانت هذه هزيمة أخرى.

ناصب كثيرون مني منذ قرون.

فشل زواجك.

ماتت قصة حبك.

جفت قريحتك.

تركك وخليفتك.

تبخرت مدخلاتك.

شاب شعرك.

الرفاقي يعزونك على وفاتك الأليمة.

لكنك ما زلت طفلاً يأبى الاعتراف بأنها النهاية.

اعتماد التردد على هذه الندوات منذ سنين، لكنه على الأرجح
لا يخرج بشيء جديد.

ذات مرة رأى ناقداً شاباً يتكلم عن منهج جديد للنقد، اسمه
«الانطباعية الثورية». راق له الموضوع وأخذ رقم الهاتف.. ثم تكلم
عن الانطباعية الثورية مع بعض الأدباء الذين حضروا الندوة فوجد
أنهم لا يذكرون حرفاً مما قيل.

اتصل بالناقد يسأله عن قراءات أخرى في منهجه، فوجده قد نسي
الندوة ونسي ما قيل فيها ونسي أنه كان هناك.

هكذا بدأ يحضر هذه الندوات وهو لا يتوقع منها الكثير.. هناك
دائماً أزمة ووجهه مدلهمة وتعقيد غير مفهوم.

- فلتناقش أزمة المسرح.

- هي أزمة نص.

- هي أزمة أفكار.

- هي أزمة تمويل.

- تجربة مسرح الستينيات لن تتكرر.

- مسرح القطاع الخاص هو كباريهات تتنكر بشكل محترم.

- بعد ألفريد فرج.. انتهى كل شيء.

- مسرح الجيب هو الأفضل.

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلal قبل أن تقني.

عندما يبدأ موعد سجنك الخاص.

جلس عصام يراقب الوجوه وقد عقد ساعديه على صدره..
للحظة بدا كأنه مثقف وجودي من الستينيات، خصوصاً مع أزرار
قميصه المغلقة ضاغطة على عنقه، والسيجارة المتدلية من شفتيه.
رائحة الدخان قاتلة.. التنفس حلم شبيه بحلم الجائع بالطعام أو
الظمآن بالماء أو الجالس في ندوة كهذه بالهواء.

المقاعد متباشرة في الغرفة الضيقة، والأصوات عالية، والعرق
غزير، والنفوس عصبية، والحر خائق، والنساء شهيات، والذباب
كثير، والإضاءة واهية، والحداء ضيق.

- أزمة أصوات.
 - أزمة رقابة.
 - الميكروباص قضى على الغناء في مصر.
 - الفيديو كليب جعل بوسع الكل أن يغني.
 النسوة يرحن ويجهن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

تقف تلك الشاعرة الشابة التي تلبس بلوزة تكشف عن نصف صدرها مع سروال ضيق.. ملطخة بالمكياج كالهند الحمر، هستيرية تماماً تصرخ بعصبية:
 - الرجل مُصرٌ على أن يعتبر المرأة وليمة في فراش!
 تخيل أنها وليمة في الفراش فشعر بدمه يغلي.. نظر إلى الجالسين وأقسم لنفسه أن هذا العرض الرائع جعلهم جميعاً يفكرون في موضوع الفراش هذا، وقد بدأ يرمق لهم. لماذا لبست بهذه الطريقة؟
 أم هو نوع من الامتحان لهم لترى إن كانوا رجال كهف أم لا؟
 لو كان هذا امتحاناً فأنا رسبت فيه، وأقرّ وأعترف بأنني رجل كهف.. من حُسن حظك أنتي على باب الستين.
 كان غارقاً في خواطر سوداء لا يمكن التصرّح بها هنا، عندما مال عليه مراد صديقه المهندس والأديب:

النسوة يرحن ويجهن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».
 * * *
 - فلتนาوش أزمة الشعر.
 - الشعراء لا يقولون شيئاً مفهوماً.
 - الشعر العالمي تفوق بمراحل على شعر الفصحى.
 - تجربة تحطيم التفعيلة.
 - «أدونيس» فعل بالشعر ما فعله «إليوت».

- الناس تخاف الشعر.
 - الشعر يخاف الناس.
 - قصور الثقافة تدمر الشعر.

النسوة يرحن ويجهن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».
 * * *

- فلتناوش أزمة الأغنية.
 - لقد مات عبد الوهاب لو لاحظتم هذا.
 - البعض يحاول أن يتميز.

- الشباب هو الذي يحدد الأغنية. وهذا يعني أنه هو القوة الأعظم.
 - هذه أزمة كلمات.

أقسم عصام لنفسه أن صديقه يشعر بشهوة بالغة لدى تخيل المشهد. فقط يتظاهر بالرفض وهو يتمنى لو كان بين هؤلاء الضباط. الحكومة تصفع المواطن وتسرقه وتمتص دمه.. فلماذا لا يجد صاحبه بين مثالبها سوى «إنهم يعرون النساء»؟ لكنه لا يجسر بالطبع على مصارحته بهذا الرأي.. سوف يقول مراد له إن المرأة معناها الشرف، والشرف أهم شيء لدى الإنسان... إلخ.

ابتسم في سره.. الحقيقة أنه لم يلق قط من يتعامل مع الجنس بشكل متعادل أو ناضج. هناك من يفرط في الاهتمام به.. وهناك من يفرط في نبله، حتى لتدرك أنه يحلم بالجنس ليل نهار.. لا يوجد شخص متعادل.

النسوة يرحن ويجشن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكل أنجلو».

* * *

في هذا الجو لم يجسر عصام على أن يتلو على الناس سطوراً من روايته القادمة «دحديرة الشناوي».. كان يمقت هذه العناوين التي توحى بأن المكان هو البطل، ويرى أن نجيب محفوظ فاز بلقب ملك تلك العناوين، فأتعجب من يأتي بعده. لكن كيف يمكن الكلام عن «دحديرة الشناوي» من دون أن تتكلم عن «دحديرة الشناوي»؟ في هذا النوع من القصص يكون العمل شبه هندسي. صفت «دحديرة الشناوي».. صفت الشخصيات.. تقريراً تكون قد انتهيت. كان قد بدأ في كتابة الرواية وبدت له معقوله.. أقرب إلى

- هناك ثورة قادمة... لا شك في هذا.. الغليان في كل مكان. كان عصام يؤمن بهذا.. لو تحمل المواطن المصري هذه الذروة فلسوف يتحمل أي شيء بعد ذلك.. تلك الأعوام هي الاختبار الأقسى لأعصابه، فإذا اجتازه بنجاح - في نظر الحكم - فهم في أمان إلى الأبد.. يمكنك أن تصفع خادمك يومياً ويبتلع الإهانة، لكن اقتحام بيته والنيل من أمراته أمر يحتاج إلى تفكير طويل.. فإذا فعلت ذلك وضمت فمعناه أنك سعيد الحظ، وأنه لا خوف عليك أبداً الدهر. كان مراد نحيلًا فارع الطول يطلق الدخان من منخريه، حتى ليذكرك بالأفعوان في أسطورة قديمة.. ثم أضاف:

- اليوم قام رجال الأمن بمهاجمة مظاهرة للصحفيات.. لقد مزقوا ثياب الصحفيات وعروهن.

ثم أطلق المزيد من الدخان وقال:

- يقوم رجال الشرطة بالتحقيق بطريقة تحطم الأعصاب.. إنهم يأتون بالمرأة ويرجرونها.. ثم يربطون يديها خلف ظهرها و... هنا لاحظ عصام عيني مراد.. كانتا تلمعان وكأنهما اكتستا بجفن رامش شفاف كعيون التماسيخ. وبدأ خيط رفيع من اللعاب يسيل على جانب فمه.. كانت يده ترتجف بلفافة التبغ:

- يهددون زوجها بأن يغتصبها أمامه.. ربما نهض الضابط كي يمسك بـ....

فيها من النوم داخل الكابوس لتجد كابوساً آخر.. كوابيس متداخلة.
 قالت زوجته وهي بين النوم واليقظة:
 - لا تنس أن تتشاجر مع زوج المرأة عطيات.
 لماذا؟ لا يعرف السبب.. هي ت يريد دعماً بأي شكل.. الغلُّ والضيق
 والحرمان.. كل هذا كالبركان ولا بد للبركان من خروج أيخرته بأي شكل.
 يلبس ثيابه ثم يغادر الشقة الضيقة.
 سوف يصحو من نومه.. سوف يصحو بلا شك.. ولن يكون هناك
 سلم مهشم للدرجات، متفسخ، كريه الرائحة، ولن يكون هناك دجاج
 نحت كل خطوة من خطواته، ولا بركة مغاربي.
 على بعد خطوات من البيت فوجئ بشاب نحيل بندبة طويلة على
 خده يستوقفه.. هذا الطراز من الفتية يفضل البذلة الجينز وله رددان
 ضيقان ويلبس شبشبًا له إصبع واحدة... كلهم يأتون من ذات المكان.
 بالطبع هذا كابوس لهذا من السهل أن يعرف الفتى.. هذا حمادة
 أخوه زوجته في الكابوس.

- هيمة.

- حمادة.

فارق السن لا يسمح بأن ينادي «هيمة».. لكن الفتى يبدو شرساً..
 كل غابات اللغة من حقه.. يبرطع فيها كما يشاء.

المقدونس. لا بأس به ومنظره جميل.. لكن لا أهمية له، ولا مشكلة
 لو لم يكن قد وجد في العالم أصلاً. لن يفتقد أحد المقدونس أبداً.
 فقط عندما حدث ما حدث مع عفاف.. قصة الانتحار أمام القطار..
 عندئذ فقط أدرك أن بوسعه أن يكتب رواية ممتعة.. يمكن أن تكون
 أكثر أهمية من المقدونس.. ربما تصير كالسبانخ.
 وكان قد تعلم ما يكفي كي يقاوم شهوة كتابة رواية ممتعة.. إنه
 أنضج من ذلك بمراحل.. سوف يكتبها أولاً ثم يحاول جعلها مملاً
 معقدة مرهقة. هذا هو الضمان الوحيد لنجاحها.
 هكذا بدأت الصفحات تولد...
 لقد كتب حتى هذه اللحظة سبعين صفحة، سوف تكون مائتين
 عندما تطبع.. لقد كبر المولود وصار موجوداً وله وزن وحجم..
 سيكون من الصعب جداً أن تتدبره وتبدأ من جديد.
 لكنه ما زال بحاجة إلى الفهم والاقتراب أكثر من قلب السر..
 قلب الدحديرة.

* * *

في هذا الوقت بالضبط فتح إبراهيم عينيه.
 كان يشعر بوهن شديد مع ذلك الألم في خصره.
 نفس الغرفة الضيقة ونفس الفيل النائم جواره والرائحة الكريهة.
 كان قد اعتاد هذا على كل حال. الكوابيس المعقدة التي تصحو

توتر حمادة وأطلق صوّتاً حلقياً:
- خ خ.. ميدو.. ماذا حدث؟
- خناقة.

هناك دائمًا من أهان كرامتهم أو أهانوا هم كرامته.. القبلية هي اسم اللعبة، وهم يتصرفون كما كانت قبائل العرب تفعل في الجاهلية:

شعت مفارقنا تغلي مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا
طارت سنجة في الهواء ل تستقر في قبضة حمادة، وسرعان ما كان الجمع الغاضب ينطلق لضرب مجموعة ما في مكان ما.. أطحنة كثيرة سوف تنزف اليوم.. أكثر من ارتشاح دموي في الرتدين وأكثر من أنف سيطير.

بعد ربع ثانية كان حمادة قد رحل وهو لا يكف عن الشخير.. سوف نربى أولاداً... لم يكن قد عرف موضوع المثاجرة ولا من سيضرب من.. إنه غاضب دوماً وفي أي لحظة.. لا يحتاج إلى «الأدرينالين»، ولو دنا منه «الأدرينالين» لمزرق بطيء بالسنجة.

ووجد هيبة نفسه وحيداً في الشارع.

قال لنفسه إن الأمور ليست بهذا السوء.. إخوة زوجته في عالم الواقع لا يجولون في السوق حاملين السنج، ولو آذها أو ضربها يشقون بطنها.. الأمور ليست بهذا السوء في الواقع.

في عالم الواقع يعمل أخوه زوجته عميداً في الجمرك، وهو يتسلى

ينظر الفتى إليه.. صوته مبحوح طبعاً لأنه أمضى الليل في الغناء، يعمل في واحدة من تلك الفرق اللعينة التي تزف العريس والعروس.. ينشدون أغاني لا يمكن فهمها، ثم يقضون باقي الليل في إنفاق ما كسبوه على البانجو والبرشم.. ويعود كل منهم إلى بيته لينام كالقتيل حتى العصر ليبدأ من جديد.

قال له حمادة وهو يواصل التأمل:

- هل عينك صفراء؟

هز إبراهيم رأسه.. أخيراً لاحظ أحدهم هذا:

- أنا مريض كبد.. ألم أقل هذا؟

لم يعلق حمادة كأنه نسي أنه وجّه هذا السؤال.. هو بالفعل نسي.. في هذه المرحلة صار خبر أن إبراهيم زوج اخته مصاب بمرض في الكبد معلومة بلا قيمة ولم يطلبها أحد.

- لماذا لا تزورنا عند شيخة؟ إنهم يسألون عنك.

- أعدك بأن آتي.. الحياة مشاغل.

هنا ظهرت تلك المجموعة من الفتية.. اثنان يحملان الجنائز وواحد يجر كلباً شرساً.. نوعه «الراعي الألماني»، لكنهم يصررون على أن نوعه «ويلف».. هكذا ينطقونها.. كان هناك اثنان يمشيان بجذع عار ويحملان السنج.. لسبب ما يفضل هؤلاء الشجار بالسنجة وهم عراة الجذع. ربما لتسهيل مهمة من يريد تمزيقهم.

لكنه لم يصارح الفتى بهذا، بل بدأ يضيق خلقاً به، فراح يقول له
طريقة أقرب للصراخ:

- اخرس.. ألسنت رجالاً؟

قلنا إنه ضيق الخلق على كل حال. ثم بدأ بالتفكير العملي:

- هل جلبت من يقوم بالغسل والتكتفين؟

- نعم. من الجمعية الشرعية.

- وأين هو؟

- يقوم بالغسل الآن.

- وأنت لست معه؟!

واشتعلت عيناه غضباً.. فقال علاء وهو يشعل لفافة تبغ:

- خالي معه.. لم أتحمل المشهد.

نهض مصطفى مسرعاً وشق طريقه وسط صالة ضيقة كريهة
الرائحة، وامرأة أو اثنان تلبسان الأسود وتحمل واحدة منها قزانًا
على رأسها.

فتح الباب ودخل حيث كان الشيخ العاري ممدداً على لوح الغسل
الخسيبي العملاق، وقد أقى جواره الشيخ المكلف بالغسل، وكانت
رائحة عطرية نملاً جو الغرفة.. وكان هناك رجلان يناؤلانه الماء في
كيزان صدئة.

أحياناً يلعب الجولف.. لا يمارس أي رياضة قتالية على كل حال.. إن
أخاه زوجته وديع ملائكي، وإن كان غامضاً.. هناك أشياء يخفيها عنه.
هو سيعرف.

أما الآن فعلية أن يلحق بالميكروباص ويذهب إلى الورشة..
عندما تحلم عليك الالتزام بالحلم حتى النهاية.

* * *

ارتمنى علاء أبو فرحة باكيًا بين ذراعي مصطفى المزين.

راح يهتز، ولؤث بدموعه خدي الرجل المسن.. شم مصطفى
رائحة هي مزيج من البيرة والتبغ والمخلات وربما البول كذلك.
- البقية في حياتك.. إنت راجل.

وساعد الفتى على الجلوس فوق مقعد من المقاعد الخشبية
الرخيصة التي تناشرت أمام باب البيت، وقد بدأ بعض المعزين
يصلون.. واشتعلت السجائر وفاحت رائحة التبغ. ومن مكان ما
دوى صوت قراءة للقرآن.. يبدو أن هناك من قام بفتح التلفزيون
على إحدى الفضائيات، ورفع الصوت جداً.

راح الفتى يهتز بينما مصطفى ينظر إليه بدهشة.

الشيخ - أبو الفتى علاء - يموت بالفشل الكلوي منذ عامين، فما
هي المفاجأة في أن يموت اليوم؟ وما الغريب لهذا الحد؟ لا بد أن
يموت يوماً ما على كل حال.

- الماء بارد عليه.. أخذه قليلا.

وهي طريقة المصريين المعتادة في افتراض أن المتوفى يتضايق من الحر والقفر مثلنا بالضيـط.

كان مصطفى يعشـق هذه اللحظـات.. كان يحب كل ما يتعلـق بالموت والأكـفـان والمقـابر، ويشـعر باستمتـاع رهـيب.. تقرـيباً لم يغـوـت أي جـنـازـة أو غـسل متـوفـ في المـنـطـقة منـذ صـار واعـياً يدرـك معـنى الموـتـ، لكنـه أدرـك أنـ كل يوم يمر يجعلـه أكثر عـشـقاً للمـوتـ وطـقوـسـهـ.

لم يكن محلـلاً نـفـسيـاً، وكان يعتقدـ أنـ هذا جـهـدـ طـيبـ يجلـبـ لهـ الثـوابـ. وهو على الأرجـحـ كذلكـ. لكنـهـ كانـ يدرـكـ بشـكـلـ خـفـيـ أنـ هـذـهـ طـرـيقـتـهـ الخـاصـةـ لـلـانتـصـارـ عـلـىـ الموـتـ.. ليـشـعـرـ بـالـتفـوقـ بـأـنـهـ ماـ زـالـ حـيـاً.. يـذـكـرـ نـفـسـهـ طـيلـةـ الـوقـتـ بـأـنـهـ حـيـ وـأـنـ الـآـخـرـ مـيـتـ.. سـوـفـ يـعـودـ لـصـالـوـنـ الـحـلـاقـةـ وـيـتـنـاـولـ الـغـدـاءـ، بـيـنـماـ سـيـنـزـلـ هـذـاـ الـآـخـرـ التـعـسـ إـلـىـ أـعـمـاقـ الـأـرـضـ وـتـخـضـرـ بـطـنـهـ وـتـنـفـخـ ثـمـ تـلـتـهـمـهـ الـدـيـدـانـ.

لم يـأـكـلـ الـغـدـاءـ بـشـهـيـةـ قـطـ مـثـلـمـاـ فـعـلـ وـهـوـ عـائـدـ مـنـ الـمـدـافـنـ.

لم يستـنشـقـ الـهـوـاءـ باـسـتـمـتـاعـ قـطـ كـمـاـ يـسـتـشـقـهـ بـعـدـ غـبـارـ الـمـقـابرـ. لم يـشـعـرـ بـتـعـبـ لـذـيـذـ يـدـغـدـغـ عـضـلـاتـهـ كـمـاـ يـشـعـرـ عـنـدـمـاـ يـفـرـغـ مـنـ حـفـرـ قـبـرـ.

لا بدـ أنـ يـقـومـ بـدـخـولـ الـقـبـرـ، وـلـاـ بـدـ أنـ يـتـعـاوـنـ مـعـ الـلـحـادـ عـلـىـ إـرـاحـةـ الـجـسـدـ فـيـ مـكـانـهـ، ثـمـ يـخـرـجـ وـهـوـ يـسـعـلـ وـيـنـفـضـ الـغـبـارـ عـنـ

يـديـهـ وـيـسـاعـدـ فـيـ إـغـلاقـ الـفـتـحةـ بـالـأـسـمـتـ مـعـ الـرـمـلـ.. رـائـحةـ الـرـمـلـ
الـمـبـلـلـ وـالـقـصـعـةـ وـدـلـوـ الـمـاءـ.

لا بدـ أنـ يـقـفـ مـعـ الـمـعـزـينـ وـيـوـجـهـ لـكـمـةـ قـوـيـةـ لـابـنـ الـمـتـوفـيـ لـأـنـهـ
يـرـيدـ الـوـقـوفـ جـوـارـ الـقـبـرـ:
ـ لاـ تـقـفـ هـنـاـ.. لـاـ تـكـنـ طـفـلـاـ.. الـرـجـالـ يـتـظـرـونـ.. اللـهـ!
يـقـولـهـاـ بـعـصـبـيـتـهـ الـمـعـتـادـةـ وـقـدـ بـرـزـتـ أـورـدـةـ عـنـقـهـ وـتـطـاـيرـ الـلـعـابـ
مـنـ فـمـهـ وـرـاحـتـ يـدـهـ تـرـجـفـ.

ثـمـ بـعـدـ هـذـاـ هوـ يـسـتـمـتـعـ جـدـاـ بـالـجـلوـسـ فـيـ الـعـزـاءـ، وـخـصـوصـاـ لـوـ
كـانـ هـنـاكـ مـقـرـئـ.. أـعـذـبـ أـوـقـاتـ تـسـمـعـ فـيـهاـ التـلاـوةـ هـيـ عـنـدـمـاـ تـكـونـ
هـنـاكـ وـفـاةـ، وـعـنـدـمـاـ يـضـعـ الـمـقـرـئـ فـيـ صـوـتـهـ كـلـ شـجـنـ يـقـدـرـ عـلـيـهـ..
يـصـغـيـ وـيـمـصـمـصـ شـفـتـيـهـ وـيـتـصـعـبـ فـيـ اـنـتـشـاءـ حـقـيـقـيـ كـامـلـ.

أـمـاـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـمـقـابـرـ وـالـحـوشـ وـالـنبـاتـاتـ الـتـيـ تـزـرـعـ جـوـارـ
الـقـبـرـ، وـقـطـعـةـ الـرـخـامـ الـمـزـخـرـفـةـ الـتـيـ سـتـكـونـ شـاهـدـ قـبـرـ.. فـهـذـاـ مـوـضـوعـ
غـاـيـةـ فـيـ الـإـمـتـاعـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـ.. وـكـانـ مـهـتـهـ كـحـلـاقـ تـسـيـعـ لـهـ سـمـاعـ
الـكـثـيرـ مـنـهـ.

سـمـعـواـ جـلـبةـ خـلـفـ الـمـقـابـرـ مـعـ نـبـاحـ كـلـبـ. لـمـ يـهـتـمـ كـثـيرـاـ، لـكـنـ أـحـدـ
الـواـقـفـيـنـ قـالـ: إـنـهـاـ خـنـاقـةـ بـيـنـ الشـيـابـ خـلـفـ الـمـقـابـرـ.. شـلـةـ مـيـدـوـ تـشـاـجـرـ
مـعـ شـلـةـ عـبـاسـ.. يـيـدوـ أـحـدـهـمـ عـاـكـسـ أـخـتـ حـسـنـ.. هـنـاكـ كـلـبـةـ
شـرـمـةـ وـهـنـاكـ مـشـاجـرـةـ بـالـسـنـجـ. سـمـعـواـ صـوـتاـ غـلـيـظـاـ يـأـمـرـ الـعـصـابـيـنـ
بـالـرـحـيلـ وـالـشـجـارـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ.. تـهـامـسـ الـبعـضـ:

- حماصة.. حماصه!

مستحيل أن يكون هذا صوت حماصه.. لقد كف حماصه عن الظهور منذ زمن، لكن لو لم يكن هو فكيف ابتعد الفتية صاغرين؟ اعتاد مصطفى أن يجلس في العزاء في رقم الناس من حوله. كلهم صامت مكفر يصغي إلى التلاوة ويتصعب.. هنا يتخيّل هذه الوجوه مكفنة جمِيعاً وقد ربطت الفكوك بالضمادات.. «تلليم».. هذا هو الوصف الدقيق.

هذا الولع الجنوني بالموت كان يسعده.. لكنه كذلك كان يشعره بأنه رجل شفاف طيب.. وقد اشتري لنفسه كفناً منذ زمن وراح يتحسسه من حين إلى آخر في وجهه وشغف.. لسبب ما كان يعتبر هذا طقساً إيمانياً.

كان علاء يبكي بلا توقف وهو جالس على ذلك المقعد الخشبي المتداعي في الخلاء.

يحاول تذكر كلمات أبيه وصوته وسعاله.. المسكين لم يكن يتبول.. بدا له هذا قاسياً جداً.. التبول هو متعة الحياة الكبرى. كانت الوفاة تعني أن علاء قد تخلص من طن من الهموم والمسؤوليات، لكنه كذلك سوف يفتقد الشيخ فعلاً. شعر بأن الحاجة إلى البيرة توشك على تمزيقه.. لا يستطيع أن يصبر حتى الليل وسط هذا الحصار.

بعد قليل جاء ذلك الرجل الغامض الذي يقول إن اسمه عصام..

صافحه في حرارة معزياً ثم جلس متظاهراً بالحزن.. رجل غريب جداً..

جاء حسين عبد الرحمن ليصافحه ويلشم خده ثم جلس جواره.. بعد قليل ظهر عباس الدلجموني وجلس على مقعد قريب. لا يعرف لماذا توثر الفتى حسين قليلاً، ثم نهض ليجلس جوار عباس ويتبادلاً حديثاً هاماً.. من الواضح أن عباس يؤكد أن الشيء ليس معه.. ما هو الشيء؟ هل الفتى يتعاطى المخدرات؟

من بعيد مررت تلك الفتاة الفارعة الرشيقه التي يراها من وقت إلى آخر. يُعرف أنها تعمل في محل طُرُح في شارع النوساني. مغرية جداً ولها جسم لا يوصف. لكن عليه أن يتماسك وإلا تفلت منه نظرة تفسد جلال مأتم أبيه.

- وحْدوه!

قالها وهو يطرق للأرض ثم أخرج علبة السجائر، وهزها بحيث برزت منها سيجارة كأنها مسدس، ثم نهض يدور بين صفوف المعزين وقد رسم على وجهه لمسة خطورة واستغراق كأنه يهددهم بهذا المسدس، أو كأنه يقوم بمهمة خطيرة جداً. وكان يفكّر في ثلاثة أشياء الآن: التبول والبيرة ومؤخرة الفتاة.

قام عبد الظاهر بوضع الطبقة الجديدة من الدهان.. ورج العلبة مرتين
ليتأكد من أنها صارت فارغة وأنه اعتصر آخر قطرات بها.. فس س س!
ثم راح يتأمل ما قام به في رضا.. لون أسود لامع جميل.

* * *

كان عباس واقفاً عند عربة الفول، وهو يهشم بصلة بقبضة يده..
تناول رغيفين حكهما بعضهما مع بعض ليُسقط الردة، ثم راح يلتئم
من طبقه المعدني بلقيمات عملاقة.

١٠

الدجاجة محقونة بالماء.

شعر بأن هناك من يراقبه فاستدار للخلف. لقد نسي موضوع
المخبرين هذا منذ زمن.. نسي أن من يبيع المخدرات يلفت النظر،
ويكون رجال من الحكومة مكلفين بمراقبته.. لقد انعقدت بينه وبين
هؤلاء القوم صداقة يصعب أن تفسخ.

لن تناول الثقة.

لكنه لما نظر إلى الخلف وجد ذلك الفتى، حسين، قبل أن يقول
شيئاً اتجه الفتى ليقف جواره ويطلب طبقاً من الفول. وضع حقيقته
التي لا يبيع منها شيئاً بين ساقيه وانحنى يلتئم الفول في شغف.

لا عمولة لدى شركة الإعلانات.

- هل تذكرتني؟

فاتورة الكهرباء مغلوطة.

مضغ عباس ما كان في فمه، ثم ألقى بقطعة بصل وقال:
- صعب.

عداد المياه لا يعمل ومع هذا تدفع لهم مبالغ باهظة.

لم تبع شيئاً وما بعثه لم تحصل على عمولتك عنه.

المواصلات على حسابك.

الكسافات الصينية تالفه كلها.

شركة الأمن لم تقبلك.

تعرف ما ستفعله.. سوف تقتل...

لم يكن يتكلم عن التذكرة، بل يتكلم عن السلاح. وتناول الكوز
المعدني المليء بالماء فجرع عدة جرعات.

* * *

- هل لا بد أن يراك رجال الشرطة؟

لم يُرِدْ حسين أن يخبره بخطته.. لو أخبره بها لأحجم. يريد قتل المحافظ أو رئيس الحي أو... أو... هذا سيخيف الرجل. الفكرة هنا أن احتمال أن ينشب قتال مع الحراسة أمر وارد جدًا.

- السلاح سوف يُكلِّفك.. كثيراً...

- سوف أدفع ما تريده.

ثم أضاف حسين وهو يلتهم لقمة أخرى:

- أريد كذلك أن تعلمني استخدامه.

- ما شاء الله.. سوف تورطنا في قضية إرهاب كذلك.

- سوف أدفع ثمن كل شيء.

نظر إليه عباس في شك محاولاً فهم حقيقته.. ثم قرر أن يجرّب حظه...

* * *

من جديد وقف عصام أمام الجدار.

لقد اكتسب قيمة جنائزية ومعنوية مخيفة مع الوقت، خصوصاً كلما تذكر أنها آخر كلمة خطتها الفتاة... نفس القيمة المعنوية لأحد جدران معبد الكرنك أو حائط تلطخ بالدم بعد مذبحة القلعة.. بالنسبة إليه على الأقل.. بل هذا الجدار أكثر طرافـة.

- أي صعوبة؟ بالتأكيد حماسة عنده.

- سوف يُكُلِّفك.. لاحظ أنك أبله وسوف تقع في يد الحكومة، وسوف يكون أول ما تقول هو أنك حصلت على السلاح مني.

- لن أتكلم.

- كلهم يقول هذا حتى يتلقوا أول صفعـة أو يعلقوهم على العروسة.

- لن أعيش حتى يقبضوا عليـ.

- كلهم يقول هذا الكثـم لا يموتون.

قال حسين كالحالـ:

- سوف تكون جريمة عنيفة جداً صادمة جداً.. سوف يفرغ في رجال الشرطة طلقات مسدساتهم في مزيج من الصدمة والخوف والغل، ثم بعد هذا سوف يلتلون حولي ويركلونني حتى أموت، ولسوف يتهشم وجهـي.

- أنت إذن تتصرـ يا صاحبي.. فلماذا لا تشبـ في النيل وكفى الله المؤمنين...؟

- لن أموت من دون أن أصـحب أحد الكلاب معـي.. وبعدها لن يعرفـوا من أين جاءـ السلاح... ثـق يا صاحبي أنه مـا لم توجـد علامـة على السلاح فلن يقدـروا على شيءـ.

مسح عباس فمه ونظرـ إليه في دهـشـة:

في الكافتييريا رصت بعض مقاعد ومناضد بالخارج، وكوب الماء الذي التفت فيه منشفة ورقية، يحاول جاهدًا أن يبقى الشرشف في موضعه فلا يطير مع الأنسام.

يضع عصام ساقاً على ساق ويسحب نفساً آخر من الشيشة. صوت الفرقرة.. الرائحة العطرة.. الوهج.

السرنجة.. ربما هي السرنجة.. لكن لا بد أن يعرف علاقتها بالقصة.

يحب تلك اللحظة التي يمسك فيها بالمبسم في حنكة متظاهراً بأنه خبر العالم ومحنك في كل شيء. لم يعد قادرًا على عمل هذا بضمير مستريح لأنَّه قرأ «فرويد» ويعرف ما قد يقوله عن هذا المشهد بدلاته القضية.. ربما هو يعوض إحساسه بالنقص والتذلل بهذا الشكل.. لا يدرِّي حقًا.

ضيق من عينيه وهو يراقب حلقات الدخان.

سمع الصوت:

ـ معك كبريت يا باشمهندس؟

رفع عينيه بحذر فرآها تتجه لأحد مدحني الشيشة الآخرين.. نوال كالعادة. رجل الشيشة الآخر يمسك بقطعة فحم بأنامله ويشعل بها سيجارتها.. تُقرب طرف اللقافة من دون أن تبعد عينيها عنه، ثم تدور كلمات هامسة.. هذا رزقها هذه الليلة.

بالتأكيد لا يوجد نقش واحد على جدران الكرنك حفره صاحبه قبل أن يتتحرر أمام قطار.

آخر حرف سين كتبته.. لو كان هذا حرف سين حقاً.

آخر حرف نون كتبته.. لو كان هذا حرف نون حقاً.

آخر حرف جيم كتبته.. لو كان هذا حرف جيم حقاً.

آخر حرف تاء مربوطة كتبته.. لو كان هذا حرف تاء مربوطة حقاً.

سين كما في سماء.. كما في سجن.. كما في سلوى.. كما في سحاب.. كما في سراب.

نون كما في نهر.. كما في نشوة.. كما في نرجس... كما في نوة.

جيم كما في جزيرة.. كما في جدول.. كما في جندول.. كما في جمرات.

تاء مربوطة كما في حرية.. كما في حقيقة.. كما في فتاة.

ولكن.. هل هذه هي الحروف حقاً؟ ما زال يتساءل إن كانت الكلمة هي «السرنجة» أم «السيجارة».. وكان الفتاة حرست على أن تجعل الكلمة لغزاً.. لم تُرد أن تكشف عن أسرار ذاتها أكثر.

ارت杰ف.. وللحظة خطر له أن الكلمة المكتوبة هي «السرنجة».

لكن لا.. لا معنى لهذه اللحظة أبداً.. ماذا تعرفه عفاف عن السرنجة؟

* * *

السفر.. مصايب يكفي أن تلقيها على الأرض لتضيء.. ما كينات حلاقة صينية تميز بأنها لا تحلق أبداً.. ولو لمرة واحدة.. بطاريات جافة انتهت زمن صلاحيتها.. أقلام ليس فيها نقطة من الحبر.. ثم عرض العطور.. ثلات زجاجات بعشرين جنيها.. يا بلاش؟ أما زلت متربدة؟ إذن أربع زجاجات.. لا يمكن التخفيض أكثر من هذا.. خمس زجاجات ومعها المسبيحة هدية مني لك.. هذا نصر مبين.. سوف ترتجف زوجتك بالنشوة عندما تكتشف كم أنت بارع رائع.

- أنا مطلق.

- إذن سوف تعثر على زوجتك القادمة بهذا العطر.

لا يعرف لماذا ولا متى أخرج عشرين جنيهاً من جيئه، لسبب ما شعر بأنه يريد أن يُنصب عليه، هذا الفتى يستحق ما هو أفضل.. من حقه أن يجد من يخدعه.. أنا هو ذلك الأحمق...
هزَّ الفتى رأسه محياً وعاد يكرر عروضه فأوقفه عصام بإشارة من يده وهو يمتتص الدخان.

هكذا حمل حاجياته وانصرف.

مد عصام يده إلى زجاجة عطر.. «ديكورابان».. طبعاً.. الاسم التقليد وبالطبع لا بد من أن تكون.. فس سس! بالفعل، هذا ماء فراح بلا ذرة عطر فيه.. بلا مبالغة هو أنقى ماء يمكن أن تجده هذه الأيام.. يجب أن يصدّروه إلى الدول التي تعاني الجفاف.

كان عصام يتساءل في دهشة عما يجذب هؤلاء القوم لها؟ لا يعرفون أنها تصاب بالإسهال وتقيء على البساط؟ شيء مقرز سوف يظل يذكره ما عاش.. لكنها بائسته.. بائسته..

الدعارة - خطط له - نشاط بشري شديد التخلف.. أن يقف الجائع ممسكاً بسكين ويقطع قطعاً من جسده يزنها لك ويتناقضى ثمنها.. هذا تقريراً ما يحدث هنا.

استدار حتى لا يراها.. هنا وجد نفسه يحملق في عيني حسين عبد الرحمن.. الشاب الأسمير النحيل لكنه مفتول العضلات، ذي الشعر الأكتر المجمع الذي يأبى أن ينام بأي ثمن.. يبدو مثلاً لبيت شعر يقول: حتى كأني حائط كتب عليه هاهنا أيها المزنوق طرطر يعرف هذا الفتى من عدة أماكن.. إنه يحمل تلك الحقيقة، يدور بها على المقهى محاولاً خداع أحد، النشاط الذي صار سمة للشباب في عصر مبارك:

- سعادتك أنا أحمل هنا بعض العروض من الصين.. هل تسمع بأن أريها لك؟

هزَّ رأسه أن لا.. وكان هذا كافياً كي يفتح الشاب الحقيقة ويُخرج مجموعة من الاختراعات العجيبة: مسبحة تضيء في الظلام.. آلة الخياطة الشبيهة بالدباسة.. صغيرة جداً وترى حلك في

أنهى الشيشة ثم نهض تاركاً الزجاجات الخمس لصاحب النصيب،
ودس المسبحنة في جيبه.

السرنجة... ماذا عن السرنجة؟

* * *

«الولد سيموت».

قالها عباس وهو يستدرأس الفتى الذي جلس جواره في التوك توك.
كان الفتى بليل ابن أم بليل ينظر إلى العالم بعينين زجاجيتين بينما مارأه
حرسائب.. كأنه فصل بسكين عن عنقه.. بالطبع افترضت المطبات
أن رأسه كرة قدم وراحت تلهوه.

هذه مشكلة «الترامادول» المغشوش. أحياناً لا يتحمله الناس،
وهو كان قد قدم إلى الفتى شريطاً ثم أشعل له سيجارة محشوة..
يبدو أن الفتى لا يتعاطى سوى البانجو فعلاً.. قالها له ولم يصدق.

هرب صلاح إلى التوك توك حاملاً علبة من الكشري وملعقة.

- أجعله يأكل.. الأكل سوف يطرد السم.

ثم أخرج كيساً من اللبن، وناوله لعباس:

- أجعله يشرب هذا الكيس بالكامل.

آخر جا الفتى من التوك توك وأسنداه إلى شجرة عجوز قريبة،
جوارها زير ماء. أسندا رأسه إلى الجذع وراح عباس يدس ملاعق
الكشري بين شفتيه وهو يردد:

- كُل.. كُل.. سيطرد السم.

بينما بليل يردد بصوت مبحوح كلمة ما:

- شطة.. شطة...

يريد شطة على الكشري! أصغى عباس إلى الكلام ثم شتمه
بصوت عالي.. هل تستمتع بالطعم يا ابن الكلب؟ هل هذا وقته؟
هل هذا مزاج؟ هذا علاج يا حيلتها.. علاج لهذه المصيبة التي في
داخلك.

الحقيقة أنه بليل كان يراقب شخصاً يشبهه ويحمل اسمه.. يراه
من الخارج ويصدر إليه التعليمات.. حرك رأسك.. افتح فمك..
كُل.. افتح عينيك.

هنا مال رأس بليل وتقيناً بعنف وقوة.. بينما عباس يديه استحسانه..
جدع.. هذه علامة طيبة.

لقد أراد أن يرفه عن الفتى الذي مات عمّه، لكن من الواضح أن
الأسرة ستفقد اثنين من رجالها في وقت قصير.. وآخر شيء يريد
هو أن يقال إن الفتى مات بسبب جرعة أعطاها له عباس.. أم بليل
فضيحة متقللة أصلاً.. سوف تخبر الجميع وتثير بضاعته ولن يغفر
له حماصته ذلك. لو كان متفقاً لقال إن هذا مُضرٌ للبيزنس.. ألا لعنة
الله على «الترامادول» المغشوش.. تباً للصينيين.

نهض الفتى وهو يردد:

- بول.. مثانة... بول.

ثم أصدر التعليمات لجسده كي يدور حول الشجرة، وأستد رأسه لخشبها.. هيا تبول.. أمرك بأن تبول.. هكذا راح يفرغ المثانة.. يتبول بوفرة لفترة بدا أنها مستمرة إلى الأبد، الأمر الذي رأى صلاح أنه علامة طيبة.. كل شيء يخرج من جسد الفتى يغسل السم على كل حال.

عندما انتهى الفتى من التبول بعد ٤٣ سنة، كان قد تحسن جداً..
شعر بأنه تخلص من السم فعلاً...

عاد ليسقط جوار الشجرة فأجلسه عباس بالقوة وأرغمه على شرب كمية وافرة من كيس اللبن.. فتح عينيه قليلاً فقال صلاح:

- هل ترى؟ السم يخرج من دمه.. أشرب.. أشرب.
بالقوة أرغما ببلبل على شرب الكيس كله.. تجشا وأراح رأسه على الشجرة الحنون وراح في نعاس عميق.

- سوف يفيق بعد ثلاث ساعات...

صلاح يعرف كل شيء عن «الترامادول» المغشوش.. جلس القرصاء وأخرج لفافة تبغ وناول صاحبه أخرى وأشعلها. تصاعد الدخان بكثافة فأزال الروائح العضوية القوية من المكان.

- ربما كان من حُسن حظه لو مات.

- لماذا؟

لم يرد صلاح.
ثم تسأله وهو يتأمل وهج اللقاقة:
- هل تعرف أين يوجد حماصة اليوم؟

تلوك قطعة من اللادن.. تبدأ بهدوء ثم تتمرد عليها عضلاتها الماضعة..
تبدأ في إخراج الغل والتوتر فتفرقع بلا توقف.. كراك.. كراك.

صاحب المحل ليس هنا، وهو قد لامها أكثر من مرة على هذا
الصوت العالي، وقال لها إنها تحدث ضوضاء شبيهة بصوت صرصار
الغيط.

كانت تعرف أنه يشتتها جدًا.. لكنها لم تفهم لماذا يكرهها؟
هي لا تستطيع فهم هذه العلاقة المعقدة.. أن تكره إنسانًا لأنه يظهر
ضعفك أمام نفسك.

ساعة الغداء.

تنظر إلى مروة زميلتها وتقول:
- أنت من سيجلب الكشري من عوكل اليوم.

مروة ليست على ما يرام.. مروة مكتبة صمود.. مروة نحيلة
فيحة كأنها سحلية سقيمة. مروة تكره الحياة.. مروة ترفض الذهب
إلى عوكل.. مروة لن تجلب الكشري.

- لا أريد الغداء اليوم يا عفاف.

عفاف نهمة وتحب الطعام.. في هذه اللحظة من اليوم تشعر أن
من حقها أن تملأ معدتها قليلاً بعدما غابت الطعمية التي التهمتها
في الصباح. لطالما قال لها الشباب إنهم مندهشون لأن الطعمية
والكشري يتحولان في بطنها إلى هذا الجمال.. إنها تستخرج أعظم
آيات الأنوثة من طعام رخيص لا يستخرج منه الآخرون سوى غازات
بطن وكروش.

هذا هو الوقت الذي يتزايد فيه القيظ وتخلو الشوارع من المارة.
هنا فقط تنزع عفاف الشبشب وتجلس وراء الكاونتر في محل
الإشاربات.

هناك من يقول إنها تجلس على مقعد خالي عند الكواشير الذي
تعمل عنده.

هناك من يقول إنها تجلس وسط أقفاص الدجاج وتنظف يديها
من الدم الجاف.

هناك من يقول إنها تجلس خلف النول في المشغل.
وهناك من يقول إنها تدخل الحمام لتأخذ دشًا ينظفها من قذارة
الزناة تأهلاً للزبائن القادمين.. ثم تشعل سيجارة مرهقة...

هنا فقط تجلس عفاف.. تراقب العالم في شرود.

- ليه كفى الله الشر؟
لكنها تعرف.

هذه الحالات السوداء حول عيني الفتاة.. هذا اللون الشاحب
الكالح.

لم تصمم على السؤال أكثر.. نهضت.. دست قدمها في الشيش
وتناولت زجاجة الماء البلاستيكية. سوف تملؤها من السبيل الموجود
جوار المسجد. انحنت برأسها كي تمر بين الطرح المعلقة ذات الألوان
الزاهية الفاضحة.. يصعب أن توجد فتاة لا تضع ثلاثة إشاريات فوق
بعضها اليوم. الطرح التي تمثل الحجاب الحديث ذا التتر والذى
يدغدغ في الرجال ذكريات عصر الجواري. اتجهت وهي تجر قدميها
في الحر القائظ إلى محل الكشري الذي يقع على بعد عشرين متراً.
سس سس!

يدنو منها ذلك الرجل الغامض.
يتسم عصام لها.

بالطبع لا يدخل المحل عندها لأنها لن يتبع الطرح، لكنها تعرفه..
يلاحقها في كل مكان.. نظرات إعجاب لا شك فيها، وهو ليس
قبيحاً.. صحيح أنه متقدم في السن نوعاً لكنه وسيم ومستريح كما
هو واضح. هي فتاة ذكية لهذا تعرف جيداً أن عليها أن تفر منه فرارها
من الأسد.. فقيرة هي وتعرف هدفه بالضبط.. لا شيء فيه يحرك
أنوثتها.. لا شيء يمكن الحصول عليه مع أفندي كهذا. هو يريد أن

يعبث.. لا شك في هذا. وهي لا تزيد العبث ولو أرادته لوجدت من
هو أفضل منه.

يقف ليتاع علبة كشري وهو لا يفارقها بعينيه.

ترسم على وجهها ذلك التعبير المعتمد.. تعبير «لم - أتوقع - أن -
يكون - الأمر - بهذا - السوء» الذي يخلب عقل الرجال كما تعرف
وتطلب من عماد علبي كشري.. أنت تعرف طلبي.. تنظر من جديد
إلى هذا الأحمق المنبهر.

هلم يا أخي.. لو كنت أعجبك إلى هذا الحد فلتتكلم وتطلب
يدي.. هلم أبعدني عن محل الطرح وعن «دحديرة الشناوي» وكل
هذا الوحل.. لكنك تريد أن تتسلى فقط.. نفعه الوحيد هو الزواج..
لو لم يرد الزواج فلا لزوم له.. المشكلة أنه يريد أن يثبت لنفسه أنه
يمكن أن يكون فاتنا بلا زواج.. تلك مشكلتها مع الرجال.

تأخذ علبي الكشري في كيس مع ملعقتين من بلاستيك.. تطالب
بحقها في كيسين إضافيين من الشطة والصلصة.. تنظر إليه نظرة الأخيرة.
يظهر عصام بأنه لم يكن يلتهمها بعينيه منذ دقيقة.. يشب ليطلب
من البائع طبقاً من الكشري.. كالعادة في كل شيء في مصر هناك
العادة والسوبر والمخصوص.. وربما هناك الشبح كذلك.

تعود حاملة غنيمتها عبر الشارع الحار شبه الخالي من المارة..
ملات الزجاجة البلاستيكية من السبيل ثم اتجهت إلى المحل.

* * *

مرأة تجلس على مقعد خشبي متداعٍ هناك وتكتشف عن ساعدها..
ثم تخرج من حقيبتها محققاً وتناوله لصاحبتها.. ثم تشير إلى الوريد
الموجود عند ثانية الساعد.. وترتجف:

- هل تستطيعين أن تفرغي المحقق في الوريد؟ هذا ليس صعباً.

أمسكت عفاف بالسرنجة في يدها وتساءلت في شك:

- ما هذا؟

- دواء.. أنا مريضة.

- ولماذا لا تعطيه لنفسك؟

- يدي ترتجف.. لا أستطيع أن أحقن نفسي.. لا تهون عليّ.

التمتع علينا عفاف:

- سوف أنادي غادة من العيادة.. هي تجيد إعطاء الحقن.

- لا!

قالتها في حدة ثم هدأت قليلاً وعادت تكرر الطلب:

- أريد أن تفعلي ذلك أنت، فأننا لا أجرؤ ولا أريد غريباً في
الموضوع.. الوريد واضح وبارز. لو أدخلت السن قليلاً لصرت
داخله.. ليس هذا صعباً.

انحنىت عفاف تتأمل الوريد في ضوء المصباح الواهن.

بيد ترتجف غرست طرف الإبرة في الجلد من فوقه فسمعت

عبد الظاهر وضع طبقة أخرى من الدهان.. صار اللون الأسود
متجانساً.. فس س س! هكذا يكون العمل...

* * *

تشق عفاف طريقها وسط الطرح المعلقة ثم تتخذ مقعداً خشبياً
صغيراً جوار صاحبها مرأة:
- كلي.. كلي.

ليست الدورة الشهرية فهي تعرف مواعدها.. صاحبها ليست
على ما يرام فعلاً.

تسكب الصلصة على الكشري ثم تفتح بأسنانها كيس الشطة
وتسكب بعضها عليه، ثم تناول العلبة مع ملعقة بلاستيكية لصاحبها.
- كلي.. سأعد لك شيئاً.

مرأة تنظر إلى الطعام في قرف ثم تنهض.. تتجه إلى الحقيقة
الرخيصة التي تضعها على الكاونتر. تُخرج شيئاً.
- أريدك في المخزن الخلفي.

ثم تنهض.. هناك مخزن خلفي للمتجر. غرفة بحجم كشك سجائر
ضيق، تقع بالفتران، وفيها مصباح واهن يتذليل من السقف. لا توجد
دورة مياه، وإنما تقضيان حاجتهما في عيادة الأسنان القريبة. تلحق
بها عفاف في المخزن.

انتحار هو.. لكنها لا تزيد أن يتم بيدها حتى لا تذهب إلى جهنم..
تزيد أن تلقي بعفاف في نيران الجحيم لتفتدي نفسها.

وفي اللحظات التالية تكلمت مروة كثيراً.. لكن عفاف لم تهتم بما قيل.. بداعها مملاً مبتذلاً إلى حد لا يوصف.

تحيا بلا أمل.. وكل الناس بلا أمل.

هي قبيحة.. وأكثر الناس هم القُبح في صورته الأولى.

هي تحتاج إلى البيت والزوج.. كل الفتيات يحتجن إلى البيت والزوج.

لَا يَدْقُلُ الْبَابَ .. وَكَانَتِ الْفَتَنَاتِ بِلَا أَحَدٍ يَدْقُلُ الْبَابَ.

زوج أمها يتجرّش بها.. وكل الفتيات يتجرّش بهن أزواج أمها تهن.

هي انقطعت دورتها الشهرية.. كل الفتيات انقطعت دورتهن.

هي تعرف أن ما خافت منه حدث.. كل الناس يحدث لها ما تخافه
«والله، يخاف من عفريت يطلع له».

هي لا ترى الحياة.. ومهما يرى يد الحياة أصلًا؟

هي لا تزيد..... ومن هي أصلًا؟

اعتصرت عفاف ساعدتها الأعجف في غلٌ وهتفت:

- فلتذهب إلى الجحيم يا حبيبي .. فلاتخترق في جهنم . المهم

مرورة تشهق. رفعت عينيها لها فوجدت أنها تبكي.. تبكي بلا انقطاع..
مستحيل أن يكون في جسم الإنسان كل هذا القدر من الدموع.

عادت تولج الإبرة بقوه أكثر.

هنا خطر لها أن تنظر إلى المحقق.. إنه خال.. لا توجد فيه قطرة من أي سائل.. خال تماماً.

انتزعت الإبرة بحركة عصبية وهتفت:

- هذه السرنجة مليئة بالهواء! لا يوجد فيها شيء آخر.

لم تعلق مروءة.. تصاعد الدم لرأس عفاف.. إنها الخدعة إذن.

- تعتمدين على أنني بلا أي معرفة في الطب.. و كنت سأقتلك من دون أن أعرف.. تريدين الانتحار يمعونني يا بنت الكلب.

وألقت بالمحقق على الأرض ...

قالت مروة بصوت متحمّل:

- خالته .. خالتى ماتت بهذه الطريقة .. كان خطأ من المرضية.

- واحت الممضة في داهية.. الآن تدبر أن الحة بها.

هنا انفجرت مروءة في البكاء.. لم يكن ما غادر عينيها من قبل سوى قطرات من المحيط، أما الآن فهو الانفجار الحقيقي... كانت تمخط وتشهق ويسيل الماء من عينيها وفمهما وطاقة أنفها...

أريد أن أمو وووت!

ألا تجُرّي قدمي معك... وأنا كنت أعتبرك صديقتي!

سس سس!

هنا سمعت الحاج يتنحنح في الخارج.. لقد تناول الغداء في المطعم القريب. لا بد من سمك وسيط يوم الأربعاء.. عادته منذ عشرين عاماً.. لقد عاد وهو يبحث الآن عن الفتاتين.

خرجت من الغرفة الخلفية واتجهت في ثقة إلى المقهى الذي كانت تجلس عليه.

- أين مروة؟

قالت وهي تتناول علبة الكشري وتسكب الصلصة عليه:

- في المخزن... العادة... لا تستطيع الوقوف.

ابتسم الحاج في فهم وخيث.. كان يجد لذة صارخة في التدخل في هذه الأمور الأنثوية، بل كان يراهن نفسه على مواعيد الدورات الشهرية حسب انتفاح عيون البنات وذلك الدمل الصغير الذي يظهر ويختفي جوار فمهن. بينما راحت هي تقلب الشطة على الكشري.. لا بد أن يتتفع أحدهم بهذا الطعام مهما كانت الظروف.. الكشري الذي تحوله هي إلى سحر حلال ويحوله الآخرون إلى كروش وغازات بطن.

* * *

القطوط!

* * *

ولكن.. هل الكلمة المكتوبة هي «السرنجة» فعلاً؟

هل ظلت تحمل هذه الذكرى القاسية حتى لحظاتها الأخيرة؟ كأنها أرادت أن تقول إن القطار سيكون سرنجتها الخاصة الملائمة بالهوا.. السرنجة.. بالتأكيد هي السرنجة.. عصام كان أحمق عندما حسها تكلم عن «السيجـة» أو «الستـنة».

لا يفهم ما تقول لأنه أهل الفرنسيّة منذ دهور.

يستدير ليراها قادمة من هناك.. لذلّه أن يتخيّلها في ذهنه تمشي بالسرعة البطيئة كما في الأفلام السينمائية، وشعرها يتطاير خلفها،
يحب هذا المايوه الأسود جدًا.. يجعلها كالحوريات الخارجات
من بحار الفيروز، مع أنه لم ير واحدة منها من قبل.

حتى من هنا يرى العينين الزرقاويين الصافيتين.. كانت ناردين اختيارات موفقاً.. اختياراً ناجحاً.. صحيح أنه تخلى عن سامية من أجلها لكنه ليس نادماً.. الأجمل أن لها أخاً في الجمارك.. هزارجل لا يعرف قيمة الحقيقة.

تقرب أكثر فأكثر.

تحبني عليه وهي تعرف ما يريد بالذات.. يريد أن يلشم أربنة أنفها، وهي تريد أن يريد ذلك.

تنطبق شفتاه على الأربنة الدقيقة ثم تهبطان إلى الشفتين.. الشفتين اللتين لو ضغط عليهما أكثر لانفجرتا وأغرقتاه بالرحيق...

- يا شقي.

تقولها وهي تمرغ بالرحيق خده الأيمن.. تلشم كل حبة نمت بسبب العلاقة.. تلشم كل ندب.. كل تعجبٍ تركها زحف الأيام.

- يا شقي.

تعرف كيف تدغدغ رجولته بهذه الطريقة.. توحّي بأنها أثني منهارة

١٤٢

جلس إبراهيم أبو غصيبة على الشطّ يراقب البحر الصافي.

فقط هنا يمكنه أن يرى البحر أزرق كما خلقه الله. من وقت إلى آخر يزحف الموج الرغوي فوق الرمال البيضاء حتى يبلغ أصابع قدميه.. ثم ينحسر ببطء... يشعر بدغدغة لذيدة بين أصابعه، ويراقب الفقاقع الصغيرة التي تنفجر واحدة تلو أخرى.

يمسّك في يده بكون عصير البرتقال، يراقب طرف السيجارة المتوجه.. السيجارة الخامسة بلا لذة.. هواء البحر اللعين حتى كان البحر يسحب منه الأنفاس.

كان من الواجب أن يكون في نشوة حقيقة، لكنه لا يشعر بذلك. هناك ألف عمل يريد القيام به، وهو قلق على ما يحدث في المكتب.. قلق على الأسهم.. قلق من شاهين الخبيث.. لا يمكن أن ترتاح لوجود شاهين بحيث ترك له أعماله.

سمع صوت ناردين تترنّم بأغنية فرنسيّة ما.

١٤٢

أرى نفسي أعيش في منطقة عشوائية لم ترسمها أي خارطة..
وجوه كالحة ضمرت بالفقر والمقت وسوء التغذية والمخدرات..
حتى الهواء رخيص عتيق «مضروب».. هناك يمشي المرض في
الطرقات حاملاً سنجة وفي فمه لفافة تبغ محسنة، والويل لمن يجرؤ
على اعتراض سبيله.

ضحك في دلال وقالت شيئاً عن إفراطه في تدخين الحشيش ...
- الحشيش لا يقدر على خلق عالم معقد كهذا.

هناك زوجة بدينة كريهة الرايحة، وعيال مزعجون يتدلّى المخاط من أنوفهم.. هناك حمادة، وعصابات شوارع، وهناك عفاف التي تركت المبكر وبلاص وزققها القطار.

هناك غرفة ضيقة حارة رائحتها عرق وجوارب.. هناك تلفزيون صورته مهزوزة.. هناك المرض.. هناك شراء اللحم المجمد الذي تدرك من رائحته بوضوح أن صلاحيته انتهت.. لكنك تأكله لأنك تأكل جثة جارك، لأنها الطريقة الوحيدة كي تأكل اللحم مرتين في الأسبوع.

حَدَّثَهَا عَنْ هَذَا كُلِّهِ ...

ارتمنت جواره وانتشر شعرها على الوسادة وقالت:
ـ يا للهول! إنني أرتجف لتصور هذا.. ولكن من أدرك أن هذا
ليس هو الواقع؟ ربما أنت تخيل الآن... ربما أنا هي الحلم!

ضعيفة لا قبل لها بفحولته. هذا فن تجده بعض النساء، ومن يُجدنه منهن يسيطرن على أعمى الرجال بكل سهولة.. ابنة الحارة تقول «يا لهوي» والمدللة تقول «يا شقى».

ماء البحر يبعث من جديد بأصابع قدميه.

- تهمس في أذنه وهي تريح ردبها على ركبته اليمنى:
- أنت تعرف ما أريد.

یقوق بخیث:

- أنت تريدين هذا طيلة الوقت.

-يا شقى ! بل أنكِلَم عن شقة المقطم .. تعرَفُ أنتِ أريدها.

هذه طريقة تغيبه فعلاً. إنها نفعية ولا تخفي ذلك لحظة.. من الذكاء أن تنتظر قليلاً ثم تفتح هذا الموضوع. أما أن تبدأ به بهذه السرعة فهي بلهاء لا أكثر.

لشم أذنها وهو يمسك بيدها بين أنامله في رفق:

-سوف نتكلم عن هذا فيما بعد.. لا تفتقدي اللحظة.

ورشہ باقی کوب البر تعالیٰ۔

فيما بعد وهمَا في الظلام، وهي تلهث وقد بللها العرق، قال لها شيئاً عن الكابوس الذي يلازمها.. الإفادة شيءٌ عسير بالفعل.. متى انزلق في الكابوس يشعر أنه للأبد.

هذا عباس وهذا علاء وهذا جمال الفقي ومصطفى المزین.. بلبل ابن أم بلبل يرش وجهه بالماء من سطل كبير.

فهم من الكلام أنه كان جالساً في المقهى وفجأة قاء كل هذا الدم بلا سبب.. مذاق الصدأ هذا يعرفه.. ذات مرة أصابته قرحة معدة وذاق هذا الطعم.

هو يعرف السبب. ألم يقول الطبيب إنه مصاب بسرطان كبد؟ لكن كل هذا يحدث في الكابوس.. يحدث بقوانين الكوايس...

المشكلة الآن هي أن يفيق ويعود لناردين.. سبحان الله! لقد كان معها في الفراش يشعر بدقها وبضاستها، وفجأة نام.. ومع النوم بدأ الكابوس من جديد. ناردين! لا بد أنها قلقة توشك على الجنون.. تراه غارقاً في العرق يتكلم ويصرخ.. لا تستطيع أن تسترجعه.. إنه يقيء دماً في الحلم وهي ترى ذلك.. لهذا لا تستطيع معاونته.. لو جلبت له الدكتور رامي جارهما فلن يستطيع اختراق جدار الحلم.

لا يعرف متى ولا كيف حمله أقوى الموجودين - جمال الفقي - بين ذراعيه، وانطلق يركض نحو المستشفى الأميركي القريب.. كان هو ينظر إلى السماء. الشمس تحرق عينيه.

الوعي ينسحب منه.. هلم. لا تتركوني أنزلق يا أولاد الكلب.. تمسكوا بي.. أنا أغبييب...

سوف يفيق.. سوف يشعر من جديد بنعومة الفراش.. بنعومة

- لا يمكن أن يكون هناك واقع بتلك القسوة.. وما من حلم بهذا الجمال.

وارتجف لفكرة أن يكون ما يحدث الآن هو الحلم بينما «دحدورة الشناوي» واقع.

- ما هذا السائل الأحمر؟

أغمض عينيه مرة أخرى وفتحهما.

ادرك أنه على الأرض.

هذا هو المقهي.. المقهي المعتمد.. لقد عاد الكابوس إذن، أم هو الواقع؟

إنه ملقى على الأرض وجواره بركة من الدم.. دم أحمر بدأ يسود. إنه عاجز عن الحركة، ويدرك أنه قد أفرغ كل هذا الدم من بطنه. لا يوجد ألم.. لكنه منهك فعلاً كأنه جورب متزوع.

فتح فمه ليتكلم لكن الصوت خرج:

- ممممم!

واهن جداً لا يستطيع تكوين حروف كلمة واحدة.

هناك فوضى ومرج، وهناك أقدام كثيرة من حوله.. هناك من يصرخ ومن يصبح أن اطلبوا الإسعاف أو احملوه إلى المستشفى.

ناردين.. بمنطقة البرتقال.. براحتة البحر.. بطعم الجمبري.. وفر
نقودك واشتري الكومبو.. التوصيل مجاناً...

جمال يركض ومن خلفه ستة.. ثم سبعة.. ثم دستة.. ثم انضم
أطفال عديدون إلى الراكضين.. هذا مولد يصعب أن يفوت المرء..
رجل يموت حقاً.. يا للسعادة! لن ترى هذا في الفضائيات التي تبثها
الوصلة.. بالتأكيد أفضل من أداء يوسف وهبي في ذلك الفيلم أو فريد
شوقي في تلك التمثيلية...

موكب يعبر قضبان القطار.. من اللاهتين والمعبرين والملوثين
بالعرق.

انظري أيتها الشمس... واحد آخر يفرغ روحه من الفم...
الخراطيم.. كيس دم أحمر.

أصوات م默 ساطعة.

ممرضات غير مباليات.. أطباء يصرخون.. فراش متسع.. لا فراش.
هل.. هل.. هل.. فليرحل الكابوس.. فليتته من فضلكم.

* * *

وفي التاسعة مساء كف إبراهيم أبو غصيبة عن الحلم.
وحجبت ملاعة بيضاء العالم عنه فلم يعد يخاف.

قالت لها جدتها ذات يوم إنها كانت تهوى مراقبة الترام في طفولتها. كان الترام يتحسس طريقه كأنه مكفوف ترتجف يده، فيتمسّك بالسلك الكهربائي المعلق، عن طريق ما يطلقون عليه اسم السنجة.

في أيام الثورة، خصوصاً اضطرابات الطلبة.. تلك المشاهد التي تراها في السينما.. عساكر بريطانيون يطلقون الرصاص وطلبة يلبسون السترات والطرابيش.. لافتات تحمل أسماء مثل «مدرسة السعيدية» وكلام لا يتنهى عن سعد زغلول...

في تلك الأيام كانت الإضرابات تبدأ بتعطيل المواصلات، حيث يتسلق أحدهم إلى سقف الترام ويشد السنجة.. هكذا يقف الترام كجثة هامدة بلا حراك.. تصور أن يحدث هذا في أكثر من ترام.

هكذا كان شد السنجة يعني الثورة.

واضحًا أن الأخ جمال لا يحمل ذرة من التعلق، ولعله كان تحت تأثير عقار ما.. بالفعل بدا أنه متذهب لتحطيم رأس الحلاق.

استمر المشهد بضع دقائق.. وفجأة...

استرخت قدمًا الحلاق من تحته، وتهاوى كأنه كيس فارغ إلى الأرض... جورب متزوع من قدم ميت...

-ماذا دهاء؟

-هاتوا مقعدًا.

-هاتوا كوب ماء.

-الله أكبر.

-ارفعوا رأسه.

-بل اخفضوه.

قالها عصام الذي وقف يرقب المشهد في رعب، لكن أحداً لم يبال بتنفيذ أوامرها.

الآن توقف مشهد المشاجرة، وبدا الأمر كأنها لوحة اسمها الاحتفخار.. عيناً الشيخ بيضاوان ولسانه خارج فمه وثمة رغاؤ بيضاء تحتشد.. ومن حوله يقف الرجال مطرقين للأرض في رهبة.

-إنه... يموت.

-السر الإلهي يصعد.

وكانت عفاف تفكير بقوة في أن تشد سنجتها الخاصة.. ولكن أين هي؟ لو عرفت أين هي لدمرتها ببساطة...

* * *

تشاجر مصطفى المزين بشدة مع جمال الفقي...

السبب؟ لا أحد يذكر السبب. مصطفى المزين ضيق الخلق، يتشارجر في كل الظروف، وتجحظ عيناه وتبرز أوردة عنقه.. ثم يرتجف في عصبية ويسقط اللعاب من فمه. جمال وقع ووغرد ويعرف كيف يستغز من أماته.

ثم انتقل مجال الشتائم إلى الأمهات، وبدا أن أي واحد فيهما لا يحمل احتراماً لأم الآخر ولا لأمه شخصياً.

النف بعض أولاد الحلال يحاولون أن يبعدوهما. الشيخ بدا كضبع مُسن غاضب، وخرج من الصالون مواصلاً قذف شتايمه. لكنه بالطبع لم يجرؤ على ذكر كل ما يعرفه. هناك أشياء لو عرف جمال أنه قالها لما عادت لحياته قيمة.

كان بصفته حلاقاً مشروع طيب غير مؤهل، وكان يعرف بالضبط ما يفعله جمال للوصول إلى الذروة الجنسية أو النشوة باعتباره شبه عنيين. وكان بوسعه أن يتكلم بصوت عالٍ.. لكن حتى مصطفى المزين كان يعرف حدوداً.. هكذا اكتفى بسبب الأم والأب والملة.

بدا المشهد عبيئاً.. لا أحد يجرؤ على ضرب مصطفى المُسن..

لو سعلت أماته بقوة كافية فلربما لفظ أنفاسه الأخيرة، لكن كان

يركض ومن حوله الرجال نحو المستشفى... رأس الشيخ يتقافز
لأعلى وأسفل ويميناً ويساراً كأنه كرة مثبتة للجسد بشكل ما..
شعور عام بالشغف لدى القوم لرؤيه ما سيحدث.. الشيخ للمرة
الأولى يعاين تجربة الموت شخصياً، بعدهما قضى العمر يتكلم عنه
ويتعبد في محراه ويحرق من أجله البخور.. اليوم يلقاه بنفسه،
فهل هو راضٍ؟

أنت تقضي العمر تتغزل في لبني، وترجح ملاحتها للناس، وتفسر
غرابة طباعها، واليوم تلقى لبني أخيراً.. فلا بد أن اللقاء رائع رهيب.

عند باب المستشفى كان الزحام، وكان رجل أمن فقط يأمر الجميع
بالتفرق.. وكان الفتى علاء قد بلغ ذروة الإرهاق، ومع ذروة الإرهاق
تأتي ذروة العصبية، فصار مستعداً للشجار مع أي شخص.. يريد أن
يصرخ ويلعن.. يريد إلقاء هذا الحمل.

أخيراً وجدوا محفظة ألقوا فوقها الجسد المسن الضئيل.

لاحظ طالب الشريعة أن حنجرة الفقيد تتحرك.. ولاحظ جمال
الفقي الذي جاء مرغماً أن الرجل يتلع ريقه.

بعد قليل جاء طبيب شاب تفحص الجثة واستمع إلى القلب، وأمام
عيون الجميع كشف عورة الرجل ليدخل قسطرة في مجرى البول،
ثم قاس السكر في الدم، ثم طلب من الممرضة أن تعلق محلولاً من
«الدكتوز»...

تسرب السائل الشفاف إلى عروق الشيخ.

وتحسّس أحدهم شريان المعصم فلم يشعر بشيء.. وضع أذنه
على القلب فلم يسمع شيئاً.. لا يوجد تنفس أو خفقان قلب.. وأدرك
آخر أن بقعة الماء التي تنتشر على مقدمة السروال ليست بسبب
الأمطار. من مكان ما برز طالب شريعة ملتح وركع جوار الحلاق
المسن، وراح يلقنه الشهادتين.. أعني أنه راح يتلوهما على الرجل
الذي تحول إلى كومة ثياب.

كان من الواضح الآن أن عم مصطفى قد مات.

لحق بـ«إبراهيم أبو غصيبة» ابن الذحيرة المنكوبة.

أشعل الرجال الكثير من السجائر على سبيل الحداد، وفي هذه
المرة لم يستطع أحد أن يطالب جمال الفقي بحمل الشيخ على ذراعيه
إلى المستشفى.. هو ما زال يحمل ضغائن ضده.

- المستشفى.

- نعم.. المستشفى.

كان الوقت يمر وقد أدرکوا أن ما سيقومون به غير ذي جدوى..
هم فقط يحاولون إرضاء ضمائرهم.

من مكان ما ظهر علاء أبو فرحة ورائحة المخللات والبيرة تفوح
 منه، وصرخ في هستيريا كأنه امرأة جزعة:

- عم مصطفى يي يي!

وراح يبكي، ثم حمل الشيخ بين ذراعيه كأنه طفل وانطلق

بعد دقيقة بدأ يتلع ريقه.

بعد دقيقة بدأ وجهه يختلج.

بعد دقيقة بدأ يطلق السباب البذيء كأنه يستكمل وصلة الشتائم لجمال.

بعد دقيقة فتح عينيه ونهض وهو يسب أمهاطهم جمیعاً.

جسم فوقه علاء ليمنع حركته، وتلقى ركلات عديدة في بطنها بينما جمال يكرر:

- ابن الـ... رجله في القبر وما زال يشم أمري !

قال الطيب في برود:

- هو لا يعرف ما يدور من حوله ولا ما يقول.. كانت غيبة نقص سكر.

غيبة نقص سكر تبدو كالموت بالضبط؟

هذا مثير.

مصطفى المزين لم يلق حبيبه بعد.. لم يعرف.. لم يدن من السر. حسبوه فعلها لكنه عاد قبل أن يجتاز الباب الموصد.. العسس هناك لم يسمحوا له بالدخول.

بالنسبة إلى كثيرين سبب هذا خيبة أمل لا يأس بها. الرجل مُسن وسيموت، إذن لماذا لا يتم هذا هنا والآن ليظفر كل منهم بقصة مسلية

ينقلها لامرأته؟ أن ينجو الرجل من الموت لقصة جيدة، لكن وفاته قصة أكثر إثارة وإمتاعاً.. فيها كل عناصر الدراما والموعظة مع لمسة فشعرية لا يأس بها.

لقد عاد مصطفى المزين ضيق الخلق ليشaks كل أهل الدحديرة، وليرحضر كل الجنائز ويشارك في كل طقوس الدفن...

لو كانوا يعرفون «أنوبيس»، إنه الدفن الفرعوني، لقالوا إن مصطفى المزين «أنوبيس» آخر.. ابن آوى يحوم حول الموت لكنه لا يموت...

* * *

عفاف كانت تمر قرب صالون الحلاقة عندما رأت الزحام ولم تفهم سببه.. كانت عائدة إلى دكان الكوافيير بعدما ابتعاثت الغداء لها ولمروءة.

سس سس سس!

في سن مبكرة جداً عرفت عفاف أنها فاتنة.

ربما كان السبب هو تجربة التحرش الأولى مع ذلك البائع في السوق عندما هوت على رأسه بالسنجق، وربما كان توتر أبيها الشديد تجاه كل ما يخصها.. بالنسبة إليه كانت لعنة تمشي على قدمين، وعلى الأرجح لو صار الذبح مباحاً غداً وكانت هي أولى ضحاياه.. سوف يدفنتها وبهدأ باله.. كان شهوانياً وكان يشتهي الأنثى بحق، لذا صار جمال عفاف خنجرًا يومياً في صدره.. لص البيوت عندما

هذا الوجه كارثة في حد ذاته لأنه يوحى بمسرات خفية لا تعرف أنت عنها شيئاً.

هذه كانت لحظات سعيدة في حياتها.. تتجمل ثم تخرج لتتعذب الشباب طويلاً.. يسرها أن أحدهم لن يشعر براحة حينما يراها.

لم يكن الأمر يتعلق برغبة خبيثة سادية.

الفكرة أنها كانت تدرك أن هذا رصيدها الوحيد في العالم. هي فقيرة.. فقيرة بشكل مستفز لا يُصدق.

هي غير متسلمة.. لا تفتقر إلى الذكاء لكنها بلا شهادات. ليس لديها شيء تبيعه سوى هذا الجسد الرائع.. وبالطبع ستبيعه بشكل شرعى.

«الرجالة جاتهم البلا».

كانت هذه كلمتها الدائمة.

يضايقها أنهم حمقى فعلًا... يعتقد كل رجل أنه ما دام ظريفاً يتكلم بعينين مسبليتين ويدخن سجائر أجنبية، فإنه يستطيع الوصول إليها. كل رجل يتصور أنه قادر على اختراق المعبد العظيم ليسرق الزمردة ويفر.

كل رجل يحسب أنه قادر على الظفر بها ولا يدفع الثمن... كانت حكيمة بحق برغم سنواتها العشرين، وقد أدركت أنه لا أحد

يصير ثريًا هو أتعس الناس في بيته الجديد.. يعرف ما يدور بخاطر أولاد الكلب بالخارج.

لما كبرت أكثر بدأت تفهم موقع قوتها بالضبط، وحرصت على أن تظهرها بدقة وأمانة.

كان لها شعر أكتر خشن له لون الصدأ، لكنها أجادت إخفاءه بالطربة. كانت تعرف بالفطرة أن الفتاة المصرية استغلت الحجاب بحكمة لتدفع في الرجل شهوة الجواري.. هكذا جمعت بين الدنيا والدين.. يمكن أن تُضيق من ثيابها ما تريده أو تكشف عما تريده، لكنها في النهاية تضع الحجاب.. والحجاب مدعم بالترتر وفيه بهرجة غير طبيعية.. قد تضيف لهذا جمعاً معقداً من الشياطين.. بنطالاً واسعاً ويادياً - وهو اختراع جديد ممتاز يسمح لها بأن تكون عارية من دون أن تكون عارية - ومن فوق هذا شيئاً كقميص نوم شفاف..

لا أحد يجر على الكلام أو الاعتراض.

قد تلبس تنورة طويلة ضيقة تظهر ما تظهر وتشي بما تشى به... والنتيجة تراها في الشارع.. إنها تحدث انقلاباً وثورة لا شك فيما.. معظم من يقابلونها يلتقطون ليروها من الخلف. ركاب السيارات ينظرون من النافذة في اشتهاء.. ليتها تركب معهم.

لم يكن وجهها جميلاً بشكل خاص، لكنه من تلك الوجوه المشيرة جنسياً التي في ظروف خاصة تبدو حيوانية أقرب إلى الغباء.. طاقة الأنف التي تسع عندما تضحك وتختحق عندما تنفعل أو تلهث..

يشتري شيئاً حصل عليه فعلاً.. عليه الكثري الشهية تظل علبة كشري
شهية إلى أن تؤكل.

* * *

أما الدرس الأهم الذي كانت تضعه نصب عينيها فهو أنه لا خير
في الأثرياء، لا خير في الأثرياء، لن يتزوجها أحدهم.. كلّ منهم يعتقد
أنها مغامرة سهلة لا أكثر.

لهذا كانت تعامل ببرود أقرب إلى الوقاحة مع كل رجل أو شاب
ثري أو مستريح يتودد إليها، وكانت تفضل أن تكلمه من دون أن تنظر
إليه.. تعيد له باقي ماله وهي تنظر إلى ناحية أخرى.. كانت بالفطرة
تلعب اللعبة التي يطلق عليها الغربيون: «Playing hard to get».

أما مع سعيد أو فهمي أو بكر، فهم أقرب إلى طبقتها ويمكن أن
يطلب أحدهم يدها يوماً.. صحيح أنهم فقراء ولا يملكون أي لياقة
(فهمي تظاهر بالمزاح واعتصر صدرها ذات مرة) لكنها تصير معهم
مرحة منطلقة نوعاً.. فرصتها الوحيدة للأسف مع هؤلاء....

كانت عفاف كذلك سرعة الملل.. الملل لا يدل على الذكاء
في كل الأحوال.. قد يدل على غباء الروح.. كل فتيات المحلات
مولات لا يحركهن شيء سوى ظهور سعيد أو فهمي.. هو الوحيد
القادر على رسم ضحكة على هذا الوجه العابس القاسي.

بالطبع كانت تملك غرائز، وكانت تشعر برغبة مجنة أحياناً،
لكنها كانت صارمة مع نفسها جداً... سلاحها الوحيد هو بساطة

سلاحها الوحيد، ولا يمكن تبديده أو تضييع قيمته في معارك
سطحية لا تستهوي بالزواج. ربما لو كانت قد نشأت في بيضة أخرى
أكثر تدنّياً لادخرته لتبيّعه بشمن، ولو كانت في بيضة أكثر اختلافاً
ladخرته تقدمه في السينما أو مسلسلات التلفزيون أو على مسرح
الملهى الليلي.. لكن في هذه البيئة بالذات لا يوجد مخرج سوى
أن تجد زوجاً مناسباً.

تعرف الكثير عن غادة التي تعمل في عيادة الطبيب القرية.
إنها تعبث بلا توقف، لكن هذا العبث لن يؤدي إلى شيء.. غادة
لن تقاضي أجراً، وغادة لن تتزوج الطبيب كما تتصور، وبالتأكيد
غادة لن تعمل في السينما أو عالم الاستعراض.
غادة حمقاء فعلاً، لكن عفاف ليست كذلك.

عندما تعود عفاف إلى دارها.. كانت صدقة قوية قد انعقدت
بينها وبين أمها.. بالفعل هما الآن صديقتان متقاربستان في العمر
أو هذا ما يبدو لك. عندما تنزلان إلى الشارع للتسوق أو للفرجة،
فإن من يراهما يشعر أنهما صديقتان خبيثتان تبادلان الأسرار.. مر
زمن طويل على رحلات السوق لشراء كتاكيت لعفاف، مع كوب
العرقسوس إياها.

يمكنك تخمين الكثير عن مستقبل عفاف من شكل أمها.. هناك
تشابه واضح بينهما كان واحدة منهما نسخة للأخرى بعد عشرين
سنة، إذا أضفنا إلى هذا صعوبة في المشي وعدة كيلوجرامات من
الشحم. عامة لن تتدحر عفاف كثيراً جداً، لكن الأم بالطبع فقدت

ضحك الأم في خبث وسألت عفاف:
- من هذا الرجل المسن بالضبط؟ وهل هو جاد؟
لاكت عفاف اللادن في ازدراء وقالت كأنها تبصق:
- لا يفتح فمه أبداً.. فقط يظل يرمي كالآبله ولا يقول شيئاً.

- متزوج؟

- يصعب على من كان في سنه ألا يكون...

قالت الأم بخبرة:

- ربما لا.. وهذا يعني أنه عديم الخبرة تماماً وأنه سيكون قطعة صلصال في يدك.. عرفت تومرجية في المستشفى الأميركي وقع في يدها رجل كهذا.. كان محامياً كهلاً في الخامسة والخمسين ومن أسرة محترمة، لكنه لا يعرف النساء إلا من الصور في المجالات... جن جنونه على التومرجية، ولم يستطع أن ينال منها لمسة يده، لذا تزوجها.

قالت عفاف مفكرة:

- أنا لست تومرجية يامه وهو ليس محامياً.. أعتقد أنه مطلق يريد التسلية.

أخرجت الأم جنبيهين من كيس صدرها واتجهت إلى محل عصير القصب على الناصية، وطلبت كوبين.. قالت لعفاف والرغاوي الصفراء تغطي شفتيها:

غريزة أن تغري أو تتألق، لذا هي تلبس خماراً واسعاً أبيض يغطي نصفها العلوي كله، وشيشباً. هي كفت عن التعامل مع عالم الأنوثة من زمن، ولم تعد تعتبر ما تحمله هي على الضلوع نهدين، وإنما هما ثديان مزعجان تحشرهما بأي شكل في سوتيان قماشي متسع. لكن ابنته تعطيها امتداداً لحياة الأنوثة.

الأم فخور بعفاف جداً وتشعر بذلك كلمارات الشباب يتأملونها.. تسع عيناه وتصير نظرتها أقرب إلى الفحش كأنها اطمأنت على فتاة جديدة في شبكة بغاء خاصة بها. تؤمن بأن ما تملكه عفاف من مواهب سوف يجلب الخير العميم للأسرة يوماً ما، وهي تعامل مع جسد عفاف باعتباره ملكية مشتركة: هذا خضرنا.. هذا صدرنا... إلخ.

ولهذا سوف تكون جزءاً من أي صفقة تجريها عفاف.. إنها شريكة في العقار وسوف تساوم وتطالب بأرباح.

الأم تتظاهر بالطيبة، لكن أحياناً تفلت منها علامات على السوقية أو تظهر شراسة مخيفة، وهذا يحرج عفاف جداً.

على كل حال يعرف معظم شباب المنطقة أن هذه الأم أسوأ حماة ممكنة.

هذه الأم كذلك هي أول من عرف بموضوع عصام. كان عصام يحوم باصرار غريب.. وعيناه الخرساوان لا تفارقان وجهه عفاف.. أحياناً كانت تجده في المحل لأسباب ملتفقة...

جديد وزالت التجاعيد وبصره حديد. ولسوف يكتشف أن الحياة قد نضبت منها وأنها تحولت إلى كومة منهكة رثة.

لκنه أدرك أنها لا تبالي به.. أو بعبارة أخرى هي تطلب ثمناً فادحاً مقابل هذا الجسد.. تطلب الزواج به.

كان هذا كله يُشعره بالظلم والغبن.. كان يريد أن يفترسها وهي كانت تريد الزواج والبيت والإنفاق والأطفال... كان يريد جسدها وهي كانت تريد حياته كلها.. فكيف يتفقان؟

أحياناً كان هذا يمتزج بالكراهية.. كان ينظر إلى كعبها المتشقق ويقول في غيظ: من تظنن نفسك؟ تريدين أن تختراري كالفتيات الحقيقيات؟ لو كان هذا زمن الجواري لذهب إلى السوق ليتّابع واحدة مثلها، ولو كان زمن الغزاة لسباها واغتصبها.. لقد جاء في الزمن الخطأ فعلاً...

ثم يضعف من جديد.

لا شك أن الحرمان والاشتاء يذكيان موهبته وإلهامه. لو ارتوى وشبع لنام خاماً يرمي العالم بعينين بليدتين غبيتين.. لو نالها لما كتب أبداً.

يذهب إليها في الصباح.. تتناقض الرغبة في أن يبدو رثاً فقيراً أمام الناس، والرغبة في أن يبدو ثرياً مترفاً أمامها. هناك يجدها عاكفة على ذبح الدجاج وإزالة الريش.. أو يجدها حاملة المكنسة وهي تتخلص من الغبار الذي احتشد في محل الكواشير.. يراها وراء الستار المصنوع

- أنا لن أعلمك.. هذه غريزة لدى كل أنسٍ.. لا تعطيه أي شيء وفي الوقت نفسه لا تجعليه يقتنط ويرحل.

* * *

الحقيقة أن عصام كان يمر بحالة معقدة.

ربما لو وصفناها بسطحية لقلنا إنه الحب.. ولربما قلنا إنه الاشتءاء.. الحقيقة أن الأمر أعقد من هذا بكثير.. كان يحمل نحو عفاف كوكيل عواطف كاملاً، لكنه قادر أن تتدوّق في أي كوكيل مذاقاً غالباً.. الفراولة.. الموز.. المانجو.. والمذاق الغالب هنا كان الاشتءاء...

الحقيقة أن رؤية عفاف قد غيرت مقاييسه ونظرته إلى الأنسى تماماً.. لقد فقد اهتمامه النساء العاديّات والصحفيات والمؤلفات وكل من يمكن القول إنهم «من طبقته». احتفظ أنت بفتاتك ذات الشعر الأشقر والجيّز والافتعال في كل شيء. لم يعد يهتم إلا بالفتيات الفائزات ساحرات الأعین ممليئات الصدر. ربما من أصل ريفي أو من حي شعبي.

يتذكر إلهام.. يتذكرها ويقارن بينها وبين عفاف فيشعر بأنه لم يخسر أي شيء. ولم يكسب أي شيء.. هو لم يبدأ الحياة بعد. فقط من هي مثل عفاف كانت قادرة على أن تعيد إليه الحياة.. إنها «إيزيس» التي أعادت الحياة إلى زوجها الممزق المبعثر. سوف يمتص منها الحياة.. سوف ينهض من فوقها ليكتشف أن شعر رأسه قد اسود من

من خرز والذي يسد المدخل.. ربما يرى وجهها بين الظرف المطرزة بالترتر المعلقة في المحل.

المهم أنه يرى وجهها.. الوجه الذي أضناه ليلاً.
تنظر إليه في برود أو لا تنظر على الإطلاق.

هنا يأتي دور الطلب، وهو دوماً طلب غريب غير موجود، ولا تفهمه أول مرة ولا يريحها بتاتاً. يبحث عن طرحة زرقاء ذات حواشٍ صفراء لأخته، أو يبحث عن صدور دجاج مخللة، أو يبحث عن اخته نفسها التي ذهبت إلى الكواشير منذ ساعة ولم تعد.

المهم أنه سبب ملpec، وهي تدرك أنه ملpec، وهو يدرك أنها أدركت ذلك. تعمد أن تُشعره بأنها مشغولة ولا تلاحظ.. أحياناً تخونها ضحكتها كأنها ممثل رديء يمثل حياته بلا براءة أو إقناع. تعذر.. لا بد أن تعذر.. ثم تواصل العمل في شيء وهمي ما. أما هو فينصرف.. أنا أحمق.. كان يجب أن أتعامل بأسلوب آخر، وأن منحها كلمات أخرى ووجهها آخر.. غداً سوف أجرب طريقة أخرى... .

وفي غرفته ليلاً كان يشعل لفافة تبغ ويفكر فيها...

الزواج؟ لا يوجد سبيل آخر كما هو واضح.. لكن كيف؟

لو كانت عفاف هي عفاف لتزوجها، لكنه سوف يتزوجها ويتزوج معها مجتمعاً كاملاً.. سوف يتزوج مستوى اجتماعياً مختلفاً وطبقة وعادات

وتقاليد وحفنة من الوجه الكالحة المصابة بفقر الدم. سوف يأتيه رجل بجلباب متسع يصعد على الأرض ويقول إنه عمها، وسوف يأتيه شاب يبحث جسده ويعاطى البرشام ويؤكد أنه أخوها، وسوف تصل امرأة بدينية سوقية تجر جر قدميها الغليظتين في الشبشب تؤكّد أنها حماته. إنه مهم بالدحدورة، غارق فيها، لكنه لا يريد أن تأتي الدحدورة لتنام معه في شقته.

إن العلاقة المثلثى بالنسبة إليه هي علاقة «التيك أواي». خذ حاجتك وارحل. لا أريد مشاكل ولا وجع دماغ، ولا أريد كلاماً عن عمتها المصابة بالسرطان أو خالتها التي تُجري جراحة المراة.. لا أريد رومانسية وكلاماً عن الحب واللون المفضل لديك ويرجع وأفضل أغنية تحبها لكاظم الساهر.

وتذكر عبارة ساخرة عبرية لمحمد عفيفي تقول: «معنى الزواج هو أن تجلب البقال الذي في آخر شارعك، ليقيم معك في بيتك إلى الأبد وتتفق عليه هو وعياله، لمجرد أنك تحب الجبنة الرومي!». عبارة دقيقة إلى حد مُفزع.

عفاف كانت قالب جبن روسي، وأي قالب، لكن البقال لا يبيع ولا يقبل بأن يبيع...

البقال يريد حياتك كلها إذا كنت تحب الجبنة الرومي حقاً.

rewayat2.com

سيزيف:

١٤

طبقتها. صحيح أنه مفلس ومكافع لكنه جاد. سوف يجد شقة بشكل ما، سوف ينفق على البيت بشكل ما، سوف يحبها بشكل ما. لن يتسلى بها ولن يحاول أن يُقبلها في أول مكان مغلق يختليان فيه، ولن يقول لنفسه: فتاة مغربية مكتملة الجسد وفقيرة.. لهذا استمنح نفسها بسهولة. حسين ليس من هذا الطراز.

وهكذا كانت تدخر ضحكتها النادرة كي تمنحها له. هؤلاء الفتيات العابسات دوماً تكون ضحكتهن فاتنة حقاً.. كان السيل يتدفق على أرض جافة فتبثت.

هكذا بدأت تلك المغامرات الصغيرة تحدث... نزهة.. ترمس..
كزان ذرة.. لمسات يد.

تمشي معه متسللة مبتعدة عن محل الكوافير، وذات مرة مرت أمام الحلاق فرأى ذلك الأفندي المسن السمع، عصام، ينظر إليها من وراء الزجاج. ارتبكت للحظة وتعثرت فسألها حسين عمما بها.. هزت رأسها ولم تقل شيئاً.

عندما بلغا آخر الشارع سمعت مشاجرة شنيعة، لكنها لم تستدر لترى.. وقدرت أنها سبب هذه المشاجرة.. لا تعرف السبب لكنه حدس أنثوي.

ذات مرة -بعد وفاة مصطفى المزين الحقيقة- أخذها حسين إلى السينما. هناك في ظلام السينما، وعلى صوت مصطفى قمر شعرت بيده تمتد في الظلام لتمسك بيدها.. فقط.. يبدو التعبير أقرب إلى

حسين عبد الرحمن استطاع أن يجتاز الأسلام الشائكة نحو الجين الرومي.

إن للحب حيلاً غريبة يتسلل بها إلى القلب، وهذه الحيل لا يمكن الإمساك بها غالباً.. لا يمكن للمرء أن يتذكر السبب الذي جعل العاطفة تتراجع في صدره، لكن بالنسبة إلى عفاف كان حسين يشعل السجائر بطريقه فاتنة.. يُميل السيجارة لتتصير عند ركن فمه، ثم يصوب لهب القداحة نحو طرفها ويغلق القداحة في اللحظة التي يتضاعد فيها الدخان الكثيف. هل هذا سبب كافٍ للحب؟ لم تعرف نفسها بهذا.. لكنها الحقيقة فعلًا. طريقته في إشعال السجائر كانت أول شراراة، ثم بدأت تتبين أنه شاب أسمى تحيل لكنه مفتول العضلات، وله شعر أكرت مجعد يأبى أن ينام بأي ثمن...

سس سس!

كان حسين قادرًا على اجتياز السياج.. إنه من طبقتها. بالضبط من

لعصام والحب الحقيقي الوحيد في حياتها، لهذا كانت لفظة «السبحة» هي آخر ذكرى تركها للعالم.

ربما كان الأمر كذلك وربما لا.. وحدها عفاف تعرف الإجابة.
أولم تعدد تعرف...

* * *

بدأت تدرك أنها بحاجة لحسين في حياتها.. لقد حان الوقت كي يصير لعفاف مالك، ولكنها تعرف كذلك أن عليها أن تبقيه ملتهباً قلقاً متوتراً... عليها ألا تطفئ رغبته أبداً أو تريحه.. فليبحث.. فليكافح.. فليعمل..
ـ خلي العسل في جراره.. لما يتعرف مقداره.

هكذا تقول لها أمها وهي ترمق جسدها في جشع كأنها رجل.
وطالع لم تخبر عفاف أمها بأي شيء عن حسين.. هذه مجازفة رهيبة.. الأم لن تفهم سوى أن ابتها قررت أخيراً أن تسلم كنزها الثمين لشاب بلا موارد.
فضلت الصمت...

ولكنها وضعت نفسها بالكامل في عالم قصص الحب. كان قد أعطاها بعض شرائط الكاسيت الخاصة بكاظم الساهر، فكانت مناسبة جداً.. العودة من المشغل منهكة.. الطعام.. مشاهدة التلفزيون.. ثم الفراش وسماع كاظم على الكاسيت العتيق الذي لا يريد أن يتلف..
حالة حب صناعي وضعت نفسها فيها واستمتعت بها كثيراً.

الخبار لكنها فعلًا شعرت في لمساته بأمومة عارمة! تركت يدها وادعة هائنة هناك.

وفجأة شعرت بتلك المسبيحة بين أناملها.. ما معنى هذا؟
قال همساً:

- أريد أن تحفظي بشيء يخصني.. أن يظل معك شيء لي.
مسبيحة صينية تضيء في الظلام.. يبدو أنها من البضاعة التي يبيعها.. يبدو أنه عطرها بالمسك الذي يبيعه هو الآخر، وقد دستها في حقيبتها وأدركت أنها لن تخلى عنها. يحب العشاق هذا الكلام الفارغ جداً، ولو لم يمارسوه لصار الحب بلا معنى.

* * *

الرغبة!

* * *

شعر عصام بالحيرة أكثر، وأحس بأنه يتخبط في متاهة من التفسيرات.

ربما لم تكن الكلمة هي السنجة ولا السرنجة ولا السجدة.. من الممكن ويسهولة تامة أن تكون:

السبحة

التوثين أو الفتيشية.. لقد تحولت هذه المسبيحة إلى رمز متكم

أخيراً كانت منطقة الورش.. حيث رائحة المازوت تخنق الأنفاس، وتناثر بعض عربات القطارات المهجورة.. كانت هنا طبلية لوزن العربات في الماضي لكن لا يعرف أحد متى توقف هذا.

كان هناك برميل معدني مطبق جوار جدار، فاستند عليه عباس ونظر حوله في حذر:
- فلوسك.

وتناول اللقاقة البلاستيكية من حسين.. لم يعد.. فهو يعرف يقيناً أن المبلغ صحيح. التعامل الآن يتم مع حماصة شخصياً ولن يحاول إنسان بكامل قوته العقلية خداع حماصة، ما لم يرد أن يتذوق أذنه المقطوعة داخل فمه، أو يرى بعين واحدة عينه الأخرى تتدحرج على التراب.

دس اللقاقة في جيده، ثم مدد يده في البرميل وأخرج لقاقة مماثلة.. ناولها لحسين.

تساءل حسين في سذاجة:
- هل هذه طبتجة؟

وضع عباس إصبعه على شفته منذراً:
- اثبت! تعامل معها بحذر.. هذه ليست صناعة بلادها، بل خرطت المسورة في ورشة.. يمكن أن تنفجر في وجهك.

- وماذا أفعل لأحتاط لذلك؟

أحياناً كانت تحلم بحسين.. لكن في مرات عدة رأت ذلك الأخ المسن عصام، ومن الغريب أن هذا هزها لدرجة أنها صحت من نومها وراحت ترتجف في الظلام.

ذات مرة رأت في المنام إبراهيم.. وقد نظر إليها تلك النظرة الشهوانية التي تعرفها، وخطر لها أن هذا مخيف حقاً. في الصباح عرفت أنه لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، وأنه كان مصاباً بسرطان الكبد.. هذا أثار فزعها لأنها قدرت أن ما زارها ليلاً كانت روحه.. روحه لحظة الاحتضار بالذات.. كأنه لم يردد ترك العالم قبل أن يلقى عليها نظرة شهوانيةأخيرة.

* * *

في الآونة الأخيرة اختفى حسين تقريراً.

لم تعرف عفاف السبب، وشعرت بقلق جم، لكن الحقيقة هي أنه فاز بما يريده أخيراً. لقد جاءه عباس ذات صباح وطلب منه أن يلحق به.. قالها من دون أن ينظر إليه. كانا قد حددا اليوم على كل حال.. مشى ومشى حسين وراءه.. عبرا قضيب القطار وممراً بأطفال يلعبون ويصخبون.. مرّاً بشسورة يغسلن الأواني أمام ديارهن.. مرّاً بمحار يلتهم التبن من كيس خيشي.. مرّاً بعجز تبيع الباذنجان المخلل والبطاطس المقلية، ثم عرجا على الممر الضيق الذي يفصل بيوتاً عن بعضها.. بيوتاً يمكن لصاحب أي بيت منها أن يمد يده ليغمس لقمة في طبق يلتهمه صاحب البيت المواجه.

يلتف كل سكان الدحديرة حول الجرائد يتأملون صورته في صفحة الحوادث، وسوف يحاولون تخمين من أين جاء بالطبيحة.. ولسوف يزعم كل واحد أنه صديقه وأنه أخبره بخطته اللعينة تلك.

يوماً ما سيصير رمزاً، ولسوف يخرج كل واحد من هؤلاء المطحونين لينتقم انتقامه الخاص.. لكل واحد مسؤوله الذي سيفتك به.

كل هذارائع، لكن عليه أن يتدرّب وأن يُحسن استخدام الطلقات.. لا يريد أن يبدو كالأبله عندما يفرغ رصاص المسدس في وجه رئيس الحي فلا تفتلك به أي طلقة. في النهاية يقف حسين موشكاً على البكاء بينما السابلة يلتغون حوله.. عندها سينسون كل شيء عن رئيس الحي، ولن يتذكروا سري أدنى لعهم حي يصلح للاخراج سادتهم.. يصلح للركلات والبصقات واللعنات واللكمات.. أنه لن تعرف على جثته إلا بكثير من الجهد.

«سامحيني يامه». قالها وشعر بالدموع تتحشّد في عينيه.. يشعر برثاء هائل للنفس.. وكالعادة اختار بيته من الشعر للديب: وداعاً شبابي في ربيع شبابي وأهلاً حسابي قبل يوم حسابي

- أضمن طريقة لا تستعملها.. سلام.

وفي اللحظة التالية كان يركض عبر القصبان ورائحة المازوت مبتعداً.

نظر حسين إلى اللفافة في شغف، وقدر أنه يجب أن يقصد منطقة نائية ليجرب الرماية.. ترى هل تذكر أن يضع له رصاصاً؟ ولو كان قد فعل فكم رصاصية؟ كيف يقوم بالتلقييم؟ سوف يعرف.. واحد مثله قضى شبابه في تشغيل الاختراعات الصينية العجيبة التي لا توجد معها ورقة تعليمات.. سوف يعرف بالتأكيد.. واحد مثله قضى شبابه يحلب البراغيث سوف يعرف بالتأكيد...

لقد دخلت الخطة غير الواقعية المخيفة لكنه مبينفذ ما انتواه. كان قد اختار رئيس الحي بالذات.. هو رجل مناسب جداً.. يمقته الجميع، ويعرف الكل أنه لص، ويبدو بأنه أحد أشرار السينما...

سوف يفرغ المسدس في بطنه.. وسوف ينظر إليه الرجل في ذهول ويفرغ أحشاءه عبر الفم، قبل أن يسقط والدم يسيل من بطنه بلا توقف.. سوف يعرفون جراء التحرش به وملاحته ومنعه من الحياة.

عندما سيرها الفرار.. لو فر فيها، وإنما فلسوف يسقط متشرطاً في دمائهم عندما يفرغ رجال الشرطة رصاصهم فيه.. أو ينقض عليه المارة ليقتلوه ضرباً.

عفاف سوف تبكي كثيراً.. لكنها لن تنساه إلى الأبد.. ولسوف

الرائحة شهية بالفعل.. من الجميل أن هناك شهوات أقوى من
اكتتابك ومللك.

طلب نصف دجاجة مشوية ليأكلها في البيت، واتجه إلى الثلاجة
ليستقي بعض المياه الغازية.

سمع ذلك الصوت المألوف يتrepid:

- معك كبريت يا باشمهندس؟

مع بحة تدل على إفراط في التدخين. تبا لها! هذه الفتاة لا تعمل
ولا تكسب تقريباً لكنها لا تمل المحاولة. ولو كانت تنبع في
الظفر بزبون فعلاً في كل مرة تطلب فيها ثواباً، فهي ليست فتاة.. إنها
مرحاض عمومي.

فرغ البائع من لف الدجاجة فناولها له وهو يبتسم في خبث
متوقعاً بقشيشاً، لكن عصام ابتسم بتهذيب.. آسف.. هناك في مصر
بضائع عجيبة تباع ولها رواج غريب؛ مثل الابتسامة الخبيثة وهز
الرأس، والبضاعة الشهيرة «كل سنة وأنت طيب».. هذه بضائع يتم
تداولها ويمكن أن ينفق رب أسرة من دخلها على أسرته. لا بقشيش
يا صاحبي.. أنت تؤدي عملك.

نظر ليلى نوال واقفة مع ذلك الشاب الذي يتدلّى شعره على
كتفيه، وقد عقص بعض الخصلات بشريط. كانا يقفان أمام قائمة
كبيرة ملونة كتبت عليها الأصناف.

كان الفتى يهمس لها بصوت مسموع:

١٥

عندما تغرب الشمس.
عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.
عندما تستطيل الظلل قبل أن تفنى.
عندما يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ
كل ليلة.
كان عصام واقفاً عند ذلك المطعم الذي يبيع الدجاج المشوي
ويبيع الرائحة. كالعادة، المدينة خالية تماماً في ذلك الوقت وهواء
البحر الموحش يهرب من بعيد.. يتrepid نباح الكلاب مع صوت الموج
فتشعر أنك خارج العالم. فقط لا يقييك على صلة إلا هذه المقاهي
والمطاعم المعدودة التي تذكرك بأنك لم تمت.. تلعب بالفضيّل ذات
دور الواحات في الصحراء في أثناء عاصفة رملية عاتية، أو الفنار
المضيء في البحر وسط إعصار.

١٧٤

١٧٥

- اثنان غيري .. لقد اندرتك مسبقاً.
- أعرف.

- وهم لا يرضيان بسهولة .. لقد سافرا وزارا أوروبا وأمريكا ..
ولديهما خيال واسع.

قالت في إصرار وهي تنظر إلى القائمة المغربية:
- نصف دجاجة لي وحدي .. مع السلطات.
- لقد قابلنا نساء كثيرات .. ليسا من طراز الطلبة الذين
- وعلبة كولا أشربها وحدي .. هه؟

كان الموقف واضحاً . الفتى يساومها من أجل أداء جنسي أفضل مع السادة الذواقة الذين يتظرون، وهي ببساطة جائعة .. هو يحلم بالتهاها وهي تحلم بالتهاجم نصف دجاجة .. نصف دجاجة لا يشاركها فيها أحد، ولا يتم تقسيمها على خمسة أطفال .. علبة كولا لا يتم توزيعها على الأسرة ليأخذ كل منهم شفطة .. تريده أن تشرب حتى تتoshi وتغور ...
تمنى عصام لو يبتاع لها دجاجة كاملة، فقط لو تخلصت من هذا الحيوان .. لكن هذا مستحيل .
ابتعد وهو يفكك.

لا رغبة لديه في العودة إلى البيت الخاوي الآن، ليبحث في عقله الخاوي عن أحداث للرواية لا وجود لها. هذه أمسية عاشها مراراً من قبل .. فليجلس في أي مقهى ويلتهم وجنته هذه.

ووجد مقهى آخر مهجوراً فجلس بالداخل حيث الدفء. فتح اللافافه
وبدأ يأكل، والنادل رأه فجلب له كوب ماء في صمت وانصرف.

سمع فرامل السيارة بالخارج.

استدار لينظر عبر نافذة زجاجية متسمحة خلف رأسه.

هنا رأى تلك السيارة توقف، والباب الخلفي يفتح، ثم رأى شيئاً يقذف منها أرضاً مع سبة بدائية، ثم عوت المحركات من جديد مبتعدة... إن الشيء المكون أقرب إلى جسد بشري وليس كيس قمامنة.

هرع خارج المقهي ليجد أن الشيء الملقي على الأرض هو الفتاة.. نوال بالذات. كان وجهها متورماً والدم يسيل من أنفها.. وكان شعرها عجينة من القذارة والدم. البلوزة مفتوحة ولا يوجد فيها سوى زر واحد، كما أن ثيابها الداخلية ممزقة.
«مفاجأة القديس جون» .. طبعاً.

لقد نالوا منها وأخذوا أكل شيء .. ثم كانت هناك حدود لم تستطع أن تتجاوزها .. السادة الذواقة الذين رأوا العالم أرادوا تجربة شيء جديد، وهي رفضت. هكذا أنهالوا عليها بالضرب ومزقوا ثيابها ثم ألقوها في الشارع. بالتأكيد لم تتلقّ أجراً ولم تلت نصف دجاجة كما اشتتهت. حاول جاهداً أن يجرها جوار الرصيف.

- اتركها يا أستاذ .. واضح أنها نجسة.

بعيد مبتعداً، بينما عادت الحركة تنشط في المكان بعدما توقفت لبضع دقائق.

كما قلنا لا يوجد هنا مزلقان، وإنما كل واحد لديه مزلقانه الخاص.. كل واحد يقرر اللحظة التي يعبر فيها أو يحطم. عادت إلى العشة الضيقه.. ثم وقفت حافية القدمين تنشر الثياب التي غسلتها على حبل معلق هناك عند المدخل. خلفها ما زال وابور الجاز يهدأ. سوف تضع عليه وعاء لتسلق السبانخ حالا.

كان بليل يرقد على الأرض داخل العشة وهو يتنفس بصعوبة.. يركل بقدمه؟. يختنف.. كانت تعرف جيداً أن هذا ليس نعاساً كله، لقد امتلاً دمه بالكيماويات والسموم، وبعضها منشط وبعضها مثبط، حتى إن جهازه العصبي لم يعد يعرف ما يجب عمله.. هناك جزء قرر النوم، وجزء قرر الاستيقاظ. الحل الوسط الذي وجده الجهاز العصبي هو أن يكون نوماً مليئاً بالكتوبيس.

بالطبع لم تفك في الأمر بهذا الوضوح، لكنها استستجنه بشكل عام أقرب إلى الغريزة.

علقت فانلة أخرى.

وكانت قد وجدت تلك الأقراص اللعينة فعرفت أن المشكلة لم تعد البانجو فقط. الفتى لم يعد يعمل ولم يعد يأكل تقريباً.. يصحو ليدخن ويشربها ثم يختفي بضع ساعات ويعود لينام. إنها لعنة عباس الدلجموني على الأرجح.

قالها نادل المقهى الذي خرج ليرى ما يحدث. يتكلم عنها كأنه وجد مريض طاعون خارج مقهاه.

لم يجرؤ عصام على أن يقتادها إلى داخل المقهى. بدا له الموقف مسرحيًا أكثر من اللازم كأنه فيلم عن الموسم الفاضلة. وبدا له أي تعاطف معها نوعاً من الاندماج التمثيلي لا يخلو من رباء. كل ما يعرفه هو أنه عاد إلى المقهى حيث المائدة الصغيرة. فحمل اللفاقة التي بها نصف الدجاجة وعلبة المياه الغازية. فتح اللفاقة ووضعها جوارها على الرصيف.

مد يده المبلوحة بلحام الدجاج فوضع أنامله تحت ذقنها التي غطاها الدم.. لكنها لم تكن تنظر إليه.

كانت تنظر إلى لفاقة الدجاج وتبتلع ريقها... نهض في بطء عائداً إلى المقهى.

طلب شاياً وحجر معسل.. وحاول ألا ينظر إلى الوراء ثانية، ولم يلق نظرة ليرى إن كانت قد التهمت ثمن عذابها أم لا.

* * *

فلتلت.. ليتها تموت.. لو كان للحياة معنى فلتلت!

* * *

فرغت أم بليل من سكب الماء القدر المختلف من الغسيل، وألقت نظرة على قضبان القطار وذلك القطار الذي يهدأ من

علقت قميصاً.

أحياناً يظهر علاء أبو فرحة.. هو يعمل في معمل المخللات وقد اصطحب ابنها هناك لفترة، وقد عمل ببلل بعض الوقت، لكن عادة شرب البيرة والبواطة بدأت تلاحمه مثل علاء.

علقت سروالاً داخلياً.

سرق ببلل مالها مرتين من قبل.. كان يجد الكيس القماشي الذي تضع فيه المال، فيفرغه مما فيه، لكنها لا تستطيع أن تغضب.. لا تستطيع أن تطرده.. هي وحيدة وليس لديها رجل، وببلل يجلب بعض الملاليم من حين إلى آخر، كما أنها تبيع البادنجان المخلل أو تقليل الطعمية من حين إلى آخر فتحصل على ملاليم أخرى. لا تملك ترف التخلص منه.

علقت قميص نوم.

رأت من بعيد جمال الفقي يجري وهو يتلفت حوله.. كان متلهفاً قلقاً وعيناه جاحظتان تلمعان. يبدو أنه حريص على ألا يراه أحد.. هناك كيس قماشي يحمله في يده.. كيس مربوط بحبل من ليف فلا يمكن معرفة ما به، وقدرت أنه على الأرجح سرقه.

لم تكن تحب الفقي ولا ترتاح له، لكنه كان يتردد على ابنها أحياناً.. وأثار نفورها منه أكثر أنه كان ذات مرة جالساً على عتبة الباب فرأته ساقيه العاريتين.. هناك جروح طولية غريبة تماماً الساقين، وبينما كانه هو من أحدهما بنفسه. تعرف أن المدمنين يصيغون بأجسادهم أشياء شبيهة، لكنها لم تعتقد قط أنه مدمن.

سُكبت الماء الباقي على الأرض ودخلت العشة، لتبدأ سلق السبانخ.

بلبل كان في عالم آخر مشابكة. كان هو السلطان الذي يلبس عمامة كبيرة ويجلس على طنافس ويحسو النبيذ، بينما أمامه ترقص جارية شبه عارية. وهذه الجارية كانت تلك الفتاة، عفاف.. الفتاة التي تذبح الدجاج في المحل القريب. هذه المرأة لم يكن جلبابها متسخاً ولم تكن هناك بقع دم على يديها ولا جيدها. كانت نظيفة عطرة تتظره في شغف. ثم رآها تحمل السكين وتتقدم إليه.. تقipض على جناحيه.. متى صار له جناحان؟ إنها تحمله.. فجأة لم يعد هناك تناقض في الحجم.. فجأة صار بحجم دجاجة في يدها.. قلبت رأسه ليدخل في قمع معدنى.. ثم هوت بالسكين على حلقومه.

كان يشعر بالسكين فعلاً لكنه كان متثلياً سعيداً... عفاف.. لا تستطيع أن أناشك إلا بعد «الترامادول». لهذا أتعاطى «الترامادول» لأنه لا يخذلني أبداً.. في كل مرّة أتعاطاه أظفر بك. لا ممانعة ولا دلال ولا طلبات.. فقط الكثير من الـ... هـ... هـ... اليهود الذين تفوح منهم رائحة السبانخ المسلوقة قد جاؤوا لأخذك.. سوف يسبونك وينالون منك جميعاً. أولاد الكلب.. أولاد الشعابين.

لكنني سوف أمنعهم من ذلك.. سوف أهزّهم جميعاً.. فليستظروا حتى يروا كيف أذبحهم جميعاً بهذه السكين التي في يدك.

وَثُبَّ مِنْ رُقْدَتِهِ عَلَى الْأَرْضِ .. لَمْ يَكُنْ يُرَى بِوضُوحٍ، وَهَكُذَا
تَحْسِسُ طَرِيقَهُ لِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ أَنْ يَرْكُلْ وَابْرُرُ الْجَازِ، وَسَمِعَ أَمَهُ
تَصْرِخُ ثُمَّ شَعَرَ بِحَرِيقَ هَائلٍ فِي قَدْمَهُ الْعَارِيَةِ .. الْيَهُودُ قَدْ أَحْرَقُوهُ
بِالنَّابَالَمِ .. يَا أَوْلَادَ الـ ...

النَّابَالَمِ مُمْنَوعٌ يَا كَفْرَةَ!

كَانَتِ النَّارُ قَدْ تَمْسَكَتْ بِمَلَأَةِ الْفَرَاشِ عِنْدَمَا طَارَ الْوَابُورُ،
وَخَرَجَتِ الْأَمْ مِنَ الْغَرْفَةِ تَصْرِخُ .. لَقَدْ أَحْرَقَ نَفْسَهُ بِالْمَاءِ السَّاخِنِ ..
النَّارُ تَشْتَعِلُ فِي الْعَشَةِ ..

وَمِنْ كُلِّ مَكَانٍ تَعَالَتْ الصَّرَخَاتِ ...

ثُمَّ ظَهَرَ رِجَالٌ يَحْمِلُونَ الْمَاءَ فِي آنِيَةٍ وَانْدَفَعُوا دَاخِلَ الْعَشَةِ يَلْقَوْنَ الْمَاءَ
عَلَى الْحَرِيقِ الْوَلِيدِ .. التَّفَ الأَطْفَالُ فِي نَشْوَةٍ يَرْقَبُونَ الْمَسْهَدَ، وَتَصَاعِدُ
دُخَانٌ رَمَادِيٌّ يَشَيِّي بِأَنَّ النَّيرَانَ انْتَفَقَتْ فَعَلَّا .. لَمْ يَكُنْ الْأَمْ كَارِثَيَّاً.

أَمَا بَلْبَلُ فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ وَقَدْ فَرَدَ سَاقَهُ وَرَاحَ يَرْمِقُ الْأَحْمَرَارَ
الْمُتَزَايِدَ، وَتَسَاءَلَ عَنْ مَصْدَرِ هَذَا الْحَرَقِ.

تَحْسِسُ عَنْقَهُ .. مَا زَالَ هَنَا .. لَمْ تُرْلَهُ عَفَافٌ إِذْنَ.

كَانَ يَحْلُمُ .. لَكُنَّهُ حَلْمٌ رَائِعٌ الْجَمَالِ.

عِنْدَمَا انتَهَى الرِّجَالُ مِنْ مَهْمَتِهِمْ، وَعِنْدَمَا رَاحَتْ أَمَ بَلْبَلُ تَحْصِي
الْخَسَائِرَ لِتَعْرِفَ مَا فَقَدَتْهُ مِنْ عَالِمَهَا الصَّغِيرِ، نَهَضَ هُوَ بِصَعْوَدَةٍ ..
وَجَدَ أَمَامَهُ عَبَاسَ الدَّلْجُومِيَّ، وَلَا يَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ.

تَوَاثِبَ حَتَّى اسْتَندَ عَلَى كَنْفِهِ، وَقَالَ لَاهِثًا:
- أَرِيدُ الْذَّهَابَ إِلَى الْمُسْتَشْفِي لِيَرْوَى قَدْمِيِّ.

رَأَتْ أَمَ بَلْبَلُ الدَّلْجُومِيَّ هَنَا، فَهَرَعَتْ نَحْوَهُ وَهِيَ تَأْتِي بِحَرْكَاتٍ
بِذِيَّةٍ يَبْدِيهَا .. وَبَصَقَتْ فِي وَجْهِهِ، لَكِنَّ الْبَصْقَةِ لَمْ تَلْغِهِ:

- أَنْتَ يَا وَاطِي يَا ابْنَ الْوَاطِي .. لَقَدْ ذَهَبَ عَقْلُ الْوَلِيدِ بِسَبِيلِ هَذَا
الْهَبَابِ الَّذِي تَقْدَمَهُ لَهُ .. لَقَدْ دَاهَسَ فِي الْمَاءِ الْمَغْلِي وَلَمْ يَشْعُرَ ..
لَأَنَّ عَقْلَهُ انتَهَىِ.

كَانَ عَبَاسٌ يَدْرِكُ الْمَوْقِفَ جَيْدًا، وَيَدْرِكُ أَنَّهُ لَنْ يَكْسِبَ الشَّجَارَ مَعَ
هَذِهِ الْمَرْأَةِ عُالِيَّةِ الصَّوْتِ سَلِيْطَةِ الْلِّسَانِ، ثُمَّ إِنَّهَا سَتَفْضُحُهُ .. هَكُذَا
اَكْتَفَى بِأَنْ زَغَرَ لَهَا زَغْرَةً مُخْيِّفَةً مِنَ الْتِي يَجِيدُ اصْطَعْنَاعُهَا، ثُمَّ أَشْعَلَ
لَفَافَةً تَبَغُّ وَدَسَ يَدَهُ فِي جِبَابِ السُّوِيْرِ وَأَسْنَدَ ابْنَاهَا بِالْيَدِ الْأُخْرَى، وَهُوَ
وَضَعٌ بِهَلْوَانِي عَجِيبٌ لِكُنَّهُ يَنْسَابُ الْأَنْطَبَاعَ الَّذِي يَرِيدُ تَرْكَهُ: مُحْتَرِفٌ.
وَغَادَرَ قَاصِدًا الْمُسْتَشْفِيِّ.

يَتَمَنِي التَّخْلِي عَنْهُمَا، لَكِنَّ الْأَخْرَوِيَّةَ لَا تَسْمَعُ بِذَلِكِ ...

عندما دخل عصام إلى صالون الحلاقة، في ذلك اليوم الأسود، كان جمال الفقي جالساً على المقعد وقد أغمض عينيه بينما الصابون يغطي نصف وجهه تقريراً، وكان يكلم مصطفى المزین:

- أولاد الحرام أوقعوا علينا، ولعله الشيطان.. بيبي وبيشك.. عندما أغضب أصير حيواناً حقيقياً.. أتحول إلى كلب مسحور. نظر مصطفى نظرة جانبية ليرى الزبون غريب الأطوار يرفع يده محياً، ثم يجلس. لم يرد التحية.. توتر.

قال لجمال وهو يزيد من ثراء الرغوة:

- مفهوم.. مفهوم.. أنت تصير لعيتاً عندما تغضب.

- لكن بيبي وبيشك.. عندما رأيتكم على الأرض فاقد النطق شعرت بأن كل غضبي تأخر.. بصرامة أنت رجل بركة ونحمد الله على

أنك ظللت بيننا.

مد الحلاق يده إلى الموسى ومررها على الحزام الجلدي، ثم بدأ بحنكة ويد ثابتة يزيل الصابون.. طرق ممهدة بلون البشرة تتشكل على وجه جمال.

كان عصام ينظر خارج الواجهة الزجاجية المهمشة.

برى الفتاة عفاف تمشي مع ذلك الفتى مندوب المبيعات حسين. يمشيان لكن كل شيء يوحى بأنهما يمارسان الخطيئة.. هي مرتبكة خائفة من النظارات، وقد التقت عيناها مع عيني عصام للحظة فبدت فيهما نظرة من طراز «يا مصيبة يا فضيحتي».. قالت شيئاً همساً للفتى ثم واصلاً السير.

شعر بحسد شديد. لقد أحبها بعنف.. أو - من أجل الدقة - اشتتها بعنف، وبالتأكيد كان يفضل رؤية جثتها المتعرجة على أن يراها تمشي مع واحد آخر.. ماذا تتوقعين أن يمنحك هذا الصعلوك؟ أنا لست ثرياً ولا أغاخان، لكنني بالتأكيد لا أبيع سلاسل المفاتيح والعطور المغشوشة في المقاهي.. هذا دليل آخر على سطوة الجنس التي تلغى التفكير تماماً. لو أنك تزوجت هذا الفتى لنعمت باللذات ثلاثة أيام.. سيديب أنوشك ويحرقها ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فحسب، ثم يبدأ الجوع.. يبدأ الشك.. يبدأ العري وتظهر الأحذية الممزقة.. سوف يبدأ اللعب.. سوف يتهرّب منك حتى لا يتحمل مسؤولية الإنفاق. سوف يعطي وعوداً لا يفي بها.. سوف يستولي على مالك الضئيل.. سوف يكذب.

أنت غبية.. غبية.. ولكنني كذلك لن أتزوجك وأنت تعرفين هذا.

مد يده إلى العلبة وأخرج لفافة تبغ.. وعالج الثقب.

لاحظ أن الحلاق المسن ينظر إلى المشهد عبر الزجاج مثله، ولحسن حظه أن الموسي يعرف طريقه وإلا لذبح الزيتون.

شعر عصام بأنه يجب أن يتكلم، ولبيته سكت.. فقال:

- فعلاً.. شباب حار الدماء.

وضحك مع أن الحلاق لم يعلق.. وأردف:

- الهرمونات.. المحصول الوحيد الصالح للتصدير في مصر.. لكن هذا لا يدوم.. الفراخ المغشوشة تقضي على أي رجلة.. سرعان ما ينهاه كل شيء، ويفر الفتى من ليالي الخميس ويعاطي الفياجرا ويستاع الجمبري... ربما يغرق الكلاب الصغيرة كما يفعل زيونك الذي حكىت لي عنه!

كانت هذه هي الغلطة.

لقد داس على ذيل الشيطان من دون أن يعرف.

فقط في اللحظة التالية كان يحدق في العينين الناريتين لجمال الفقي الذي ظل نصف وجهه مكسواً برغوة الصابون، ويمعجزة ما كان يحمل الموسي في يده.. وكانت المنشفة تتسلق كمشنقة من عنقه.

أما الحلاق فانكمش في الركن يخشى أن يتكلم أو يقول أي شيء.

- عمَّ تتحدث؟

قال عصام في عدم فهم:

- لا شيء.. موضوع لا يخصك.

- عمَّ تتحدث؟

- هذا شيءٌ بيني وبين عمِّ مصطفى.

- عمَّ تتحدث؟

- هناك أشخاص مصابون بشذوذ غريب و...

- عمَّ تتحدث؟

وهكذا يمكن أن نلخص الموقف.. لم يتلقَ أحد هذا القدر من الصفعات إلا في ظروف نادرة، منها ذلك الشرطي السادي الذي صفع الضحية ستًا وثلاثين صفعة في فيلم «يوتيوب» الشهير، ومنها بلدينا الذي تلقى ١٦ صفعة فجأة، حسب النكتة.. فيما عدا ذلك يصعب أن تذكر نموذجًا مماثلاً تلقى كل هذا القدر من الصفعات والركلات في الخصيتيين، ويصعب أن تذكر أي واحد تلقى هذا السيل من الشتائم البذيئة الشنيعة.

كان الأمر غير بشرى حتى خطر لعصام في لحظة أنه وقع في يد أحد آلهة الأوليمب ينفذ فيه انتقاماً أسطورياً مثل عقاب «تانتالوس» أو «بروميثيوس».

جمال الفقي هو الذي يمارس عادة إغراق الكلاب الصغيرة، والحلاق قد تكلم أكثر من اللازم.. ثم جاء عصام الغبي ليتكلم أكثر فأكثر.

هكذا يمكن أن نقول إن الحلاق مات. نوبة سكري أو نوبة قلبية.. لا يهم. لقد كان الضغط العصبي شديداً.

عرف عصام كذلك أنه لن يزور الدحدبيرة ثانية، لأن جمال الفقي سيفتك به حتماً.. لقد انتهت القصة وانتهت علاقته بهذا المكان.

رافق الجمع يحملون جثمان الحلاق وبهرعون نحو المستشفى كالعادة. لا يملأ أي خبرة طبية لكنه يعرف نتيجة الكشف هذه المرة اجتاز مصطفى العتبتم. هذا مؤكد..

ويبحث عصام عن جمال الفقي.. الرجل الذي صفعه ما يكفيه لعدة أجيال، فلم يره. ذاب في الزحام.

طفلة حافية في الخامسة بلا سروال ولا لباس داخلي تقف على باب الصالون وترمق عصام في فضول. تأكل قطعة بطاطاً لوثت وجهها بالكامل.

ثم ظهرت امرأة بدينة شرسه التقطت الطفلة على كتفها وهي ترمي في مقت.. وابتعدت... مشى متربحاً شاعراً أن النار تخرج من خديه.

هل سيعلّقونه بين جبلين حتى يأتي الرخ ويلتهم كبده إذن؟ كان الأمر شديد القسوة والعنف.. حتى إن من هرعوا التخلص المشاجرة تصلباً في رهبة عاجزين عن الكلام أو التدخل. الأمر قد تجاوز المشاجرة إلى مشهد ملحمي مهيب. بالتأكيد كان عصام سيهلك هنا والآن.. لو لا أن رحمة الله تدخلت من جديد.

تهاوت قدمها الحلاق المسن من تحته وأطلق أنيساً سريعاً ثم غاب عن الوعي.

التف الجميع حوله لكن جمال الفقي يصدق باتجاهه في اشتئاز: - يمثل؟! بين الهرمة يمثل.. في كل مرة يفعلها.

لم يكن أحد مستعداً للرهان على ذلك، فقد بدا أن الشيخ مات فعلاً، ومن مكان ما ظهر علاء أبو فرحة ورائحة المخللات والبيرة تفوح منه، وصرخ في هستيريا كأنه امرأة جزعة:

- عم مصطفى ي ي ي! عامة ساد المكان الضيق شعور عام: لو لم يكن الحلاق قد مات فإن موقفه محرج جداً.. لا أحد يتحمل هذه اللعبة السخيفة مرتين في أسبوع واحد.

بالنسبة إلى عصام الذي تحول وجهه إلى ما يشبه القلقاس الذي بعث للحياة، كان الأمر واضحاً.. يصدق سنًا.. ستين مهشمتين..

وعندما انغلق باب المقبرة على مصطفى المزين، وعندما أتم اللحاد عمله، شعر القوم بشعور لم يفهموه.. «تشيكوف» وصفه من قبل بدقة، عندما قال إنه يشبه شعورنا أطفالاً عندما كان الكبار ينامون ويتركونا أخيراً لتنعيم. لكن أحدهم لم يقرأ «تشيكوف» بالطبع، وكان عصام بعيداً ليفكر في هذا الأمر.. كان في داره يضع ثلجاً ملفوفاً بالشاش على وجهه المتورم. تمنى لو كانت هناك كمادات تزيل الإهانات.. للأسف لم تخترعها شركات الدواء بعد.

ابتلع قرصين مهدئين ودخل الفراش محاولاً النوم.

وفي المنام رأى نفسه حبيساً في كيس قماشي، بينما جمال الفقي يسقطه في الترعة.. يسقطه وهو يتاؤه من فرط النشوة والتلذذ الموشكين على قتله قتلاً.

الماء البارد في كل مكان.. لا يوجد هواء.

لا يوجد هواء.

جمال منتشر.

جمال ملوث بالعرق.

جمال يصفعه.

الماء البارد!

والأسوأ هو أنه شعر أنه استحق هذه العلقة. لقد كان غبياً وتصرف بلا حذر. لا يستطيع أن يشعر بالظلم.

* * *

هذه المرة قاس الطبيب النبض وضغط الدم، ثم أخرج كشافاً صغيراً سلطه على حدقة العين.. هز رأسه من دون تعاطف وانصرف ليり مريضاً آخر.

هنا فقط أدرك الواقفون أن مصطفى المزين مات فعلًا... مات «أنوبيس» إله التحنيط الذي يحب الموت ولا يموت.

هذا الرجل سوف يصل إلى مثله الأعلى حالاً، ولشد ما سيحب ما يلقاه ويراه.

وفي هذه اللحظة فقط أدركوا أنهم لا يذكرون شيئاً عن أهله ولا أقاربه. هناك من تذكر أن له ابنًا عاقاً في مصنع الكتان، وهناك من قال إن له أخاً إمام زاوية قرية.

سوف يتصرفون.. علاء أبو فرحة سوف يتصرف، فهو ما زال مدیناً للرجل بعد ما قام به لدى وفاة أبيه، والحقيقة أن مصطفى لم يكن يتصرف عن شهامة.. كان يتصرف لأنّه يحب جو الموت والأكفان والمقابر. لا أحد يشكر اللص لأنّه يسرق المال فيمنع عنا أعين الحاسدين، ولا أحد يشكر القاتل لأنّه يحل مشكلة زيادة السكان.. يجب ألا تشكر مصطفى على شيء، لكن الفتى أقنع نفسه بأنّ الشيخ قدم له خدمة العمر.

علم مصر، وعبارة «الجيش والشعب إيد واحدة» وهي التي ستحول بعد أشهر إلى «يسقط يسقط حكم العسكر» وربما تصير «يسقط حكم الإخوان» بعد فترة.

لكنه ما زال يرى الحروف التي كتبتها الفتاة بـ«السبراي».. تلك الحروف العفاريتية.

يرسم بالبول خطوطاً ونقوشاً تجريدية على الجدار.. نقوشاً لا تدوم أكثر من دقيقة ثم تتلاشى. يحاول في الوقت ذاته أن يقرأ ما كتبته الفتاة:

السيجـة

بالفعل هي كلمة «السيجـة».. ليست السبحة كما خطر له من قبل. لكن هل من عادة من يرغبون في الانتحار أن يكتبوا «السيجـة» على الجدار؟ ما معناها؟ كان يؤمن بأن الفتاة كانت تعمل في شبكة دعارة ما، فلماذا تكتب العاهرات لفظة «السيجـة» قبل الموت؟ عادة غريبة فعلاً.

لغز حقيقي... لو كان له من الأمر شيء لأخرج الفتاة من قبرها وعذبها حتى تنطق وتخبرهم بما تعنيه.
يخرجها من قبرها؟

للحظة شعر برجفة تسري في مجرى البول.. نوع من الكهرباء. لم تكن هذه حصوة بولية تتحرك بل فكرة تتحرك.

جلس علاء في معمل المخللات أمام وعاءين من البلاستيك، يقوم بقطع اللفت بسرعة جهنمية، مشتاقاً إلى البيرة ويحلم بالتبول.. خطر له للحظة أن البول والبيرة يبدأ كلابهما بحرف الباء ولهمانفس اللون والمظهر، وأحدهما يجلب الآخر بغزاره، ثم بدت له هذه فكرة مشيرة للاشمئزاز.

كانت يداه تعملان بسرعة تفوق سيطرته عليهما.. أي أنه بالفعل لا يرى السكين ولا رأس اللفت التي يقطعها. لقد صار كذا بعد ساعات طوال من العمل وعشرات الجروح.

لكنه لم يستطع قط أن يكبح رغبته الجهنمية في إفراغ المثانة، لذا طلب من زميله أن يكمل ونزع المريولة. هرع يشق طريقه بين البراميل ذات الرائحة القوية، وانطلق إلى الزقاق المجاور.. حيث الجدار المفضل لديه ليفرغ مثانته.

الكتابة على الجدار تتغير بلا توقف.. مثلاً هذه المرة كان هناك

مصطفى المزین قد مات.

هل تستطيع أن تقسم على هذا؟

الطيب قال إنه مات، لكن ماذا لو كان الطبيب أحمق؟

أنترأيته في نوبة السكري الأولى.. هل كان هناك عاقل على ظهر الأرض لا يستطيع أن يقسم على أن الحلاق مات؟ ومع هذا دبت الحياة في الحلاق وفتح عينيه. لماذا لم يحقنوه بالجلوكوز ليروا؟ مصيبة حقيقة لو كان الرجل حيًّا..، لقد توفى منذ أسبوع، ومعنى هذا أنه مات فعلاً حتى لو كانت نوبة سكري بريئة. كيفتأكد؟

هذه الفكرة ستلاحمه حتى الموت، ولن يخلص منها أبداً.

* * *

مع الظلام لا يبقى صلاح هناك.

إنه في مكان ما مع حماصة يقونان بشيء لا نعرفه.. المهم أنه شيء غير قانوني ويتعلق بالمخدرات.. تعبئة.. شراء.. بيع... الخ. لم يكن حماصة من تجار المخدرات ذوي الخبرة، ولكن هذه المهنة تحتاج إلى جيش من البلطجية للحماية.. هنا تتدخل المسؤوليات.

المهم أن العشة كانت ترقد وحدها في الظلام.. ومعظم العشش

المحيطة بها مظلمة كذلك إلا من ضوء لمبة واهنة (سهامي). وهكذا كان عباس يدنو لاهثاً وهو يشق من الانفعال والقلق والرغبة.. كلب أبله حاول أن ينبع في وجهه لكنه وجه له ركلة جعلته يركض وذيله بين فخذيه.

لا يخاف الكلاب لكنه لا يريد ضوضاء.

قرع الباب مرتين بطريقة معينة. انفتح في حذر ليكشف عن وجه صاححة زوجة صلاح. نظرت حولها ثم سمح لها بالدخول. بمعنى آخر وثبت إلى الفراش ليتربع فوقه.

التقت الشفتان في نوع من الاتهام المتتبادل.. شهقات ساخنة تحرق... بركان رغبة ينفجر.

لا داعي لوصف ما حدث بعد ذلك فالقارئ يملك خيالاً، ويسهل تصور ما يحدث عند لقاء امرأة ناضجة مفعمة بأسرار الأنوثة مع ذكر مفعم بالهرمونات.

كنت قد وعدت بأن شيئاً لن يحدث بينهما، وتكلمت عن الأخوية كثيراً.. لكنني كنت واهماً وساذجاً طبعاً. ربما هو عدم فهم للطبيعة البشرية، وربما لأنني افترضت أن هناك قيمة يمكن أن تصمد في هذه المبادرة.. قيمة الأخوية مثلاً...

كنت أحمق.. وعلى كل حال قد انتهى دور «الراوي العليم بكل شيء» في الأدب منذ زمن.

لم يكونا يتكلمان.. الرغبة والتوتر أذهلاهما عن الكلام.. هذه

رفع حاجبه في حنكة بمعنى أنه قاسٍ فعلاً... وبدأ فاصل جديد.
أخيراً أشعل لفافة تبغ أخرى ثم وثب إلى الأرض، وأغلق زمام السروال وفتح الباب.

قالت له في لهفة:

- فلتبق فترة أخرى.

- صلاح قد يعود في أي لحظة.

هذه المواجهات هي التي تنجيب جرائم القتل.. الزوجة والعشيق والزوج الممزق الموضوع في أكياس. لن يتزلق لهذه الخانة المظلمة إلا مضطراً.. لو انزلق فهو يعرف النهاية ويعرف أنه سيفتك بصلاح، فهو الأقوى والأشرس.. لكن معنى هذا أولاً أنه سيفقد شريكاً مهماً، وحماسة سيعرف على الفور.. حماسة يعرف كل شيء بدقة.. وسوف يتقم.. لو كان عباس أفضل حظاً لقبض عليه البوليس أولاً.

لهذا كله امتنع عن إطالة هذه اللذة، وراح يركض فوق القصبان مبتعداً ومذاقاً شفتتها الطري على شفتيه.

* * *

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلال قبل أن تفني.

لذة محمرة.. لذة محمرة جداً، لذا كان توترهما عظيماً وشهوتهما أعظم.. ومن الأرض السوداء تنبت الفاكهة الأشهى.

ادرك عباس شيئاً واحداً.. هذه الأرض لم ترتوا منذ زمن.. لم ترتوا منذ أعوام.. لقد تركها المزارع تششق وتتجف وتتلف في ضوء الشمس، وهكذا أدرك حقيقة أخرى: غالباً تدهور صلاح كل هذا التدهور بسبب الشم.. يقول إنه لا يفرط في الشم لكنه يكذب.

أما هي فعندما استطاعت الكلام أخيراً كانت تمتدحه كأنه هارون الرشيد أو هرقل.. تلعب دور المقهورة التي لا قبل لها به، لوعة وألم حتى لتوشك على البكاء.

هذا شيء غريزي يتعلمنه من دون تعليم.

سألته همساً وهي تتناول لفافة التبغ من بين شفتيه وتدسها في فمهما:

- ماذا فعلت مع أم ببل؟

- مرّة مجونة.. ابنها حرق قدمه، فما ذنبي أنا؟ لكنني هربت من لسانها السليط.. أخذته إلى المستشفى من أجل الأخرى.

- حضرت جنازة الحلاق؟

- كنت نائماً.. لم أحبه على كل حال، ولو كنت متيقظاً لما ذهبت.

مدت سبابتها تداعب أرندة أنفه:

- آه منك يا قاسي القلب!

ما زالت عفاف هي المشكلة.. ما زالت عفاف هي اللغز..
لو استطاع أن يخترق رأسها لوجد القصة تتضرر هناك جاهزة لا ينقصها
إلا بعض علامات الترقيم.. مكتملة فلا ينقصها إلا أن يصبعها حبراً..
هل تذكر كلام «مايكل أنجلو» عن تمثال العبد الحبيس داخل الصخرة
باتنتظار إزميل يحرره؟ كان يفكر في قصته بذات الطريقة.. هي مكتوبة
فعلاً وجاهزة للطبع.. فقط يجب أن يعرف ما تعرفه عفاف.

سيجد الكثير من العسر في العودة إلى الدحديرة.. سوف يقابله
جمال، وجمال ليس من الطراز الذي يضحك ويربت على كتفه
ويقول: عفا الله عما سلف.. لا، لن يفعل هذا.. على الأرجح ستكون
هذه نهايته فعلاً.

أمثال جمال.. القادمون من طبقته.. الذين يبدون مثله.. أولئك
مولعون بالغضب ومولعون بالتمادي لأقصى حد.. يفخرون بعجزهم
عن ضبط النفس وعجزهم عن كظم الغيظ أو العفو عن الناس..
مولعون بقطع الرقب وطعن البطون وإلقاء ماء النار على الوجه.
أمثال جمال يستحقون أن تبتعد عن الدحديرة.

* * *

في الوقت الذي كان عباس فيه بين أحضان صاحبة، كانت أشياء
مريبة تدور عند المقبرة.

كان علاء هناك ومعه جمال الفقي.. وكان اللحاد المسن
يزحف خارجاً من الفتحة التي صنعتها في التربة، وقد بدلت ساقاه

عندها يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ
كل ليلة عندما تغرب الشمس، وعندما يكف الأصحاب عن تقديم
عزائهم لك، وعندما تستطيل الظلال قبل أن تقضي.

أمام ورقة جريدة تفوح منها رائحة سمك قوية، جلس عصام
ينهي العشاء.. في الحقيقة هو ليس في حال سيئة.. يأكل طعاماً جيداً
وبنام جيداً ويتخلص من الضغط الجنسي، لكنه يفتقر إلى شيء مهم:
الخلق.. الاتكتمال.

لقد جاء إلى العالم حاملاً رسالة غامضة وعليه أن ينشرها كالرسل
في كل مكان، لكنه لا يعرف كم هذه الرسالة حقاً. النضوب يداهمه
بلا توقف.. قصة الدحديرة تتحرك في بطيء شديد.

هذا يحزنه.. هذا يشعره بالعنة والافتقار إلى الخصوبة.

انتهى من الطعام، فلف الجريدة ووضعها في كيس بلاستيكي،
وغسل يديه وأعد بعض الشاي الثقيل. في هذا الزمن الأسود صار
من الممكن أن تزيل رائحة السمك بأن تغسل يدك مرة واحدة. في
الماضي كان عليك أن تغسل يدك خمس مرات كي تخلص من
الرائحة.. كأنك كنت تأكل «بورانيوم» مشعاً لا سمكاً. اليوم كل شيء
صناعي وملقق ومؤذٍ، لكنه يرفض أن ينشغل بهذا.. لربما لو ترك لنفسه
العنان لبدأ يرثي لأن الفراولة لم تعد تقلب رائحة البيت. لن يفعل
هذا.أغلق النافذة التي توشك على أن تطيره والتي يتسلل منها هواء
البحر اللوح الفضولي، وأشعل لفافة تبغ وجلس يفك.

- هيء؟

قال الرجل بصوت جعلته الشيخوخة رفيعاً كأنه يعتمد الإضحاك:

- هو الكفن.. لا شك في ذلك.. لم يتمزق. لكن هذا ليس دليلاً على شيء.

ثم اتسعت عيناه في خطورة وأردف:

- بيئي وبينك لم يكن هذا هو المكان الذي تركت الجسد فيه.. أعتقد أنه تحرك متراً أو مترين نحو الباب.. أعتقد أنه حاول تحرير يده فلم يستطع.

ارت杰ف علاء وفقد التحكم في يده تماماً.. لا يريد أن يستعيد الصورة أو يتخيّلها. لكن التفسير سهل على كل حال. هذا اللحاد المصاب بالرمد والعشى الليلي لا يلاحظ أي شيء ولا يمكن الاعتماد عليه.. مستحيل أن يتذكّر الفارق بين موضع وموضع.

- أنت تخرّف!

- وأنت تشک.. لهذا دفعت لي.

- وكيف نجد اليقين الذي ليس بعده يقين؟

بصق الرجل على الأرض وأفرغ أنفه ثم مسحه بكمه وقال:

- لا يوجد يقين ما دمت حياً.. من الممكّن أن أكون مخطئاً.. وقد أكون مصيّباً.. لكن هناك حقيقة مؤكدة لا شك فيها؛ هي أنه قد مات.. دخل القبر ميتاً أو مات من الجوع ونقص الهواء

الرفيعتان الخاليتان من الشعر كأنهما ثعبانان بلون اللحم يتسللان إلى المقبرة.

ضوء الكلوب يتوجه باعثاً إضاءة كثيبة موجسة، وشعر جمال بقشعريرة حقيقة. معظم هؤلاء الفتوّات الذين لا يخفّفهم شيء في عالم الواقع يتطهرون بشدة ويحافظون الموتى جداً. علاء كان قد أفرغ مثانته خمس مرات.. ويبدو أنه تسلح بالبيرة قبل القيام بهذه المهمة القدرة.

يسمع صوت من يشن أو يتنهد فيرتجف.. من أين يأتي هذا الصوت؟ ألم تكن هذه هي التربة التي دفن فيها إبراهيم أبو غصيبة؟ لماذا يشن إذن؟

هناك من بعيد عيون تتوهج في الظلام.. غالباً هي عفاريت.. يصعب الافتراض أنها عيون بنات آوى أو كلاب.. هذه أشياء تقال للأطفال حتى لا يخافوا، لكنها بالفعل عفاريت.. الدقة العلمية تقضي بأن تعرف بهذا.

الراحة كريهة جداً.. راحة كلاب ميّة لا أكثر ولا أقل.. وهذا يدفعك إلى التفكير في مصير الـ...

اللحاد يخرج زاحفاً ويتنفس بعمق.. وفي يده الكلوب الصغير الذي زج به في الفتاحة.

جلس القرفصاء وجفف العرق على جبينه، ولم يتّظر علاء حتى يسأله:

انفجرت الثورة.

أنت تعرف التفاصيل فلن أطيل عليك في سرد أحداث تعرفها جيداً. فقط نقول إن أحداً من رجال الدحديرة لم يكن يتوقعها ولم يسمع عن موعدها.. الكل كان يومن أنها ضرورية وأنها كالعامل المتمم، لكن لم يكن بوعيه أحد أن يتباً.. وعندما قامت الثورة كانت الشرارة من شباب الطبقة الوسطى الذين يجيدون استعمال الكمبيوتر، ويعلقون صورة «جيفارا» ويحبون أغاني محمد منير وألحان عمر خيرت. فلو بدأتأثث الثورة من الدحديرة لسال الدم في كل مكان. يكفي أن يذهب حماسة ليشارك.

يوم الثلاثاء لم يكن واحد من الدحديرة في ميدان التحرير، لكن الجميع ذهبوا يوم الجمعة. والحقيقة أن القاهرة لم تر يوماً كهذا قطُّ.. كان الضجيج يتضاعف إلى عنان السماء ومعه الغاز المسيل للدموع.. وفيما بعد سوف يعرف الجميع موضوع الطلقات.

أو الفزع.. أو مات بغيبوبة سكري أصابته في القبر.. لا بهم يا برس.. النتيجة واحدة.. نحن قمنا بما يجب أن نقوم به.

قال جمال في اتعاظ وهو يطرق برأسه:

-سبحان الله.. هو كان يحب القبور والموت والأكفان.

-إذن مات سعيداً.

كاد علاء يجن.. هذان مخبولان بلا شك.

صورة مصطفى الذي يصحو فجأة في القبر ليجد أنه في الظلام والرائحة التئنة، وقد قيده بأدراج من قماش الكفن، وذقنه مكبلة بشرط.. يصرخ.. يحاول الزحف.. يضرب برأسه الباب.. لكن لا جدوى.. تمر الساعات من الجوع والظماء وربما الاختناق و... هذا هو الجنون ذاته.

دعا الله أن يكون اللحاد نصاباً أو أحمق.. هذا هو الحل الوحيد الذي يُبقي له توازنه العقلي.. وفجأة أفلتت ثعابين الجنون التي أوصد عليها باب روحه.. انطلق يركض في الظلام وسط الكلاب العاوية والحجارة والصبار والريحان والشواهد الحجرية والرخامية، وهو يصرخ بلا توقف:

-عم مصطفى إيه إيه!

كان الجميع يتحركون في ظلام صنعته الدولة من حولهم، فانقطع الاتصال الهاتفي المحمول، وانقطع الانترنت، وصار من الصعب أن تتبع معظم القنوات الغربية.

كانوا يستضيفون بشيء واحد هو الغضب.. الغضب الذي تم قمعه أعوااما بلا نهاية.

لقد انهالت عليهم في الأعوام الأخيرة عشرات الصفعات بل مئات منها. وفي كل ليلة يعود الواحد منهم برجولته المقهورة فيحاول أن يقهر بما بقي منها جسد امرأته، لكن الحقيقة أن عدداً منهم لم يستطع خداع النفس.

كيف تبصر الحب في عين امرأة تعرف أنك لن تحميها؟
 كانت العنة هي لغة العصر وهي اسم اللعبة. العنة.. القهر..
 النضوب.. اليأس.

كل طاغية جاء ليسيطر على مصر قال إن السوط هو اللغة التي يفهمها المصري، وقال إن المصري يحتاج إلى فرعون يقهره فيبني الأهرام.. هذه العبارة الخادعة قادت طغاة كثيرين إلى مصير أسود. اللحظة التي يفترض فيها الطاغية أن هذا الجسد الذي يكيل له الضربات ميت، هي غالبا ذات اللحظة التي ينهض فيها الجسد للانتقام.

عندما نهض الناس هذه المرّة بدا واضحا أنهم لن يتراجعوا، وأن غضب السنين المخزون وجد قناته التي يجري فيها، وتوحدت كل

طبقات الشعب وكل طوائفه على كراهية رجل واحد.. على نبذ نظام واحد.. على الاشتراك من مجموعة وجوه تملك كل شيء ولا تنوي الرحيل أبداً. وعلى شاشات التلفزيون انتظر الناس كلمة من أحد المسؤولين فلم يمنحوها.. إلا متأخراً جداً مع بيان مفعم بالقرف ألقاه صفت الشريف.. وإنما من نظرات حادة مليئة بالكره والماردة يرميهم بها عمر سليمان.

ومن مكان ما ولد الهاتف الشهير: «الشعب يريد إسقاط النظام». يقال إنه تردد في تونس أولاً، وسرعان ما التقى الحناجر بإيقاعه السهل...

«الشعب يريد إسقاط النظام».

* * *

حقاً ليس بوسعي أن أعرف متى تخلى حسين عن الطينبة. كان قد تدرّب بها عدة مرات في الخلاء. أطلق خمس طلقات على علب المياه الغازية الفارغة، فأصاب اثنتين.. أدرك أن الأمر ليس بهذه الصعوبة إذا أمسك المسدس بكلتا يديه لحظة الإطلاق حتى لا يهتز، وإذا ما اقترب من المسؤول جداً بحيث لا يوجد مجال خطأ.

كان غارقاً في هذه الأفكار، يستعد لأهم عمل في حياته عندما بدأت أحداث الثورة.

كان مارد عملاق يحتشد.. يحتشد قطعة قطعة وشلوا شلوا في
ميدان التحرير، وفي كل يوم كانت صورته تبدو أكثر وضوحاً واتساعاً.
وما كان حشداً من شباب غاضب تقتسمهم العين صار هياجاً شعبياً
مخيفاً، فثورة تزلزل لها الأرض.

وللمرة الأولى منذ عقود ينكشم العسس والأنكشارية وبصاصو
الوالى ويفرون.. تقلب عرباتهم وتحترق.

لم يكن الأمر يتعلق بالقضاء على مسؤول هنا أو هناك. لم يكن
يتعلق بإزالة ترس تالف.. كان يتعلق بتنفس الماكينة كلها والبدء
بنظام جديد على أساس صحيحة. غالىن يكون هناك شباب جائعون
بلا مسكن يدورون على المقاهي يعرضون الهراء الذي صُنع في
الصين. غالىن سوف يتزوج الشباب في سن مبكرة بدلاً من التمرغ
مع خيالات الجنس المريضة خلف الأبواب. غالىن يتحقق أحد
الدجاج ليزداد وزنه. غالىن يتطلع أحدهم «ال ترامادول» ليهرب من
واقع لا أمل فيه.

سوف تطير رقاب كل المسؤولين الأوغاد، وكل من جعلوا حياتك
جحيمًا، وسوف تقف أنت في وسط الميدان تصرخ مطالبًا بالمزيد.
هذه الطبتجة تقدم قطعة صغيرة جداً من الحل، بينما العملاق
الهادر في ميدان التحرير يملك الحل كله.

يملك الغد.
يملك التغيير.

يملك الإصلاح.

يملك الحياة.

اليوم أنت جزء من هذا الوجود العملاق الهادر. يدك ليست يدًا
واحدة بل مليون يد.. قلبك ليس قلبًا واحدًا بل مليون قلب.. إرادتك
ليست إرادتك وحدك بل مليون إرادة.

أنت لا تقهـر.. لا تقهـر.

أنت في مصاف أبطال الأساطير، ومن سمع أن بطل أسطورة كان
يحمل طبتجة حقيرة صُنعت في ورشة خراطة من مسدس صوت؟
كان يعرف أن اللجان الشعبية تفتـش الداخـلين إلى الميدان، لـذا
اتجه إلى صفيحة مخلفات وتخلص من اللـفـافة التي يحملـها، ثم مضـى
يشق طريقـه بين صفوف الشـبابـ المحـتـشـدينـ والـذـينـ راحـ بعضـهمـ
يتحـسـنـ جـيـوـيـهـ بـحـثـاـعـنـ سـلاحـ.

أن تـبـدـلـ مـهـتـكـ منـ قـاتـلـ إـلـىـ ثـاثـرـ لأـمـرـ مـغـرـ حـقاـ.

هـكـذـاـ دـخـلـ حـسـينـ إـلـىـ المـيـدانـ.. إـلـىـ الـكـعـكـةـ الـحـجـرـيـةـ.
وهـنـاكـ جـلـسـ وـسـطـ شـبـابـ مـثـلـهـ، وـتـبـادـلـواـ السـجـائـرـ وـعـلـبـ الـكـشـريـ،
وـضـحـكـواـ كـثـيرـاـ عـلـىـ الإـعـلامـ الـذـيـ وـصـفـهـمـ بـأـنـهـمـ جـوـاسـيسـ غـرـبيـونـ
يـأـكـلـونـ الـكـتـتاـكيـ وـيـتـقـاضـونـ أـجـرـهـمـ بـالـدـولـاـرـ.

أنت لست وحدك.

هـنـاـ أـكـثـرـ الـأـمـاـكـنـ أـمـنـاـعـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ.

وأعرف أن عليه أن يجلب عفاف معه لترى هذا المكان وهذه المعجزة.

* * *

أحبت عفاف التحرير كثيراً.

للتحرير مغناطيس لا شك فيه، يجعل من يزوره لبعض دقائق يبقى فيه إلى الأبد، وكان من الواضح للجميع أن التغيير قادم بسرعة. المعجون لا يعود إلى الأنوب أبداً مهما حاولت.. وقد خرج المعجون.. كل شيء يقول هذا مهما تظاهر النظام ورجاله بأن المعجون باق في مكانه. عفاف كانت تهتف.

تهتف ضد كل شيء تحداها وأفقرها وعذبها في حياتها. عفاف فقيرة.. عفاف تحيا بلا أمل.. عفاف تحتاج إلى البيت والزوج.. عفاف بلا أحد يدق الباب.. عفاف لا تريد الحياة. كانت كل هذه الأفكار تتلخص في عبارة واحدة موقعة: «الشعب يريد إسقاط النظام».

يدها تتمسك بأنامل حسين، وصدرها يعلو ويهبط. تتحسس أناملها المسبيحة المعطرة وتعد حباتها لا شعوريًا.

السبحة

وأعرف أن عليه أن يجلب عفاف معه لترى هذا المكان وهذه المعجزة.

السيجارة

السرنجة

السنجة

كل شيء يختلط.

* * *

وكان عصام هناك في الميدان.. لم يكن مستجداً وبالتأكيد هو قد ألف هذا كله، وهو لم ينس أنشودة الكعكة الحجرية. يعتبر أنه خبير مظاهرات، ويعرف بالضبط متى تظهر عربات الأمن المركزي، ومتى يبدأ رش الماء، ومتى يستعمل الغاز المسيل للدموع، ومتى يبدأ الضرب.. يعرف فرق الكاراتيه قبل أن يتبنّها أي متظاهر آخر. يُعرف هذا السيناريو جيداً.

لسبب ما عندما يثور المصريون يذهبون إلى ميدان التحرير، وعندما يلتاعون يركضون إلى النيل. هو رأى المصريين يركضون نحو النيل وهم يصرخون عندما تنحى جمال عبد الناصر وعندما مات: ياناصر ياعود الفل من بعدك هنشوف الذل
نعم رأينا الذل، لكن هل كان رحيل عبد الناصر هو السبب الوحيد؟

هو جلس مع الطلبة في التحرير في تلك الأيام التي يرفض الكلام عنها. لماذا يخجل؟ لأنها جزء حميم جداً من ذاته.. جزء حساس منها. عندما قرأ «صورة دوريان جراي» لـ«أوسكار وايلد»، وجد

تمنى أن يقول إن ضربات جيله هي التي أوهنت السد ثم جاءت
الضربة المماثلة لينهار كل شيء، لكنه لم يستطع، ولو قالها لما صدقه
الثوار.

هكذا لم يجد سبيلاً سوى أن ينضم للهائفين في التحرير، ويمضي
معهم.

في النهاية هي حجرة تضاف إلى حناجرهم.. تبتعد أنت عن
الصورة المكونة من آلاف النقاط المتراصة، فترى الصورة الهائلة
المخيفة لعملاق غاضب.

يعرف يقيناً أن عفاف هنا.. ربما نوال هنا.. ربما حسين هنا..
ربما جمال الفقي هنا.. ربما علاء هنا.. ربما إلهام هنا.. ربما عصام
نفسه هنا.

أن الرسام «باسيل» يأبى أن يرى أحداً لو حته التي رسمها لـ«دوريان
جري»، والسبب أنها تحمل الكثير جداً من روح الرسام. هذا مقطع
لم يفهمه كثرون من قرأوا الرواية، لكنه كان يفهمه ويحسه جيداً..
ولهذا لم يكتب فقط عن تجربة التحرير هذه.

كان يشعر أنها أيام بلا جدوى.. انهالت الضربات على الجدار حتى
تهشم الأيدي فلم يسقط ولم ينهر. ازداد الطغيان قوة واكتفت
السماء أكثر. لم يعد على يقين من شيء.. فيما بعد قرأت تحليلاً سياسياً
يرى أن مظاهرات الخبز هي التي قادت السادات لزيارة القدس.

هل زيارة القدس جريمة سياسية شنعاء؟ لو كان الأمر كذلك
فال ihtearat كانت خطأ فادحاً.

هل زيارة القدس عمل ذكي سبق عصره؟ إذن كانت المظاهرات
مفيدة.

لو كانت جريمة أو عملاً ذكياً فالنتيجة واحدة، وهي أن مصر
تنهار في كل المجالات منذ ثلاثين عاماً.. لا يرى بصيص نور،
ولا يرى القاع.

ثم فجأة حدثت الثورة، وللحظات بدا أنها ناجحة جداً، وللحظات
شعر الجميع بنشوة لا توصف...

بداله كان الثورة جاءت من سماء صافية.. حاول أن يرى فيها
بصمات جيله فلم يستطع. أينما نظر رأى وجوهًا شابة نضرة لاتمت
لجيله بصلة.

في الليلة الرابعة خرج إسماعيل.

كان كعادته يحمل السنجة العملاقة في يد والعصا في يد أخرى.
الشوارع خالية مظلمة ما عدا نباح الكلاب.. وما عدا اللجان الشعبية
التي تجلس حول النار.. دائمًا هناك إطار قديم مشتعل يلتقط حوله
الساهرون وهم يدخلون.. كل منهم يحمل شيئاً.. ربما عصا أو سكيناً
أو سنجة أو مطرقة.. أي شيء...

لا صوت يقطع الصمت سوى مرور ميكروباص مسرع،
والصراخ.. ثم يتوقف الميكروباص لأن هناك حاجزاً من حجارة
يسد الشارع، وفي الغالب يكون أعضاء اللجنة قد لحقوا به وأسعوه
ضررًا.. ثم تتكون جثة على الأسفالت...
النفوس متوتة والعنف هو السيد، وعليك ألا تأتي بأي حركة
مفاجئة أو مريبة.

هكذا مشى إسماعيل وسط هذه الحواجز والكمائن... وكان
يعرف أن معظم هؤلاء لا يدافعون عن الأمان بل يخرقونه. في «الدحيرة
الشناوي» لا يمكن أن تتصور أن كل الناس ملائكة، وبالتالي خرج
الوحش المدعو حماصة من مكمنه.. وبالتالي هو يعيش في الأرض
فساداً.. عندما كانت الداخلية بكامل قوتها لم يكن هناك من يتصدى
للحماصة، فماذا بعد أن فرغ الإطار المسمى الداخلية؟

حماصة يمشي في الأزقة الآن.. لن يرى عابر سبيل إلا وينبحه..
لن يرى رجلاً مهندماً إلا ويسلبه ماله وثيابه.. لن يرى فتاة إلا ويغتصبها

١٩

الحق أن ميّة جمال الفقي لم تختلف كثيراً عن ميّة الكلاب
الصغيرة التي كان يغرقها.

ربما يحلو لك أن تجد في الأمر عدالة شعرية ما، وربما يتغلب
ضعفك البشري فتخيل اللحظات الأخيرة التي مر بها. عن نفسي
لا أحس أي شفقة نحوه، وأرى أنه استحق كل لحظة ذعر أو ألم
عاشها.. دعك من أن اختفاءه جعل عصام قادرًا على العودة إلى
الدحيرة من جديد.. قادرًا على استكمال قصته.

أنت تعرف أن جمال يسكن في بيت ضيق أبيض للسقوط مكون من
طابق واحد، جوار محل الكاوتش الموجود على ناصية التوسانى.
جمال مطلق منذ أعوام وليس له أبناء، وكان صديقه إسماعيل يتردد
عليه من وقت إلى آخر ليدخلنا بعض الحشيش.

لم يفتح جمال لإسماعيل ثلاث ليال متعددة، ويسؤال صاحب
محل الكاوتش أكد أنه لم يرَ جمال يخرج أو يدخل منذ أيام.

٢١٢

٢١٣

مراً.. وهو في هذا كله تنين أسطوري تصاعد منه أبخرة الحشيش ويزأر.

حمسة الآن يعود إلى عنصره الطبيعي...

وسط هذا كله شق إسماعيل طريقه إلى بيت جمال، كان مرهق الأعصاب وهو يصعد في الدرج كريه الرائحة ذي الدرجات المحطمـة والمهشمـة...

ضرب على الباب مراً بلا جدوـى.

كانت الرائحة قوية تختلف عن رائحة القذارة.. هناك رائحة قذارة وهناك رائحة موت.. هذه رائحة موت قوية جداً.

هكذا رفع قدمه وركـل الباب بقوـة فانفتح.

أشاء مصباحاً واهـنا فاستطاع أن يرى الغرفة الوحيدة هنا، وكان بابها مفتوـحاً والرائحة قوية جداً.. عندما تجسر ودخل رأـى مشهدـاً يصعب نسيانـه أو فهمـه. جمال مقيد الرسغـين إلى الأمام ويدوـه أنه كان يحاول نزع الشيء عن رأسـه، لكنـ كان هذا أقوى منه. أما رأسـه نفسه فيحيط به كيس ضيق من المشمع.. وخلف الكيس يمكنـ أن ترى الوجه المحتقن الذي ارتسمـت عليه العروقـ كأنـها شجرـة.

راح قلب إسماعيل يدقـ في هـلع وغادر المكان مسرعاً وهو يتعـثر، وقررـ أن يصـمت تماماً. هو لم يأتـ ولم يـر شيئاً.

فيما بعد عـرف عـصـام بالـأمر فـوجـده يـكـمل الصـورة في ذـهـنه.. جـمال الذي فقد قـدراته الـرجـولـية يـجاـهـدـ كـي يستـعيدـها، وكـأـي سـفـاحـ وجـدـ الشـهـوةـ

في الأـعـمـالـ السـادـيةـ والمـاسـوشـيةـ.. كانـ يـغـرقـ الكلـابـ الـولـيدـةـ لـكـنـ هـذـاـ لمـ يـكـنـ كـافـيـاـ.. ثـمـ اـتجـهـ إـلـىـ تعـذـيبـ نـفـسـهـ بـ«ـالـإـسـفـكـسـيـاـ»ـ. اـكـتـشـفـ الطـرـيقـةـ مـنـ تـلـقـاءـ نـفـسـهـ وـلـمـ يـقـرـأـ عـنـهـ بـالـتـأـكـيدـ.. وـبـدـأـ يـقـيـدـ رـسـغـيـهـ وـيـضـعـ الـأـكـيـاسـ عـلـىـ رـأـسـهـ حـتـىـ يـوـشـكـ عـلـىـ الـاختـناقـ، وـبـرـىـ الموـتـ فـعـلـاـ وـمـعـهـ ذـرـوـةـ الشـهـوـةـ، فـيمـدـ يـدـهـ وـيـمـزـقـ الـكـيـسـ وـيـشـهـقـ مـاـلـثـاـ رـتـيـهـ بـالـهـوـاءـ. لـكـنـ كـتـبـ الـطـبـ الشـرـعـيـ تـمـتـلـيـ بـهـذـهـ الصـورـ عـلـىـ كـلـ حـالـ، وـبـالـذـاتـ لـهـؤـلـاءـ الـذـينـ اـخـتـنـقـواـ بـسـرـعـةـ فـلـمـ يـجـدـواـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ اـنـتـزـاعـ الـكـيـسـ فـيـ اللـحظـةـ الـمـنـاسـبةـ.

لمـ يـدـرـ جـمالـ أـنـ سـيـنـضـمـ إـلـىـ هـذـهـ الصـورـ النـادـرـةـ الـتـيـ يـحـفـظـ بـهـاـ كلـ طـبـيـبـ شـرـعـيـ كـأـنـهـ الدـرـرـ...

لمـ يـدـرـ أـنـ الـكـيـسـ سـيـكـونـ مـحـكـمـاـ لـصـيقـاـ بـوـجـهـهـ.

لمـ يـدـرـ أـنـ يـدـهـ سـتـضـعـفـ وـلـنـ تـقـدـرـ عـلـىـ أـنـ تـلـمـسـ الـكـيـسـ.

لمـ يـدـرـ أـنـهـ سـيـمـوـتـ كـالـكـلـابـ الصـغـيرـةـ الـمـخـنـقـةـ وـحـيـداـ فـيـ الـظـلـامـ، يـبـيـنـمـاـ الـلـجـانـ الشـعـيـةـ تـمـلـأـ الشـارـعـ، وـبـيـنـمـاـ مـيدـانـ التـحرـيرـ يـغـصـ بـالـزـوارـ، وـبـيـنـمـاـ حـسـيـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ يـنـامـ هـنـاكـ أـمـامـ الـجـامـعـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ، وـبـيـنـمـاـ عـصـامـ يـفـتـرـشـ الـأـرـضـ عـنـدـ مـدـخـلـ الـمـتـحـفـ الـمـصـرـيـ، وـبـيـنـمـاـ عـبـاسـ الدـلـجمـونـيـ يـلـشـمـ جـذـورـ عـنـقـ صـابـحةـ، وـبـيـنـمـاـ عـيـنـ عـمـ مـصـطـفـيـ تـنـفـجـرـ معـ التـحلـلـ، وـبـيـنـمـاـ عـلـاءـ أـبـوـ فـرـحةـ يـفـتـحـ زـجاجـةـ بـيـرـةـ أـخـرـىـ شـاعـرـاـ بـأـنـ مـثـانـتـهـ توـشـكـ عـلـىـ التـمزـقـ، وـبـيـنـمـاـ عـفـافـ رـاقـدةـ تـنـظـرـ إـلـىـ السـقـفـ الـمـتـشـقـ مـفـكـرـةـ فـيـ أـحـدـاثـ يـومـهـاـ.

* * *

هذه كانت فترة نحس تمر بها الدحديرة.

في زمن وجيز فقدوا إبراهيم وفقدوا مصطفى المزين ثم جاء جمال، فكر علاء في هذا وهو يقف في اللجنة الشعبية ممسكاً بالسكين العملاقة التي جاء بها من معمل المخللات. لو كان هذا قد حدث قبل الثورة لاهتزت الدحديرة.. لكن هذه تبدو الآن مجرد رتوش.. فثران تعثّت وتموت في كواليس المسرح، بينما المسرحية الكبرى تدور الآن على الخشبة والكل يراقبها متسع العينين ذاهلاً.

لقد رحل إبراهيم وهو يقيء دمًا.

رحل مصطفى المزين والسكنري يعثث في دمه.

رحل جمال الفقري وكيس بلاستيكي حول رأسه

لكن أحداً لم يهتم كثيراً.. لم ترتج الأرض ولم تسقط النجوم.

علاه لا يعرف طه حسين، ولا يعرف أن العملاق العبقري غادر عالمنا في ذروة حرب أكتوبر ١٩٧٣، لهذا كان نصيبي عموداً في بعض الصحف.. ولو حدث هذا في غير وقت الحرب لارتجم الصحافة ووسائل الإعلام ارتجاجاً. لكنه رحل وسط طلقات المدافع والطائرات المحترقة وهدير الدبابات، فلم يحدث رحيله الصخب المتوقع. بالطبع كان إبراهيم ومصطفى المزين وجمال أقل جدوى للعالم بكثير.

دنا منه علي زميله في معمل المخللات. ناوله سيجارة محشوة وجلس القرفصاء جوار النار المشتعلة.

لن يحدث شيء هذه الليلة.. هذا واضح.

كلهم يخافون حماصة، لكن كل الأوغاد والأشرار والبلطجية يخشونه بنفس القدر.. لا أحد يجسر على القديم هنا. سحب من السيجارة نفاثاً أطلق سحابة عميقه. كان علي يتفحص جهاز الهاتف المحمول الصيني الذي يحمله، ثم قرب الشاشة منه.. هنا أدرك علاء معنى ما يراه.

هذه الصور تم التقاطها له منذ ثلاثة أيام.. بالتحديد في الخرابه.. بالتحديد مع صفاء. كان قد انفرد بها لنصف ساعة. الكل ينفرد بها.. والطريف أنه لم يرِ صفاء فقط وهو معها بل كان يتخلّى عفاف.. يعني عفاف وقوع عفاف وضحكة عفاف وبشارة عفاف.. وكان الوقت عصراً والمكان خالياً والتصوير ممكناً.

لم يدر أن هناك من التقاط له هذه الصور.. لا بأس بها على الإطلاق.

أطلق سبة:

- يا ابن الـ...

أطلق على ضحكة جديرة بالحشاشين، ثم بصدق وقال:

- سوف أفضحك وأفضح أهلك بهذه الصور.

لكن علاء أخرج هاتفه المحمول وتوسل لعلي:

- هلم.. أرسلها إلى.. هذه الصور!

- هل تمزح؟

- لا.. لقد راقت لي.. أريدها!

نظر إليه علي في حيرة وذهول.. فقط في «دحديرة الشناوي» يمكن أن تلتقط صورًا فاضحة لأحدهم.. صورًا تصلح للابتزاز، ثم تكتشف أنه فخور بها جدًا!

هكذا جلس الرجال يدخنان ويتبادلان هذه الصور الفاضحة التي يراها علاء مداعنة للفخر. كان ينوي أن يريها للجميع دليلاً ثابتاً على الفحولة وعلى أنه بارع و«صايع». بالنسبة إلى معظم الناس ليست لدى هذا الفتى موهبة أكثر من براعته في تقطيع المخلل وفي شرب عدة زجاجات من البيرة، لكنهم اليوم سيكتشفون أنه فعل كذلك. كانوا مستمرين في هذا عندما تصلب علي.

همس في رعب:

- خذ الحذر.

رفع علاء عينيه فرأى هؤلاء الثلاثة قادمين مدثرين في الظلام.. يرى لفافات التبغ تشتعل كالجمر في أفواههم، ويدرك أنهم ضخام الجثة، وأنهم لا يخشون شيئاً.. الواقع يخشاهم الناس وهم لا يخشون أحدًا.

حماصة!

هذا الذي يمشي في الوسط هو حماصة بلا أدنى شك.

لقد رأه ست مرات في حياته، وفي كل مرة كان يبدو مختلفاً عن المرات الأخرى.

نهض الرجالان في توتر ورعب، لكن الرجال الثلاثة لم يعطشا السير. كانوا قادمين من مكان ما.. ذاهبين إلى مكان ما.. هكذا الأمور. غالباً يقصدون السرجـة كذلك.. والأمر جدي خطير لا يحتمل الإرجاء.

فقط لوح الذي هو حماصة بيده:
ـ سامو عليكم.

ومعها بالطبع «سلامو عليكم» بلهجة الشوارع.. لهجة الخشن الذي لا وقت لديه لنطق حرف رقيق مثل «اللام».

ثم غاب الرجال قبل أن يجد أحد المذعورين الفرصة للرد.

* * *

إبراهيم أبو غصيبة كان كذلك في حال سيئة.

عندما هبطت طائرته الصغيرة البيضاء من طراز «بيتشكرافت بونانزا» في ذلك المطار الصغير، كان شاهين يتظره.

نزل إبراهيم ومعه ناردين.. أشعل سيجاراً غليظاً واتجه إلى الاستراحة.. يريد شرب كوكتل بأي ثمن.

شعر ناردين مبلل بعد الحمام الذي أخذته في الصباح. هذا الإيحاء الريان الجميل بعد ليلة حب ينعش روحه، لكن وجه شاهين الكالح وتوتره يطردان أي استمتاع.

- هي لم تصل لدرجة ثورة بعد.

قال إبراهيم وهو ينظر إلى الأخبار على شاشة هاتفه المحمول:

- أعداد غفيرة.. ما الذي يمنعك من اعتبارها ثورة؟

- لم تفرز مطالب بعد.. كراهية مبارك وحدت بين كل هؤلاء وقربت ميلتهم. هم جمیعاً لا يريدون مبارك ويتمتنون الخلاص منه، لكن لا قائد لهم. لا مطالب أخرى لهم.. هم غاضبون فحسب.

ففكر إبراهيم قليلاً.

نظر إلى أنامله المترفة والرجمة في كفه.. هذا الكابوس اللعين الذي يزوره منذ فترة ويرى نفسه فيه فقيراً مريضاً يقيء دمماً، ويحمله الرعاع إلى المستشفى العام حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة. هذا حلم حقيقي بشكل مروع.. له رائحة وطول وعرض وارتفاع.. ترى أيهما أصدق؟ هل هو ثري يحلم بالفقر.. أم هو فقير ميت يحلم الآن في قبره؟

تذكر في طفولته عندما مر مع أبيه جوار المقابر ليلاً.. سمع صوت أنين.. قال الأب: إن الموتى يحلمون الآن. أربعته الفكرة كثيراً لكنها صارت من مُسلّماته وما زال لا يعرف يقيناً إن كان ميتاً يحلم بهذا كله أم لا.

على كل حال يجب أن يواصل الحلم بقواعدة.
الحلم الذي يوشك على أن يصير كابوساً.

هذه اللحظة قد رأها في كوايسه مراراً. ثورة الجياع.. المقصلة في ميدان التحرير.. الموت للأستقراطيين.. رأى ذات مرة فيلمًا يدور في فرنسا وقت الثورة وأصابه الهلع.

قال شاهين وهو يصب لنفسه كأساً أخرى:

- سوف تنهال الشكاوى على النائب العام. بلاغات.. بلاغات.. بعض الطلقات سوف يمر جوار أذنك.. البعض فشتك.. البعض لن ينطلق. لكن بالتأكيد هناك طلقة ستتجدد طريقها إلى قلبك.. وسوف تجد نفسك واقفاً أمام القاضي تقسم على أنك بريء..

- والحل؟

نظر شاهين إلى السماء التي تبدو خلف الواجهة الزجاجية ورشف رشفة من الكأس وقال:

- الفرار.

- إلى أين؟

- بعض الناس يفرون إلى تحت.. بعضهم يفرون إلى أعلى..
بعضهم يفرون إلى بريطانيا.

قال إبراهيم في شم:

- أنا لن أفر من مجموعة صبية جمعوا بعضهم عن طريق الانترنت.

- هذا موقف شجاع لكنه لا يساوي بصلة.. إن مصر تتغير بسرعة.. لأسوأ أو لأفضل لا أعرف.. لكنك في النهاية سوف تجد أرضاً أخرى غير التي تقف عليها الآن، وفي ٩٠٪ من الاحتمالات سوف تعثر وتسقط.

كان إبراهيم يفكر بعمق.

لو كان قد مات فعلاً فلا مشكلة.. لن يضره شيء، لكن لو كان حياً وسط هذه الظروف فسوف يظفرون به.. معاملات كثيرة له ليست نزيهة تماماً وسوف يحلو للجميع أن يمزقوه.. إنه الحقد الطبيقي والحقد الاجتماعي ولا شيء سواهما، لكنهما سيتخذان سمت البحث عن العدالة، رأى ذات مرة حماس مجموعة من القوم التائرين للأخلاق، يحاصرون شقة فيها فتى وفتاة.. أقسم لنفسه: إن سبب الحماسة هو الحقد ولا شيء سوى ذلك.. لماذا يظفر بها هذا الفتى الرقيق وأنام أنا وحدي؟

بريطانيا.

لأنه.. الحياة في أرض القباب عدة أعوام ينفق فيها ما كسبه من مال، يأكل الطعمية في «أكسفورد ستريت» ويدخن الشيشة ويتوارد مع تجمعات المصريين، وتكون هذه علامه على أنه ابن بلد وأصيل.. ثم يظهر في التلفزيون بعد أعوام ليكي قائلًا إنه يفتقد مصر أم الدنيا فعلاً.

كان يفكـر.

ناردين كانت كذلك تفكـر في تلك الحشود الغاضبة في التحرير.. مدـت يدها لتمسك بيده وقالـت متـوسـلة: -لن بـقـى هـنـا.. أـرجـوكـ! نـظر إـلـيـهـا.

بالـفـعلـ كانـ يـذـكـرـ الجـمـوعـ وـشـهـوـةـ الـاـنتـقامـ.. يـذـكـرـ الصـراـخـ وـهـتـافـ «الـشـعـبـ يـرـيدـ إـسـقـاطـ النـظـامـ». لـاـ بـدـ مـنـ الفـرارـ.. لـاـ بـدـ. لـكـنـ لـيـتهـ يـعـرـفـ هـلـ هـذـاـ كـلـهـ حـقـيقـيـ أـمـ هـوـ نـائـمـ يـحـلمـ... فـيـ مـكـانـ ماـ.. فـيـ مـقـبـرـةـ ماـ.. تـحـركـ الفـكـ الذـيـ بـلـيـ تـعـاـماـ، وـصـدرـ صـوتـ شـبـيهـ بـصـوتـ الـأـنـيـنـ.. أـثارـ هـذـاـ ذـعـرـ أـحـدـ الـمـارـةـ كـثـيرـاـ فـرـاحـ يـحـوـقـلـ وـيـسـمـلـ.

ضحيتك للجدار.. إنها تفعل أي شيء وقتها، ودفاعها عن نفسها غير متعقل وغير متحفظ.. ثمة لحظة يجب أن تتوقف فيها، ونظام مبارك لم يعِ هذه الحقيقة ولم يُحسن تبيان اللحظة. كانت ثقتهما في عصا الأمن المركزي مطلقة.

بذور الثورة كانت موجودة في هذا كلّه.

٤٠

في نوال التي تشتهي نصف دجاجة.

في حسين الذي يحاول بيع الهراء.

في عفاف التي احتفظت بجسدها لأنّه سلاحها الوحيد.

في إبراهيم الذي عاش حياتهين في آن.

في عباس الذي يحمل على عاتقه كيف الدحدورة كلّها.

في جمال الذي...

في عصام نفسه الذي فشل في كل تجارب حياته، واليوم يحاول أن يصب فشله في زجاجات يبيعها، ويحاول أن يعتبر نفسه من أبناء الثورة مع أنه من جدودها أو أسلافها!

حتى حماسة هو جزء من الصورة الكلية...

أشعل لفافة تبع واتجه إلى النافذة وراح يرقب المدينة الخالية.

عاد إلى المنضدة الصغيرة التي وضع عليها لفافة فيها مكرونة بالبساميل وبعض المخللات وزجاجة ماء. بدأ يلتقط عشاءه شاردًا.

هل هو عشاء أم غداء؟ لا يذكر.. هو يأكل فقط عندما يجوع،

عندما تغرب الشمس.

عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.

عندما تستطيل الظلّال قبل أن تفنى.

عندما يبدأ موعد سجنك الخاص.. السجن اليومي الذي يبدأ كل ليلة عندما تغرب الشمس، وعندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائم لك، وعندما تستطيل الظلّال قبل أن تفنى.

في الشقة الخاوية يفرد عصام الأوراق أمامه ويراجع البروفات.

عندما يعيد البحث في كل الصور السابقة فإنه يجد الثورة موجودة تتّظر.. كأنّها شبح هناك في ركن الصورة لا يلاحظه أحد، ولم يفطن أحد إلى أنه موجود. يمكنك أن تشم رائحتها في كل شيء وكل شخصية. قراءة الأوراق السابقة تؤكّد شيئاً يقينياً: هؤلاء القوم ما كانوا ليقوّا هكذا إلى الأبد، وما كانوا ليتحملوا أكثر.

ظهورهم كانت للجدار.. وعندما تهاجم فعليك ألا تجعل ظهر

ثم ابتعد في الظلام لاهثاً. لقد قضت الثورة على الشرطة لكن من قال إنه يهاب الشرطة؟ هنا يوجد قانون من نوع خاص ورجال شرطة لهم طابع فريد.. قانون الغاب الذي يسود هذه البقاع أقوى من أي قانون في العالم.

فجأة وجد نفسه على الأرض. كان هناك كلب يعوي محاولاً الوصول إلى عنقه، وكان هناك نصل سيف تحت عنقه. على الوريد بالضبط...

ثم بدأ يتبيّن الأمور أكثر، فأدرك أن من يمسك الكلب هو حمادة.. مطرب الفرق الذي هو صهر إبراهيم.

أما من يضع السيف على أوردته فهو صلاح نفسه. كان صلاح يلهث ورائحة أنفاسه لعينة، هي مزيج من البوظة والحسيش والبرشام والكفتة والشاي الثقيل. عرف عباس على الفور سبب هذا الهجوم.

في الوقت ذاته كان هناك شخص ثالث يقيّد قدميه بحبل غليظ.. وشعر بمن يقلبه على صدره ومن يقيّد يديه إلى ظهره.. لقد وقع في الشرك.

- الجركن.

كان البطل يتذبذب ليغمر جسده.. شم رائحة الكيروسين. كلا. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً.. هذا كابوس.

وهكذا قد يمر يومان أو ثلاثة من دون أن يذوق الطعام.. وقد أدرك أن معظم سراويله متهدلة تسقط منه، والحزام يحيطها إلى شيء ككيس مضرور على دراهم.

يجب أن يأكل أكثر...

يجب أن يبقى حياً المدة أطول، حتى يعرف ما استسفر عنه هذه الثورة. ثورة شعبية؟ المرء لا يرى أكثر من ثورة شعبية واحدة في حياته لو كان محظوظاً. تذكر ثوار الماضي والقصائد التي كانوا ينشدونها حول الكعكة الحجرية.. ترى أين هم الآن؟ وماذا يقولون لو رأوا هذه المشاهد؟

* * *

عندما فرغ عباس الدلجموني من قضاء شهوته، وعندما لم تعد في جسده ذرة رغبة، لم شفتني صابحة في نهم.. شم رائحة التبغ المختلط بالحسيش.

قالت له في وهن:

- لماذا لا تبقى أكثر.. أمامنا حتى الفجر؟

- لقد ظفرنا بالستر وعلينا ألا نختبر حظنا أكثر.

كان يؤمن أن الستر هو سبب عدم افتضاح أمره.. لأن الله يرعاه في هذا الموضوع. منذ صباح اعتقد أن يمزج اللصوصية والخيانة بالدين في مزيج غريب، وحتى اللحظة كان يردد وهو يحمل البرشام: «يا رب استر».

للجميع. لقد كان هو من رأى عباس يغادر العشة في أكثر من ليلة وقد ارتدى عباءة الريبة وتدثر بثياب المتسللين.. كان من الهين جداً على أي طفل أن يعرف من أين جاء ولماذا يخفف السير في الظلام.

فجأة جاء الصوت:

- فكوه!

تصلب الجميع...

لن يجسر رجل على وجه الأرض على أن يحاول إنقاذ عباس إلا حماصة. ومعنى هذا أن الصوت صوته، وكان حمادة يعرف من هو حماصة لكنه لا يذكر أنه رآه من مسافة قريبة.

كان واقفاً في الظلام بين رجلين من رجاله، وفي فمه تراقص شعلة من لفافة التبغ التي يدخنها.. وكان غاضباً.. الدخان قال إنه غاضب.

قال صلاح بصوت أقرب إلى البكاء:

- ابن الزانية يبعث بذيله مع امرأتي.

- لأنك.... وامرأتك.... لقد وجد الطريق لبيتك مفتوحاً، لكن أولاد الحلال جاؤوا وأخبروني في السرجه.. طار الدماغ الذي أتعبني حتى عملته.

- كان يتكلم عن الأخوية والعيش والملح.

قال حماصة في الظلام:

قال صلاح وهو يضغط بالسيف بقوة:

- تعbeth من وراء ظهرني يا ابن الزانية.. تستغلني بينما لا تكشف عن الكلام عن الأخوية والجدعة.

بحث عن صوت يخرج من حنجرته فلم يقدر.

راح يشن كطفل.. في النهاية استطاع أن يبكي:

- صلاح.. سامحني.. مظلوم.. والله العظيم مظلوم.

وهو كلام فارغ بالطبع لا يقنع صلاح ولا يقنعه.. هذا نوع من الهديان الذي يمارسه الذين يقفون على طبلية المشنقة والحبيل حول أعناقهم. ومن مكان ما سمع صوت عود ثقاب يحتك مشتعلًا.

كان يعرف أنه سيموت قتيلاً.. لا شك في هذا.. رأى نهايته منذ عشرة أعوام. لكن أن يموت محترقاً وهو حي فهذا شيء تجاوز كل كوابيسه.

- صلاح.. اذبحني هنا والآن.. لا نار أرجوك!

قال صلاح في قسوة:

- هذه النار سوف تبرد ناري أنا.

الآن ذاب كل ثبات عباس وغموضه وفتنته.. راح يولول بصوت يعزق نياط القلب كالنساء.. لا.. بل ككلب مذعور يضع ذيله بين فخذيه.

حمادة كان يراقب المشهد في تلذذه.. كان بالفعل يتمنى أن يرى ما ستصل إله الأمور، ويعرف أنها ستكون تجربة مثيرة يحكى بها

- نحن تاجر في الصنف وفي كل المحرمات.. لا تحذرني عن الشرف بيمنا يا برنـس .. ما أعرفه هو أنني أحتاج إلى هذا الفتى، ولهذا استفك قيوده وتجلبه لي سالمـا .. لو آذته لاحتـرقـتـ بـنـفـسـ الطـرـيقـةـ هـنـاـ وـالـآنـ.

- حماصـةـ .. أناـ ..

- أناـ لاـ أـطـلـبـ الـطـلـبـ مـرـتـيـنـ.

في صمت وأسى مد صلاح ذبابة السيف وقطع الحبال الليفية التي تقيد كاحلي وساعدني عباس. ثم نهض كاسف البال يراقب غريمـهـ وهوـ يـتحـسـنـ معـصـمـيهـ وـينـهـضـ .. كانـ عـبـاسـ يـحاـوـلـ فـتـحـ عـيـنـيـهـ بصـعـوبـةـ منـ كـلـ الـكـيـرـوـسـينـ الـذـيـ أـغـرـقـ وـجـهـهـ وـشـعـرـهـ.

قال حماصـةـ:

- لا تنس نفسك وتشعل سيجارة.. نحن تجار يا برنـس .. وفي التجارة لانهـتمـ بأـمـورـ شـخـصـيـةـ كـهـذـهـ .. انهـضـ يا عـبـاسـ وـابـتـعدـ.. ابتـعدـ عنـ صـابـحةـ .. وأـنتـ ياـ صـلاـحـ اـبـتـعدـ عنـ عـبـاسـ .. لوـ أـصـابـ مـكـروـهـ وـاحـدـاـ منـكـماـ لـأـحـرـقتـ الآـخـرـ حـيـاـ.

ثم أشار إلى صلاح بحركة معينة:

- اذهب ومزق ظهر امرأتك من الضرب.. اركـلـهاـ والـكـمـ عـيـنـهاـ .. سوف تحـبـ هيـ ذـلـكـ .. وسوف تلقـيـ أـنـتـ عنـ كـاهـلـكـ عـيـنـاـ .. وـوـسـطـ الـظـلـامـ وـالـضـوءـ الـخـافـتـ الـقادـمـ منـ مـصـبـاحـ مـعلـقـ فيـ عـمـودـ

النور ابتـعدـ الرـجـالـ وـمـعـهـ عـبـاسـ .. سـرـعـانـ ماـذـاـبـواـ فيـ مـكـانـ ماـوـسـطـ قـضـيـانـ القـطـاعـ الـمـظـلـمـةـ.

وـجـدـ صـلاـحـ نـفـسـهـ وـمـنـ مـعـهـ وـحـيـدـينـ يـتـبـادـلـونـ النـظـرـاتـ. قالـ وـهـوـ يـشـعـلـ لـفـافـةـ تـبـغـ:

- تـأـخـرـناـ أـكـثـرـ مـنـ الـلـازـمـ .. لـوـ تـأـخـرـ حـماـصـةـ نـصـفـ دـقـيقـةـ لـوـ جـدـ كـوـمـةـ ثـيـابـ مـشـتـعـلـةـ.

فـكـرةـ صـابـحةـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـ هـذـاـ الـوـغـدـ كـانـ تـثـيرـ جـنـونـهـ. تـفـاصـيلـ جـسـدـهـ الـتـيـ يـعـرـفـهـ كـظـهـرـ يـدـهـ يـعـرـفـهـ عـبـاسـ كـذـلـكـ .. أـيـ عـارـ؟! وـمـعـ هـذـاـ شـعـرـ بـنـوـعـ غـامـضـ شـرـيرـ مـنـ التـلـذـذـ لـلـفـكـرـةـ وـأـثـارـ هـذـاـ رـعـبـهـ مـنـ نـفـسـهـ .. أـتـرـاهـ لـيـسـ رـجـلـ حـقـاـ؟!

قالـ حـمـادـةـ:

- مـنـ حـسـنـ حـظـكـ أـنـاـ لـمـ نـفـعـلـ .. كـانـ حـماـصـةـ سـيـتـقـمـ، وـأـنـقاـمـهـ أـعـنـفـ مـنـ الـحـرـقـ أـحـيـاءـ .. بـيـنـيـ وـيـنـكـ .. بـيـنـ الـ .. هـذـاـ لـنـ يـقـتـرـبـ مـنـ بـيـنـكـ إـلـىـ الـأـبـدـ، وـفـيـ الـغـالـبـ لـنـ يـقـتـرـبـ مـنـ أـيـ اـمـرـأـةـ فـيـماـ بـقـيـ مـنـ عـمـرـهـ .. لـقـدـ بـلـلـ ثـيـابـهـ خـوـفـاـ.

* * *

الـرـجـلـ سـيـتـكـلـمـ الـآنـ.

الـرـجـلـ سـيـتـكـلـمـ الـآنـ.

واـحـتـشـدـ الـقـومـ الـمـتـشـكـكـونـ الغـاضـبـونـ حـولـ أـجـهـزةـ التـلـفـزـيـونـ،

- قد حصلنا على كل شيء.. بيني وبينك الرجل عدّاه العيب..
سوف يرحل ولن يورث الولد.. انتهى كل شيء...
ومن عدة أماكن تعالت أصوات موافقة.
أنتم مخابيل.. منذ متى يصدق هذا الرجل الذي أعطى عشرات
الوعود من قبل وأخلفها?
لن يرحل.
لن يرحل.
لن يرحل.
وبعد شهر سوف يكي أعضاء مجلس الشعب حرقة ويتسلون
له أن يبقى فترة أخرى، وأن يأتي بابنه، وأن يصفونا على أقوتنا، وأن
يغرق ألف عبارة ويهدم ألف دويقة على رؤوس من فيها.. وسوف
يقبل على مضض ويعلن أنه لم يختار المسئولية لكن المسئولية هي
التي اختارته.

سوف تعودون إلى دياركم فيخرج العسس من الجحور، ولسوف
يمزقون كل من كانت له علاقة بالثورة أو امتدحها أو أيدها أو لم يشتمها...
سوف يتسمون ببيوتكم وأفواهكم بحثاً عن رائحة هتاف ضد الرجل..
سوف يفتثرون أسرتكم وغرف كراركم وفريزر الثلاجة وثياب نسائكم
الداخلية وضمائركم.. ولسوف يعرفون.. ولسوف يتحول ميدان التحرير
إلى حلبة سيرك روماني يلقون فيها الثوار إلى الأسود.

سوف يُحكم قبضته أكثر ويعاقب الجميع، ولسوف يفهم رجاله

ودارت كراسى المعسل مع الشاي، ولاحظ حسين أنهم لم ينسوا
أن يجلبوا السلاح معهم مع أنهم جالسون في المقهى.

تكلم الكثيرون عن الرجل. لاحظ حسين أنهم لم يتخالصوا بعد
من عقدة الأب.. الأب الذي عليك أن تتحمل ما يصنعه بك مهما
صفعك ومهما أهانك وبصق في وجهك. الاحتجاج عليه يدل على
انعدام الأصل.. وأدرك كذلك أنهم يشعرون في داخلهم برغبة خفية
في أن يفشلوا ويعاقبوا... لقد ثاروا على الأب لهذا هم يتمسون رؤية
العدالة الشعرية المتمثلة في أن يتحققوا.

أنتم مخابيل.. لقد استطاعوا ترويضكم بعد كل أعوام القهر هذه.
الرجل ليس أبي ولن يكون.. أبي حاول جاهداً أن يطعموني ويكسوني
وفشل لكنه مات وهو يحاول. أبي لم يبع دمي ومستقبلي ولم يغلق
أذنيه أمام توسلاطي.

يأتي خطاب الرجل أخيراً.. يتكلم بطريقته المعتادة الرتيبة المملة
التي تحيل كل حرف من اللغة العربية إلى بروفة بصقة، لكن من
كتب له الخطاب ثعلب ذكي... لقد لعب بالفضيبل على وتر الأب
المكلوم هذا...

كان حسين ينظر في رعب إلى الوجوه فيراها قد بدأت تلين،
وللحظة اختلست شفة إبراهيم الدلجموني تأثيراً.
عندما انتهى الخطاب ساد الصمت.

بعد لحظات قال أحدهم:

كل أخطاء ينابير، ولسوف يوفدون الوفود إلى الولايات المتحدة
لدراسة منع ثورات أخرى في المستقبل.

هذه الفرصة الذهبية لن تتكرر ثانية إلا بعد مائة عام.

عندما رأى أن الجالسين في المقهى يجلسون صامتين انطلق
يجرى في الشوارع.. انطلق يجري نحو التحرير..
كان يلهث.

لا يدرى من أين ظهرت عفاف ولا سبب وجودها في الشارع الآن.
لا يعرف كيف اعتصر أصابعها بين أصابعه وانطلقا يجريان معاً.
كانت تلهث مثله وكانت تتشنج.

لم تكن ترى الأمور بهذا الوضوح، لكنها كانت تشعر أنهم
مخدوعون.. هناك شيء جميل ظفروا به ويوشك على أن يزول.
وفي التحرير بدأ كثيرون يرحلون.. بدأ الزحام يقل.. وبدأ جدل
طويل حول وجوب أن يتنهى هذا كله.

في الشوارع الجانبيّة التي تقود إلى التحرير كان حسين يجري،
وعفاف تركض معه.
كانا يقتربان.

أنتم تعرفون باقي القصة على كل حال. لا داعي لأن أحكي
التفاصيل كلها.

هناك هذا الحشد من البلطجية الذين وقفوا يعترضون طريق
الذاهبين إلى التحرير، ويقذفون بالشئام بلا انقطاع. في أيديهم
أسلحة بيضاء كأننا في مجزر آلي.. وهناك ذلك السلاح الذي صار
رمز المرحلة: السنجة أو الكزلك.

أنتم تعرفون أن حسين تقدم في ثبات وطلب أن يفسحوا له الطريق،
لكن أكبر الواقفين، وهو رجل يلبس سويتاً من الجلد المزيف وطاقة
صوفية ذات أذنين تذكرك برأس الحمار، هذا الرجل هو من أصدر له
الأمر بالتراجع، وشفع الأمر بشتيمة.

كان يتكلم بقرف واشمتاز شديد، بحيث شعر حسين بأنه
لا يجسر على الرحيل.. آخر شيء يمكن أن يفعله هو أن يرحل.

تقدم خطوة إلى الأمام أكثر ورفع يده ليبدأ الشجار والتحدي.
هنا نفذ صبر البلطجي، ويداوه حسين سخيفاً جداً ورقيعاً وضعيفاً
ولزجاً كذبابة.. فهو بالسيف على بطنه في ضربة عرضية بارعة.

أنتم تعرفون ما حدث بعدها وكيف صرخت عفاف، بينما هو
حسين ميتاً مرة واحدة.. لم يقل أي شيء، أو ينظر غير مصدق، أو يلقى
نطرات لائمة كما يحدث في السينما. لقد كان رحيله صاعقاً ومفاجئاً.

وحتى عندما تكون على الأرض بدا الجرح في بطنه صغيراً جداً
لا يكفي لموت إنسان.. على طريقة «الديفوه» الشهيرة عندما تكون
وبرات قصيرة جداً في سجادة فتباع بربع ثمنها.. لقد صار حسين
«ديفوه» مع أنه يبدو سليماً للعين معروفة الخبرة.

هي التي ضربت رأس البائع المنحرف، أو هي التي تم إنزالها علامة على الثورة.

نحن نتحدث عن السنجة.. السلاح الأبيض الشبيه بالسيف. السنجة التي أحكمت قبضتها على مصر وصارت لغة العصر.

كانت عفاف تودع العالم.. وترك她 رسالةأخيرة تقول إنها انتحرت بسبب السنجة.

الآن يمكننا أن نعرف ما قصة هذه السنجة.

عفاف كانت تصرخ بلا انقطاع، بينما تعاون ثلاثة شبان على حمل حسين والابتعاد به عن المكان.. لكن أقلهم خبرة كان يعرف أن هذا جهد ضائع يتم من منطق إكرام الميت دفنه، لا من منطق إنقاذ مصاب.

لقد خسرت الصين خسارة كبيرة. هناك عشرات المسابح والأقلام المعطرة والكتشافات الصغيرة والمقابس والأمشاط وألات الخياطة الصغيرة لن يُباع أبداً.

أما عن شركات المشاركة في الوقت (Time sharing) وشركات الموسوعات وكل الشركات ذات المهام العاشرة فخسارتها لا يمكن وصفها بكلمات..

* * *

الشكل!

* * *

وقف عصام أمام الجدار يحاول أن يقرأ الكلمة:
السنجة

إذن كانت الكلمة هي السنجة منذ البداية.. السنجة التي مزقت حبيبها في لحظة. كذا يبدو الأمر منطقياً أكثر من السبحة والسيحة والسرنجة.

القصة في هذه الصيغة قابلة للهضم، أكثر من أن تكون السنجة

البحر يمتص الحرارة طيلة اليوم ثم يتخلى عنها في الليل عندما تبرد الأرض.

قال مراد وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان:
- قلت لك إن شيئاً ما سيقع.. وقد وقع فعلاً.

قال عصام مصححاً:

- لم يقع.. بل هو يقع الآن.. وهو مستمر. لكن النهایات الوردية ما زالت نائية، فهذه ثورة لم يحكم من صنعوها، وإنما تولى غيرهم الحكم بالنيابة.. إن من ثاروا أشبه بشخص استطاع أن يستتبّتْ نبتة نادرة واهنة، وهو يخشى أن يستلبه أحدهم إياها أو يدوس عليها أو يهشمها، وهكذا يستمر الغليان والتوتر.

- الديمقراطية لها ثمن باهظ.. ربما يصل هذا الثمن إلى الحروب الأهلية ذاتها. سوف تحتاج إلى أعوام من الصراع.

لسبب ما تذكر عصام وجه نوال.. تذكر وجوه «دحديرة الشناوي». خطر له أنه من القسوة أن تطالب هؤلاء بتحمل أعوام أخرى من المعاناة والبؤس. في الوقت نفسه يشعر أن الكلام سهل، وأن إشعال حماس الجماهير هين.. فقط من يشعرون حماس الناس لا يحدث لهم شيء أبداً، ولا يفقدون أرواحهم أو عيونهم. إن حروف لفظة «ثوروا» هي خمسة أحرف.. يمكن أن تكتبها في خمس ثوانٍ وتنام راضياً عن نفسك. هل كتب لهذا البلد التensus أن ينهض.. أم أنه سيظل في المستنقع وكلما حاول النهوP لم يوجد ما يتمسك به؟

٤١

عندما تغرب الشمس.
عندما يكف الأصحاب عن تقديم عزائهم لك.
عندما تستطيل الظلال قبل أن تفني.
عندما يبدأ موعد سجنك الخاص.

في المنتدى الثقافي التاسع لشباب الانطلاقة الرابعة للبيبل الأول لأدباء الأقاليم (أو شيء كهذا).. جلس عصام جوار مراد في الشرفة الضيقة التي تطل على الشارع.. من خلفهما تهدأ أصوات الشعرا يلقون قصائدتهم الوردية غالباً، والتي تداري رداءتها بالكثير من الغموض والظهور بالعمق.

البحر يهدأ من بعيد مفعماً بشجن غريب.. يشعر بأنه يختنق وثمة حبات عرق عديدة على جبينه. وتذكر عصام ما تعلمه في المدرسة قديماً من أن الطقس يكون حاراً جوار البحر ليلاً. إن

لا يُعرف.. بالفعل لا يُعرف.

علمته تجارب شبابه أنه لا شيء يحدث أبداً، والحق لا يتصر
أبداً، ودماء من يموتون تذهب هباءً، والغد أسود من اليوم داثماً. فهل
حان الوقت لهذه العقيدة المشوّمة أن تزول؟

خلياً دماغه صارت حُبلٍ بالأفكار. هكذا لم يتحمل أكثر.. قال
لمراد إنه راغب في الانصراف.. لديه أعمال يجب أن يقوم بها.
سؤال مراد:

- متى أراك ثانية؟

- ربما الأربعاء أو الخميس.. معك نسخة من المفتاح. يمكنك أن تمضي الوقت في الشقة كما تشاء لو لم يكن موجوداً، لكن لا تحضر نساء من فضلك.

ابتسم مراد في خبث. لم يكن يعرف أي تفاصيل عن نشاط صاحبه الجنسي، وكان يعتبر هذه علامة غير صحية.. هذا يدل على أنه عالم أسود مفعم بالعقد. لكنه كان يعتبر أي مطلق شخصا لا يفيق من دوامة النساء المحيطة به. لهذا لم يحب كثيرا فكرة أن يمارس عصام ما يرافق له بينما يضع القيود الأخلاقية على من حوله، وقرر ألا يتفذ هذا المطلب الأخير.

لقد انقطعت عفاف عن العمل أسيوغاً كاملاً.

لم تذهب إلى أي مكان ولم تتكلم مع أحد.
كانت مشاهد السنجة وهي تمزق أحشاء حسين هي رفيقها الوحيد،
وقد أدركت أن الكون كله يصلح شاشة عرض للمشاهد الشنيعة التي
نريد نسيانها.

بالنسبة إلى الناس لا أحد يفهم سبب لوعتها وبكائها.. ليست لها صفة رسمية من أي نوع تبرر أن تكون هناك في داره أو أن تحضن أمه البكرة.. لربما يعزّيها أحد بالتأكيد.

تمشي في الطرق حاثرة.. لا تعرف إلى أين هي ذاهبة ولا متى تعود. فقط تمشي وترجع المشاهد القاسية التي عاشتها، وفي بعض الأوقات تجلس على الرصيف كأنها أصيّت بالبلاء فجأة.. تحدق في الفراغ.

لم تعد إلى التحرير قط.. لكنها أدركت أنها عائدة عندما تستجمع قواها من جديد. حسين مات وهو يحاول الوصول إلى التحرير، وهي ستفعل هذا...

كانت تسمع أخباراً متناطحة من كل صوب. عرفت أن الساعات التالية لمصرع حسين صارت جحيمًا وأن الميدان صار ساحة معركة من العصر الجاهلي، حيث الجمال والبغال تتصارع مع الثوار، والرخام المهشم يطير في كل صوب.

عرفت أن مبارك لم يرحل بعد، وأن الجيش يسيطر على البلاد.

بصعوبة فهمت الموقف.. الرجل يتظاهر بأنه نائم، لكنه يغرس مطواة بشكل خفي في ضلوعها.. لا يعرف الحقيقة سواه وسواها.. يده مختفية تحت مستوى المقعد.

سمعته يقول بصوت كالفحيج:
ـ صـهـ.. سـوـفـ تـنـزـلـ مـعـاـ عـنـ السـرـجـةـ.. أـيـ ضـوـضـاءـ سـوـفـ تـنـهـيـ
ـ بـأـنـ...

وازداد ضغط النصل أكثر...

ادركت أنها وقعت في الشرك.. بدا لها أنه من الممكن أن تصرخ، لكنه سيبدأ بتمزيق اللحم وسوف يحدث ضرراً لا شك فيه.. دعك من أنها ميزت نبرة الجنون والمخدرات في صوته. سوف يشوهها تماماً قبل أن يفعلن أي واحد في الميكروباص إلى أي شيء.. في النهاية سيحولونه إلى عجين.. لكن بعد ماذا؟

ومن مقدمة السيارة التفت ذلك المعجب كما هي عادته. نظرت إليه وهمست بصوت غير مسموع:

ـ مطواة.. مطواة!
ـ لكنه نظر إليها بغيء ثم عاد ينظر أمامه.

كان الذي يهددها يجيد دوره فعلاً.. مجرد رجل منهك نائم لا يعرف ما يدور من حوله. هكذا ظلت متوتة.. تنظر حولها في ذعر باحثة عن حل ما.

كانت تسمع هذه العبارات، بينما تمضي كسفينة انقطعت جبال مرساتها ومضت بلا مرفأ في المحيط. لا تقصد جزيرة ولا أرضاً، ولو أرادت فلن تجد.

يدها تتحسس المساحة الصغيرة المعطرة.. تتحسسها بعصبية إلى أن جاءت اللحظة التي انقطعت فيها.

* * *

الميكروباص يقترب فتشير إليه.

تصعد بجسدها الممشوق الفارع لتجلس جوار النافذة في المقعد قبل الأخير. ترى في مقعد أمامي ذلك الرجل الذي يلاحظها بانتظاره.. يبدو أن اسمه إبراهيم أو شيء من هذا القبيل. يتظاهر بأنه ينظر إلى الخلف بطريقة عارضة، لكنها لم تبعد نظراتها عنه كصقر. هكذا كان يصعد بعينيها في كل لحظة ويفر سريعاً.

لم تكن رائحة المزاج له.. تشعر أن العالم كله يجثم على روحها، وهي في هذه اللحظة لا تطيق أنفاسها فكيف بأنفاس شخص سواها؟

لم تدر متى تسلل ذلك الرجل ليجلس جوارها. له رائحة قوية كالذئاب وضخم الجثة.. غير مهندم كأنه حرق في أو شيء من هذا القبيل.

من اللحظة الأولى أستدرأسه إلى مسند المقعد أمامه - حيث كان شيخ مسن نائماً - وأغمض عينيه بدوره لينام. نظرت إليه للحظة ثم أدركت أن هناك شيئاً صلباً حاداً يوشك على تمزيق صدرها تحت الضلوع.

كانت هناك كومة من القش وقشور السمسم، وكان هناك جوادان يدسان أنفهما في التبن ويغطسان.. وكانت هناك أكواخ من السمسم الذي لم ير النار بعد.. هناك معصرة ضخمة تصاعد منها رائحة الزيت الحار والطحينة القوية. هناك صفائح معدنية برقة متراصة جوار الجدار وقد تم لحامها.. هناك مصباح كيروسين يهدى بلا توقف.. رائحة الكحول الأحمر في كل مكان.. إنهم يقطرون الخل هنا كذلك في القاعة الخلفية.

وفي منتصف المكان رأته واقفا.

كان هذا هو حماصه...

عرفته من دون أن تسأل.. عرفته من دون أن تراه في النور... عرفته من كومة السلطة والسيطرة التي تناشرت حوله؛ حتى إن أعوانه يجدون صعوبة في الاقتراب منه حتى لا يتعرضا. في كل ركن هناك سلطة ونفوذ تحت قدميك.

سمعت إشاعات كثيرة من قبل تقول إن السرج القديمة هي موطنه ووكره، وبالطبع لا تجرؤ كتبة من الشرطة على مداهمة هذا المكان، لكن أحداً لم يصدق أن حماصه يمكن أن يتواجد في مكان واحد. الآن تعرف أن ما قيل كان دقيقاً فعلاً. إنها في وكر الذئب.. وحدها...

تم كل شيء بسرعة وقسوة كأنه عملية جراحية يجب أن تنتهي حتى لا يتآلم المريض أكثر من اللازم...

كانت هناك أربع أيادي تسمير ساعديها وكاحليها للارض.. كانها ثبتت هناك بأوتاد منذ الخلية. يقول لها وهو يمزق ثوبها:

رأى ذلك الرجل إبراهيم يستوقف الميكروباص ثم ينزل... غبي.

الميكروباص يمشي وسط الشوارع المنهكة المحطم، ووسط أحلام الناس التي أبلاها طول الانتظار، ووسط عيون الصبية المفعمة بالفضول، ووسط الأحزان التي فاضت حتى فاض منها نهر النيل.

رفع الرجل الجالس جوارها رأسه وصاح:

- السرج معاك!

ثم اخترق النصل جسدها أكثر علامة على أنها يجب أن تنهض. لم تدر ما تفعل.. ربما كانت فرصة الفرار بالخارج أفضل.

نهض منحنية وترى أمامها ظهره وردفيه وهو يتقدمها منحنية نحو الباب، وقد خطر لها أن تنتظر حتى ينزل ثم تصرخ وتتمسك بالعربة، لكن الخطة كانت أكثر إحكاماً؛ كان هناك من ينزل وراءها وللحظة شعرت بشيء مدبب في ظهرها.. سكين أخرى.. إنهمما اثنان إذن!

أخيراً ترى السرج جاثمة وسط سحب الغبار بينما الميكروباص يبتعد.. وأدركت أن المكان مقفر وما من أحد هنا.

كانت الأحداث تتحرك بسرعة وقسوة إلى الجهة التي رسمت لها.

وعندما قررت أن تصرخ وأن تركل وأن تعوض وأن تخمش وأن تجري، أدركت أنها واهنة جداً، وأن صوتها لا وجود له، وأن ركبتيها لا تقدران على حملها، وأن هناك رجالاً كثيرين في السرج.. إنهم يخرجون تباعاً...

في النهاية وجدت أنهم يقتادونها إلى الداخل.

ثم نهض وشمت رائحة سجارة محسنة تجعل ثم هو يسأل رجاله
إن كان أحدهم يرغب.

بالطبع يرغبون.

- لا تؤذها.. فهي بنت غلابة. أنت أولاً يا عبد الظاهر.
يتداولون المخدرات والنكبات البذيئة ويتحدون بعضهم في
الفحولة.. فقط هي موضوع المزاح وموضوع الرهان.. والأدهى
أن الكلام ليس عنها كله، بل هم يناقشون مختلف أمور الدنيا بينما
هم يقومون بهذه المهمة. كأن شخصاً يذبحك وهو يكلم صاحبه
عن مشكلة الدروس الخصوصية. من حبك أن تكون أنت موضوع
الكلام عندما تُذبح.. في الأمر نوع لا شك فيه من الإهانة.
لا تذكر كم وجهاً محنتنا مبللاً بالعرق دنا من وجهها.

حرام عليك يا مأهـ.. أنا لم أفعل شيئاً!

تسمع صوت اللحم وهو يتمزق بينما أم فوقية تفرغ من مهمتها
وتضع الكثير من البن لتنمع النزف... عفاف لن تأكل الأرانب ثانية
لأنهم في هذا اليوم واليوم التالي أطعموها مزرعة أرانب كاملة.
حماصة يقول شيئاً ما...

لقد كفت حنجرتها عن إطلاق أصوات، وكفت عيناه عن ذرف
الدموع.. وقررت أن تموت هنا والآن.. لكن كيف؟
في النهاية بدا أن كل رجل على ظهر الأرض قد قضى وطره منها..

- لو فتحت فمك سأعرف كيف أغلقه.. لن تحكي أي شيء عما
حدث. ولن تحكي أين حدث.

عفاف تلعب في الشارع، وتمر بها أم فوقية.. أم فوقية المرعبة
 ذات المخالف السوداء والطحة المتسلحة التي تداري ثلاثة أرباع
وجهها. بعد عشر دقائق الأم تندى من الشرفة: اطلعني يا بـت يا عفاف.

* * *

قبل أن تخرج كان هو قد سد الكشك بجسمه الضخم.. لم تفهم
إلا أنه قبلها في شفتيها بنهم حتى أوشك أن يعضهما، وشمت رائحة
أنفاسه الكريهة ولعابه.

ثم شعرت بتلك اليد الغليظة تمتد إلى صادرها الذي ما زال مسطحاً
كالرخام وتعبث هنا وهناك.

* * *

تهرع عفاف إلى البيت فتجد المشهد مريئاً. أم فوقية تجلس على
الفراش بينما أم عفاف وحالتها تقفان متاهتين.. هناك.. هناك أدوات
جراحية كاملة في منشفة.. هناك شيء صغير يجب أن تمر به كل فتاة لتصير
فتاة حقاً.. أنت عاقلة يا عفاف.. سوف تسمعين كلام خالتك أم فوقية...

* * *

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة.. كانت هناك مرات.. وبـدا أن
حـماصـة لن يتـهيـ أبداً.

لقد انتهی أمر عفاف...

الشيء الوحيد الذي كانت تعرف أنه قادر على تغيير حياتها قد انتزع منها بالقوة وأتلف... وبالتأكيد لن يستطيع لحم عدة أرانب أن يصلح الخلل في جسدها وروحها.. لا توجد سبحة ميزان تهشم بها رأس حماصة.. لن تقدر.

كانت ترى قدمها من العباءة.. لا.. لا تري أن ترى أي جزء من هذا الجسد بعد اليوم.. لم يعد لها، بل هو ضدها.

عرفت أنها ستموت.. لن تحمل شمس يوم آخر على جلدها..
لكن عليها أولاً أن تترك رسالتها الخامسة الأخيرة...

لو كان هناك رجل في جزيرة في «الملايو» لم ينلها فهذه مشكلته.
ساد الصمت والهدوء...

ظللت على الأرض بضع دقائق.. تشم رائحة الزيت الحار وتسمع نهيق الحمير.

بصيغة نهضت.

رأى على بعد خطوات حاجزاً من الحديد الزهر عليه أشكال زخرفية، ويبدو أنهم سيركبونه عند مدخل السرجـة. جوار الحاجز كانت هناك علبة من «السبـرـاي» الأسود، يتم بها رش الحاجز بلون أسود.. ومجموعة أوراق جرائد ممزقة. العلبة التي كان عبد الظاهر يستعملها للطلاع.

لا تعرف سوى أنها مدت يدها فامسكت بعلبة «المبراي»..
لم يعترضها أحد.

* * *

الانتهاك

اتجهت إلى باب السرجة فلم يستوقفها أحد. فقط شعرت بيد
تضع على كتفيها عباءة كريهة الراحلة لتداري ثوبها الممزق، وبيدو
أنهم جعلوا «توك توك» يوصلها إلى مكان قريب من العمران.. ليست
واثقة من أن هذا حدث لكنه هو الأرجح... .

rewayat2.com
سیزیف:

والعرق والمني والشهوة والدم.. هناك فقدت عفاف آخر مبرر للحياة.
ضربة أولى ساحقة مع رحيل حسين، ثم ضربة أخرى قاضية مع
الاغتصاب. على الأرجح هي لم تعد إلى أمها قطُّ.
السرجة حيث يتتظر حماصة وأعوانه.

السرجة.. حيث وجدت عليه «السبراي» التي كتب بها.

* * *

ل ساعات طويلة ظل في الشقة عاجزاً عن الخروج.. عاجزاً عن الكتابة.
كان يتذكر عفاف الرشيقه الناضجه وهي تنطلق في شارع النوساني
لتفل هذه الطرحة أو تلك، مفعمة بالزهو بأنوثتها، وعلى الرغم من
الفقر فهي تتوقع أن الغد أفضل.

تبًّا.. لقد اشتتها كثيراً.. ولهذا لم يتحمل أن تكون نهايتها بهذه
القصوة. حاول أن يكتب شيئاً أو شيئاً، لكن الواقع ظل حروناً يأبى
أن يقبل السرج على كاهله... الواقع الجامح راح يركل بحوافره
ويبعثر الغبار هنا وهناك، وينفح من منخريه.
هناك أشياء لا تقدر على كتابتها أبداً.

أشعل لفافة تبغ ووقف في الشرفة يفكر.

الهواء بارد.. بارد... لكن هذا يبرد قلبه شخصياً. بعد أيام
يأتي المغول ومعهم أطفالهم وثيابهم وصخبهم وأجهزة مذيعتهم
وشهواتهم وقمصانهم المشجرة وآنية طهيهم... الزحام.. لن يكون
هذا المشهد مرة أخرى.

٤٤

وقف عصام أمام الجدار.

كان القطار يمر في هذه اللحظات ويهز الكون كلـه.. يهز النفوس..
يهز القلوب.. يهز العرش الحقيره التي لم تستطع أن تخفي أسرارها،
فانفتحت كجرح مقزز... يهز المسلمين.

لكنه لم ينظر إلى الخلف.. لقد اعتاد كل شيء في الدحديرة
فلم يعد يبالي.

الكلمة التي خطتها يد عفاف الراجفة هي:

السرجة

هذه هي ! بالتأكيد هي ...

هكذا يبدو الأمر معقولاً. كانت تقول إنها فقدت حياتها في
السرجة.. فقدت كل شيء... وهذه هي رسالتها الأخيرة للوجود.
السرجة حيث اختلطت رائحة الزيت الحار والطحينة والكحول

كان يفكر في حماصه هذه المرأة.

لم يستطع فهم حماصه قط ولم يستطع كتابة حرف عنه.

هو قادر على الكتابة عن بلطجي أجير يتغاضى خمسين جنيهاً
ليدبح الثوار.

قادر على الكتابة عن ضابط أمن مركزي يقف وسط الزحام
صارخاً في جنوده.

قادر على الكتابة عن شاب ثوري يحمل لافتة طبعها في مكتب
الكمبيوتر الذي يعمل به.

لكنه عاجز عن اختراق عالم حماصه. من هو؟ هل مع الثورة
أم ضدها؟ هل هو منا أم منهم؟ الواجب أن يكون منحازاً للآثرياء،
فلماذا يكتفي بأن يجعل حياة المطحونين مثله جحيناً؟ وما سر هيبته
واستخفافه بالشرطة؟ من أعطاه هذا الجبروت سوى السنجق، فلماذا
لا تنتهي حياته بطلق ناري؟

لو كان ينوي أن يكتب عن حماصه فعلية أن يفهمه.. لا أحد يكتب
عن صنم لا يعرف اسمه ولا أبعاده.

هناك نقطة مسدودة، وعليه أن يتحسس الجدار بلا توقف، حتى
يجد ثغرة جديدة يخترقها.

* * *

عندما اصطحب مراد تلك الفتاة معه، لم تبدُ رديئة.. كانت ممشوقة
ولا بأس بها على الإطلاق... توقف بسيارته أمام البناء ونظر إلى أعلى.

المكان يشبه المقابر، فلا يوجد بواب متلخصص، ولا جارة عجوز
فضولية، ولا حتى رجل يتظاهر بالحمية والغيرة على الشرف بينما
هو يشعر بحسد قاتل.

بدأت الفتاة تتوتر.. وبدا كأنها تعرف المكان.

- هل هذا بيتك؟

- نعم.. هل تعرفين البناء؟

ظلت صامتة وهي تصعد الدرج بكثير من العسر.. تذكر بوضوح
تلك الليلة السوداء والقيء والإسهال والتسمم.. هذه البناء شهدتها
في أتعس حالة يمكن أن تمر بها أنسى.

ازدادت توترها عندما أولج المفتاح في باب الشقة.. عندما دلف إلى
الداخل.. عرفت الشقة على الفور.. ازدادت فوضى لكنها هي هي...
سألها عن اسمها وبدأ أنه لا يهتم أصلاً بالإجابة.. فقالت بلا مبالاة:

- نوال.

كان هو قد نسي الاسم على كل حال، لكنه قال:

- اسمك جميل فعلاً.

كان يؤمن بأن اسم رشا مثير جنسياً.. وهي.. ألم يكن اسمها رشا؟
 أعتقد أنها قالت هذا...

دست سيجارة بين شفتيها وقالت كلمتها الخالدة:

- معك كبريت يا باشمهندس؟

ابتسم من شدة شراحتها وهز رأسه موافقاً.. غالباً سيفعل فهي
غلبانة.. هنا أسرعت تصحيح ما قالته:

- لا.. ل يكن فاهيتا.. ساندوتش فاهيتا.

- هل تحبين الفاهيتا؟

- لا أعرف ما هي لكن اسمها جميل.

لعن «أبو الفقر» والانفتاح والعلمة وهو يمرغ شفتيه في جذور
عنقها.. ليته يفرغ من هذا ويصرفها قبل أن يعود عصام.. عصام
مجنون وقد يحدث فضيحة.

* * *

ابراهيم الذي لم يعده يعرف هل هو حي فعلاً، أم هو ميت في قبره
يحلم، أعد لنفسه كوبًا من مزيج لبن جوز الهند والأناناس والروم..
كل هذا في كوب كبير ووضع الشفاط وشريحة أناناس.
اتجه إلى الشرفة ليراقب المشهد الذي عشقه: الشمس تنحدر إلى
البحر.. كأنها تذوب فيه وتصبغه.. قرص فوار برتقالي عملاق...
جاءت ناردين وهي تلبس ذلك المایوه الفاضح الذي نصحها
مراً بعدم ارتدائه أمام شاهيين. وكانت تعرف تأثير ذلك عليه جيداً..
باختصار كانت تلاعنه كما يلاعب القط الفار.

قال لها في حنق:

- ليس الآن أرجوك... في عقلني ألف ثعبان يلتئم ألف فار.

دس يده في جيبي وأخرج قداحة. رائحة التبغ ملأت المكان مع
الدخان.

نادي بصوت عالٍ: عصام.. عصام...
لا أحد.

عصام ليس هنا، وهو تمنى ذلك كثيراً.. عصام مخبوء ومتقلب
وقد يطرد الفتاة طرداً.. هذا وارد جداً...

هناك كوب شاي على مقعد بلاستيكي.. هناك شطائر فلافل تم
قصم جزء منها. لمس كوب الشاي فأثار دهشته أنه دافئ.. الشطائر
كذلك طازجة، ومن الواضح أنه لم يمر عليها أكثر من ساعتين.. لقد
كان عصام هنا منذ دقائق إذن.

أخرج الهاتف المحمول وطلب رقم عصام. انتظر بضع دقائق..
جرس بلا ردد.. جرّب مرتين، وفي النهاية قرر أنه قام بما ينبغي عليه.
هكذا اصطحبها إلى الغرفة الداخلية وبدأت الليلة.. وفي الساعات
التالية سيعرف أنها كانت هنا من قبل.. سيعرف هذا ولن يعرف قصبة
القيء وتسمم الطعام. إنها تفضل أن تزعم أنها مارست الجنس على
أن تعرف أنها منحت الزيتون ليلة حافلة من الإسهال. هكذا سوف
يقول لنفسه إن عصام وغد كبير.. وأخطر الأوغاد من لا يبدون كذلك.

قالت له في شبه رجاء قبل أن تزعزع حذاءها:

- عندما ننتهي.. هل تشتري لي ساندوتش هامبرجر؟

رأى هذا كله، وظل يتساءل إن كان جثة نخرة تحلم في قبرها،
أم أن هذا الشراء هو واقعه فعلاً؟

سمع الصبية الثلاثة الذين يلعبون بالكرة ذلك الصوت الغريب
من القبر.

في ضوء العصر الواهن بدا لهم هذا مخيفاً، وقال أحدهم إن
الجثث نائمة تحلم.. ربما تشن كذلك...
لم يتظروا ليعرفوا أكثر، بل فروا متعدلين...

كان يفكر في بريطانيا.. في البرد.. في الحياة باقي العمر هناك وسط
الضباب ومع قوم لا يتكلمون سوى الإنجليزية، لكنه بالتأكيد سوف
يجد نفسه وسط الجالية العربية هناك.. هناك الكثير من النصوص
الفارين ولسوف يندمج معهم بشكل جيد.

قالت له:

- تتأخر كثيراً. لو صدر قرار بمنع السفر.

كان يعرف السبب.. لا يريد أن يشعر هؤلاء أنه هارب وأنه
خائف.. لا يريد أن يمنحهم هذه النشوة.. يريد أن يتجه إلى الباب
بيطء، ويقف هناك للحظات في فرجة الباب.. يلتفت للخلف ويقول
 شيئاً ثم يواصل سيره بتؤدة...

يجب ألا يمنحهم المشهد الذي يحلمون به.. يجب ألا يرضيهم.

قال لها وهو يشعل سيجاراً آخر:

- سوف أحتاج إلى أسبوع لترتيب كل شيء.. المحاميون يعملون
ليل نهار.

وعندما نام حلم.

حلم بالمقهى والدحديرة.. رأى جمال الفقي يحمل كيساً غامضاً
ويتواري، ورأى الفتاة عفاف وقد تلطخ جيداً بالدم.. رأى مصطفى
المزين يتكلم عن الموت في اشتياه.. رأى نفسه يهرع للورشة ويستقل
الميكروباص.

عصام قد اختفى، والغريب أن هذا حدث فجأة لدرجة أنه لم يستكمل شرب كوب الشاي الذي ظل دافئاً.

لأسباب لا أذكرها بالضبط قرر أن يتفقد كومة الأوراق الموجودة في غرفة النوم على الكومود، وقد اكتشف أنها قصة.. قصة كتبها عصام بخطه. لم يكن عصام قادرًا على استيعاب الكمبيوتر وبرامجه تنسيق الكلمات أبدًا. هناكأشخاص تحيط بعقولهم أسوار منيعة خرسانية يجعل وصول الكمبيوتر إلى هناك مستحيلاً، وقد كان عصام بالتأكيد من هؤلاء أو هو هؤلاء كلهم.

القصة تحمل عنوان «دحديرة الشناوي».

كان مراد قد صار محترفًا منذ زمن، ويعرف جيدًا تلك العناوين ذات المذاق الذي يروق للصحافة.. بالفعل «دحديرة الشناوي» عنوان مناسب جدًا بصرف النظر عما يوجد تحته. المكان هو البطل.. ثم أبداً في نشر شخصيات متباعدة.. حيلة لا تفشل أبداً.

لكن أين هذه الدحديرة؟ لم يسمع قطُّ عن موضع كهذا.

يبدو أن عليه مطالعة هذه القصة والكافح مع خط عصام المتلوى شديد القبح. هكذا يمكنه أن يفهم ما كان عصام يفكر فيه وقد يقوده هذا المعرفة أين ذهب.

* * *

لم يكن عصام يعرف موقع السرج.

٢٢

لليلة التالية ظل عصام مختفيًا.

قضى مراد وقتاً طويلاً في الشقة، وجلب معه بعض الطعام ليتخد
موقعه حيث جبل أوراق الصحف الملوثة بالزيت والأكياس البلاستيكية
التي تفوح منها رائحة دجاج عطن أو سمك عطن أو فول عطن.

الحياة هنا كانت مريحة منعزلة وتروق له، ولو عاش هنا لاستطاع
أن يكتب عملاً بالغ الأهمية، لكنه كان يغير هذا الرأي عندما يقضي
 حاجته ويكتشف أن المياه ضيف عزيز قلماً يأتي. على قدر علمه
لم يكتب أي عمل فني مهم في التاريخ بمستقيم ممتلىء.

اختفاء عصام أقلقه بشكل بالغ، وهذا القلق جعله عاجزاً عن إحياء
المهرجانات الجنسية التي كان ينوي أن يحييها.

جرب الاتصال به مراراً لكنه لم يكن يعرف رقم طليقته، كما أن
استدعاء الشرطة بدا فعلاً حماسياً أكثر من اللازم.. فلينتظر قليلاً.

ينظر إليك للحظة.. ثم يسألك بدوره:

- فيمَ تريده؟

هذه الطريقة التي تثير غيظك.. لا بد من أن تشرح قصة حياتك كلها إذا أردت أن تسأل عن شيء، وفي ٩٠٪ من الحالات تكون النهاية هي: لا أعرف أين هو.. أسأل!

تقول له:

- هذا شيء لا يمكن شرحه إلا لحماصة.

هكذا تعامل بسذاجة كطفل. كل العالم يبحث عن حماصة.. آلاف الموتورين يبحثون عن حماصة.. فلماذا تفترض أنهم سيقودونك لمجرد أنك هو أنت؟

لهذا يقول لك الرجل وهو يلقى بلغافة التبع:

- تعال معي.. بالداخل.. حماصة هناك.

أنت تعرف أنها لعبة.. تعرف أنه يخدعك لأنك صبي في الخامسة... لكن هذا هو السبيل الوحيد. المكان الوحيد الذي تعرف أن حماصة كان فيه أو يتزدد عليه.

هنا خطر له خاطر مخيف.. هل كتبت عفاف كلمة «السرجة» لتنذره هو بالذات من الذهب إلى السرجة؟ احتمال وارد فعلاً.

هناك في متصف المكان كانت فرحة في السقف، ينحدر منها

هكذا مشى في ذلك الطريق الطويل خلف مصنع الحلوى، حيث قطع الحجارة والطوب ترجمة على أن يضع يده على الجدار معظم الوقت، بينما لو ابتعد أكثر لوجد أنه يمشي على قسيب القطار نفسه. هناك صبية يلهون بياطاز دراجة قديم، سائلهم عن مكان السرجة. كما هي العادة.. نظرات الشك والتrepidation.. نظرات الكراهة.

صبي ميكانيكي من الطراز الذي اصطلاح على تسميته «بلية» بшибاب يقطر منها الزيت. هذا الطراز من الصبية متشكك فضولي للأبد. يتوقف ويسأله عما يريد؟ السرجة؟

- لا بد لك من أن تمشي بمحاذاة جدار مصنع الحلاوة.. لا بد من أن تدور حول الجباسة.. لا بد من أن تدور جوار الزاوية.. عربة الفول على يمينك.. هناك امرأة تبيع البادنجان المقلي والسمك الصغير. هناك متجر للحام البوابير على اليسار.. هناك منحدر. في نهاية المنحدر تجد السرجة.

السرجة.. السرجة التي تنتظر وتبدو كأنها كانت هناك منذ الأزل.. السرجة التي فقدت فيها عفاف أحلامها وحياتها.. السرجة التي تقف وسط الغبار والتراب وحر القيلولة. هناك حمار ينزلون جوال سمسم من على ظهره.. هناك عربة يبلغ يتم تحميلها.. هناك من يجلس على الباب يدخن سيجارة.. رجل يجلس بفانلة داخلية وسروال مهلهل وحافي القدمين.

تقدمن منه بخطوات متعددة... تسأله عن حماصة.

إبراهيم مات قبل الثورة كما هو واضح، ومات بسبب سرطان الكبد. وإبراهيم حضر جانباً من خطف عفاف وكانت تحاول أن تفهمه بلا كلمات أن هناك من يهددها.

عفاف اختطفت وماتت بعد الثورة.. هذا مؤكداً.. فكيف تستقيم الأمور؟

أين تقع «دحديرة الشناوي»؟ كل شيء يوحي بأنها حي شعبي في القاهرة، لكنه لم يسمع عنها قط.

من الواضح أن عصام ذهب إلى هناك وتعامل مع الأبطال.. وحاول أن يندمج معهم وفشل.

كيف.. بينما عصام يقيم في هذه المدينة الساحلية الصغيرة ولا يغادرها إلا لتدوات أدبية قصيرة هنا وهناك؟

يمكن بسهولة أن تفترض أن نوال باتعة الهوى التي كانت هنا منذ أيام هي نفسها عفاف.. أو عفاف قد خرجت من عباءتها.. بالمناسبة: ما هي مهنة عفاف؟ إنها موجودة في كل مكان وتمارس كل المهن حسب الرواية.

هناك حقيقة أخرى يجب فهمها.. الشاي كان دافئاً والشطائر طازجة. عصام موجود في النص.. لا شك في هذا... عصام من شخصيات القصة.

كان الصداع يوشك على تفجير رأسه. هناك تفسير سهل ويسقط بالتأكيد غير ما تفكرون فيه.. إن ما تفكرون

شعاع الضوء بينما ذرات الغبار تعثث فيه وتترافق، وذلك التأثير الذي يذكر بشعاع السينما.. هل كان اسمها حركة براونية في دروس الفيزياء؟ لا يذكر.. هو لم يبرع في هذا العلم فقط، لكنه برع في علم الذهاب إلى الأماكن الخطأ.

في مركز الشعاع كان الرجل يقف وقد غمرت الظلال وجهه وعقد ذراعيه على صدره. وعرفه على الفور، كما يسهل لنا لو رأينا فيلماً بلغة «اليديش» أو اللغة الصربيّة أن نعرف البطل.. تلك الظاهرة الغامضة التي تجعله هو. كان هذا هو جماعة بالتأكيد.

حمامة «السبع».. الذي أرعب رجال الشرطة على مدى أعوام طويلة. والذي لا يجسر أي واحد من أهل الدحديرة على نطق اسمه بصوت عالٍ كأنه هو الشيطان ذاته.

ابسم.. أنت تقف أمام حمامة.

* * *

قضى مراد وقتاً طويلاً مع الرواية التي لم تكتمل. كانت هناك أسئلة لا تنتهي.

أشعل لنفافة تبغ ووقف في الشرفة يرمي المدينة العينة المنكهة.. هواء البحر يهب فيطير الدخان والرماد ليغطي حاجبيه.. لكنه لا يتحرك. هناك خلط أزمنة لا يصدق في هذه الرواية.. خلط واضح لأي طفل. كيف رأى عصام حادث التحرش بالطفلة عفاف، ثم حضر موتها وهي شابة؟

ولا شارع الحكمة قرب هذه الدحديرة، ولم يسمعوا عن مسجل
خطر فار اسمه حماصة.

كل هذا وليد خيالك يا عصام.. لكنك صرت جزءاً منه.. صرت
جزءاً من حلمك إلى الأبد...

أنت صنعت هؤلاء، لكنهم لم يمنحك احتراماً أو تقديرًا،
وتجاهلوك وارتباوا فيك.. ربما يكونون قد فتكوا بك كما فعلت
أي قبيلة بدائية مع الأب. لكنك على الأقل قد صرت منهم وفيهم
إلى الأبد...

قد عرفتك جيداً.. وأثق أنك حويت في داخلك لمسة من كل من
كتب عنهم. فيك بلاطجي يستلب كل شيء بالسلاح مثل حماصة،
وفيك العاهرة التي تبيع لحمها مقابل وجبة عشاء، وفيك السادي
الذي يعشق طقوس الموت، وفيك الحالم الأبدى الذي لا يعرف
إن كان هو نفسه حلمًا أم حقيقة.

إنني هنا في المكتبة أجلس إلى منضدة صغيرة وسط بخار
«الكاپتشينو» المحبب، جوار الملصق الذي يحمل اسمي، وسط
القارئات اللاتي راقت لهن روايتي «الدحديرة». يلتقطن عشرات
الصور لي في أثناء التوقيع. هذه الرواية ناجحة فعلاً. ضوء الفلاش
يلتمع. والنسوة يرحن ويجهن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكيل أنجلو».
لكني أتوقف.

هناك عبر الزجاج المتسع الذي صار ضبابياً أرى الجانب الآخر

فيه خطأ.. هذيان.. هل تعرف السبب يا مراد؟ لأن الروايات لا تتبع
مؤلفيها ليظلوا بداخلها إلى الأبد ويعجزوا عن العودة.

لا يوجد شيء كهذا.. ولو افترضته فأنت قد بدأت تجن...
النسوة يرحن ويجهن في الغرفة.. يتكلمن عن «مايكيل أنجلو».

* * *

عصام.
أنا مراد صديقك.

هل تسمعني؟
أنا أسترجع كلماتك عن الثورة.. عن الفقر.. عن الثورات التي
لا تنجح أبداً.. وإنني لأتساءل إن كنت تسمعني؟ هل أنت نائم في
قبر؟ هل أنت ضال كروح بين صفحات كتاب؟

في الأساطير الإغريقية اختطف «بلوتو» «برسفونية»، وعندما
عبر بها إلى مملكة «هيذر» تساقط اللبن من نهديها على الطريق..
الأرواح كانت تجد هذه قطرات وترشفها فتستطيع الكلام وإلقاء
الشعر بشكل وقتي.. في قصة أخرى كان لا بد من دم مسفوك كي
يستطيع الشبح أن يتجسد في صورة بشريّة.

أتراءك بحاجة إلى قطرات لبن؟ أتراءك بحاجة إلى دم مسفوك؟
لقد بحث رجال الشرطة جيداً.. لا توجد «دحديرة شناوي» في
مصر قرب قضيب القطار أو بعيداً عنه، وليس هناك شارع النوساني

من الطريق. أرى ذلك الجدار الأبيض وأرى ما يشبه فتاة ظهرها إلى،
تقف هناك في ضوء الغسق الخافت.. هل هي تحمل علبة «سبراي»
ترجمها ثم تخط بها كلمات؟

لا أدرى حقاً.. لست على يقين من شيء. لربما لو كنت بالخارج
لقرأت لفظة «الستجة» ولربما سمعت صوت فس س س!
لربما هناك في مكان ما عفاف أخرى تنوي أن تنهي حياتها بعدما
انتهت فعلًا.

نصيحتي الوحيدة لك يا عصام هي ألا تعود.

سوف تبدو عودتك مبتذلة سخيفة جداً بعد هذا كله. الشيء الذي
يجعل لحياتك قيمة هو أنك لم تعد هنا.. هناك معنى رمزي لاختفائتك
وإن كنت غير متأكد من أنني أفهمه جيداً.

اختفِ يا عصام.

اختفِ.

ولتبقَ كذلك إلى الأبد.

مصر - طنطا

٢٠١٢

rewayat2.com

سيزيف:
by:

كان المختفي أو الفقيد روائياً. ويقال إنه على درجة من الشهرة، لكن الحقيقة أنه لا أحد يعرفه على الإطلاق، ولم يقرأ له أحد حرفًا من قبل. أي أنه هو نفسه مصدر معلومة أنه أديب شهير نوعاً.

الأدباء ينتحرون دائمًا في النهاية، رجال التحريرات يعرفون هذا، لكنهم كذلك يعرفون أن الأدباء لا يبذلون جهداً في إخفاء جثثهم بعد الانتحار؛ إنهم مهملون ويترون جثثهم بأملاكها المتفجرة أو شرائينها المقطوعة في أي مكان، لأن باقي البشر خدم لهم، ولا عجب فهم مغرورون أيضاً. إذن هل تصادف أن المدعو عصام الشرقاوي هو الكاتب الأكثر تحضراً ونظماماً في السنوات الأخيرة؟

في الصفحات التالية سوف نقوم بعمل بطيولي. نحاول أن نعرف سر اختفاء المدعو عصام الشرقاوي. هذا يتطلب أن نبحث كثيراً جداً إلى أن نجد خيطاً، وربما لا نجد.

rewayat2.com
سيزيف:

www.bqfp.com.qa

978-99921-95-74-1



9 789992 195741



دار بلومزيري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



صورة الغلاف: أحمد مراد